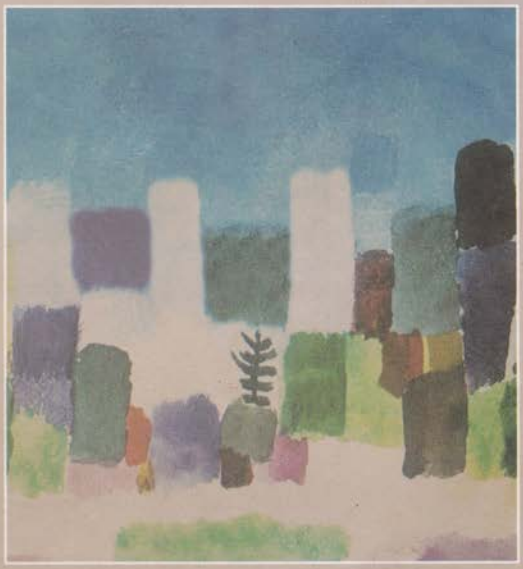

عزمي بشارة

الحاجز

شظايا رواية

مكتبة | 674
سُر مَن قرأ

عزمي بشارة

الحاجز

شظايا رواية

مكتبة | 674
سُر مَن قرأ

الكتاب
الحاجز
تأليف
عزمي بشارة
الطبعة
الأولى، 2006
عدد الصفحات: 256
القياس: 16 × 24
الترقيم الدولي:
ISBN: 9953-68-119-8
جميع الحقوق محفوظة
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+

عزمي بشارة

الحاجز

شظايا رواية

مكتبة | 674
سُر مَن قرأ

المركز الثقافي العربي

الكتاب الأول

وَجْد في بلاد الحواجز

المحتويات

[1] «المحثوم» 11
[2] حارة الحاجز 16
[3] ألوان الليل 24
[4] الحاجز 28
[5] فوردات 33
[6] متجولون . . . ومحجوزون 37
[7] شيْ . . . مشبوه 40
[8] عناية مكثفة 44
[9] نظرية المراحل 47
[10] أخورا 50
[11] الجندي المنيح والجندي اللئيم 53
[12] حائط 58
[13] الجدار من ناحية أخرى 62
[14] طرق التفافية 65
[15] طورا بورا . . . وكآبة المنظر 70
[16] أريتريا 74
[17] مجنون 77
[18] أسطا واصل 80

[19] مدبر حالو 84
[20] وين كنا؟ 92
[21] مسارحة 95
[22] مصارحة 98
[23] طبيعي هذا هيك؟ 108
[24] مطار 115
[25] طائرة 118
[26] زفة 121
[27] منصور 124
[28] زفاف آخر.. 127
[29] زفة 3 131
[30] نجوم الظهر 136
[31] أفرست 140
[32] درس في السلوك 144
[33] بين الحواجز حاجز 148
[34] تشييع جثمان 151
[35] جنازة 1 156
[36] جنازة 2 159
[37] قناع 162
[38] «قناع ملائم يضمن دفاعا كاملا» 165
[39] مطارحة الشعوب الغرام عوض أخوة الشعوب 168
[40] شبح 171
[41] ماجد 175
[42] شجرة اللوز 178

[43] مندلباوم 183
[44] جسر 188
[45] حاجز وجسر 191
[46] جديد 194
[47] هوية 196
[48] انهيار الحواجز 200
[49] جنازة 4 204
[50] عالجسر 208
[51] أمبولنس، سيارة إسعاف 212
[52] شاطئ 215
[53] صمت 219
[54] ساعة شتوية 231
[55] ألوان الشتاء 234
[56] شتاء 237
[57] ربابة 246
[58] عودة من المطر 249
[59] شالونات 253

[1]

«المحثوم»

في تلك الأيام أتقنت ابنتي الكلام بشكل يثير الإعجاب. وتفعل كلمات الطفولة الأولى والجمل المركبة الأولى فعل السحر في الأشياء التي يسميها الكلام فتصبح جميلة. وكلام الأطفال عصا سحرية ما أن تمس الأشياء حتى تتطاير النجوم الذهبية في أرجاء حياتنا المثقلة هنيهات قليلة، لنعود إلى حالة ترقب في انتظار كلمة جديدة. وإذا طال الانتظار يبدأ الإلحاح ثم التوسل: «شو هدا؟» نكرر السؤال برجاء أن تنطلق الأسماء لتبعث الحياة في المسميات وتصبح الأشياء العادية إستثنائية وموضوع كلام. و«قوليلهم شو قلتيلي مبارح»، وكأنها تدرك إدماننا الجديد على السحر، فتعذبنا بنظرات تومئ إلينا بمزيد من التوسل، تليها ابتسامة تقلب التضرع والرجاء ضما وتقبيلاً وركضاً في أرجاء البيت: «يا بابا شو هالضحكة»، ويزحف وراءنا ابننا الذي لم يتقن الكلام بعد منفعلاً من الضوضاء، فأحمله هو الآخر راكضاً لاهثاً لاعناً التدخين. ويبعدنا كلامها عن السياسة، فحديث الوالدين اندهاش من مصدر الكلام، وإعجاب بالتمييز بين الصفات وبين الحاضر والماضي، وانفعال من تألق ابنتهم وتساؤل، هل هو عادي يكبر في حب الأهل أم استثنائي يمنعنا الانفعال من إدراكه؟

وما كدت أقتنع أن ابنتنا قد ختمت الكلام ولم يبق أمامها إلا النثر والشعر والفقه وعلم الكلام، حتى جاءتني من الحضانة: «وين كنت يا بابا؟»، «كنت على المحثوم». شردت هنيهة: «المحثوم» بالثاء المخففة

لفظ طفولي ملائكي للكلمة العبرية «محسوم» ومصدرها «حسام» أي سد الطريق. وتعني الكلمة الحاجز، ومنها الحواجز التي تقيمها قوات الاحتلال فتسد على الناس دروب الحياة. وقد أصر الناس في الضفة والقطاع على إبقاء الكلمة عبرية فهم يلفظون «محسوم» للمفرد ويجمعونها بالعربية «محاسيم»!! وتمكث ابنتي يومياً على الحاجز من الوقت ما ينسيها الحضانة. فهي تذهب صباحاً إلى الحضانة، وهي تعدد «المِسْ فلانة والمس فلانة»، ولكنها تعود إلينا من «المحثوم».

«شو عملتي يا بابا عالمحسوم؟». «غنيت»، «شو غنيتي؟» وانطلقت فوراً بالغناء ترافقه نغمات صوتها العذب الذي يذيب الأشياء فتنساب جداول رقراقة تحيط بنا وحدنا واقفين على قطعة الجنة الخاصة بنا بين المحاسيم: «سنة حِوْلة (حلوة) يا جميل». والجيم المصرية تؤكد أن الحضانة شهدت اليوم احتفالاً بعيد ميلاد أحد الأطفال.

وبعد أربعة شهور متساوية الطول ومتفاوتة العرض من عمرنا لم يعد الحاجز متوقعاً أو مألوفاً، فمنذ الاجتياح أصبح الحاجز إعلاناً للوجود الطاغي لمن وضعه. الحاجز هو الفاصل، وهو الواصل بين العالمين. هو الحدود وهو المعبر. هو الألم وهو الأمل بالخروج. بات الحاجز يأخذ ذاته بجدية، فازدادت بين مركباته كمية الحديد والمواد الصلبة، كما ارتفع عدد الجنود وعبست ملامحهم. أصبحت له بنية. لم يعد مشكّلاً من بقايا معدات الجيش: براميل، مكعبات إسمنت، قطع صخرية متنوعة. وانتشرت حوله غرف إسمنتية أو حديدية زجاجية مركبة وتجهيزات خاصة بها، حتى اللون بات بنياً - رمادياً أحادياً، زالت زركشة البهدلة، وبات الحاجز عديم التعابير.

طال الانتظار على الحاجز، ولكن في الوقت ذاته قلّت شكوى المنتظرين، زادت معاناتهم وزاد صبرهم، زاد جَلَدهم لا لأن جِلدهم قد ازداد سماكة، بل لأن الحاجز بات سريع الانفعال لا يحتمل الشكوى، والخوف لا يسمح بالتذمر. الحاجز في مرحلة ما بعد الاجتياح «ما بينمزح معو»، لأن يده ترتج على الزناد، خفيفة، ولأنه أيضاً خائف.

توازن الرعب على الحاجز لا يغير من هوية القامع وهوية المقموع،

هوية المسيطِر والمسيطَر عليه، هوية الآذن وهوية متوسل الإذن. لم يعد الواقع إلا حاجزاً ولا يوجد في الواقع توازن في الرعب، يوجد في الواقع رعبان لا توازن بينهما، خوفان لا تكافؤ بينهما.

بات الحاجز شمولياً لا يكتفي بأقل من وقت الإنسان كله، جهده كله، أعصابه كلها. حتى النهار قد يمضي وقته أمام الحاجز. الزمن ذاته ينتظر في المكان. رام الله أصبحت تبعد يوم سفر مثل كل شيء، يوم السفر يوم، و«يوم الطاحونة يوم»، كما قالوا. وقد ينتهي بغبار على الملابس ولكن من دون طحين.

تعيش الناس في ظل الحاجز، سافرت أم لم تسافر، غادرت أم لم تغادر. وجوده طاغ على كل شيء، يتخلل كل تفاصيل الحياة، يصبغ كل شيء بلونه. نفسية الناس مرتبطة بالخبر الوارد عن الحاجز، خططهم، مشاريعهم، لقمة العيش، القرار حول مكان السكن ومدرسة الأولاد ومكان العمل متعلقة بموقع كل شيء «أمام» الحاجز أم «خلفه»، كل الاعتبارات تبدأ بالحاجز وكل الغايات يجب أن تبرر ذاتها بمنطقه، وأن تشرح نفسها أمام عرشه.

انتهى الدوام في الحضانة. وفي الشهور الأخيرة تعلمت ابنتنا النظافة إلى درجة أنها تختار ملابسها بعناية، وتسأل إذا «لابسه حلو ولا لأ؟» لتنتقل بغض النظر عن إجابتك لتسألك «بتعرف مين جبلي اياه؟» . وقد اعتادت أخيرا أن تقضي حاجاتها الطبيعية في مكان أطلقنا عليه كل يوم اسماً إلى أن استقر لساننا، ولا أدري لماذا، على اشتقاق إبداعي: pota «البوتا» من البوت pot بالإنكليزية أي الوعاء، ثم انتقلنا إلى «التواليت» الفرنسي. وصعدت ابنتنا درجة معنوية مع ارتفاعها عن الأرض على مقعد التواليت لتعيَّر أخاها إنه فقط عندما يكبر سيحق له الجلوس على ذلك العرش، ولو بجهد بالغ ومن دون ارتياح. انتهى الدوام وابنتي في طريقها إلى البيت على الحاجز. اتصلت قبل ساعتين وسمعتها تغني، وأخوها يلحن بصوته لحناً لا علاقة له بما تغني، ولكنه لا يقصد الإزعاج. كلٌ يغني مواله، واحد بكلمات والثاني من دون كلمات.

اتصلت بعد ساعتين. ما زالوا على الحاجز، ولكن العويل احتل

مكان الغناء، أما اللحن فقد تحول إلى صراخ عصبي متقطع يتبعه «نق» من النوع المتكرر «هأ هأ هأ» تتبعها «بدي أروِّح» مكررة عشرات المرات، ومثلها «وين البيت؟». «وجْد بدها تحكي معك» قالت أمها، لا أملاً بالمساعدة الهاتفية اللاسلكية، وإنما لتقطع وتيرة «النق» لتلتقط أنفاسها أو تريح أذنها قليلاً. انتهى النق على التليفون وتحولت وجد إلى الكلام وهي تبكي، كأنها إنسانة بالغة انهارت دفعة واحدة «بابا في بيبي بدي أروح عالبيت». تأبى أن تقضي حاجتها في ملابسها والحاجز يحول بينها وبين البيت. وتوسلاتنا أن تنهي الموضوع في السيارة، وأينما شاءت، لا تجدي، وقد بدأت تتألم، ولكنها لا تستطيع. وبدأنا نتابع الموضوع، ونعرف جيداً كم مضى من الوقت، فكل خمس دقائق نعود للإتصال. «كم سيارة بعد؟»، «كيف بيفتشوا سيارة سيارة؟»، إلى أن وصلت وجد إلى البيت. وعندما دخلت بوابة عمارة الشقق الخارجية، «عملتها» في السيارة، ربما لأنها شعرت بالراحة أو الاسترخاء لأنها وصلت أخيراً فلم تصبر حتى التواليت. غاب الحاجز.

لم نحتج إطلاقاً للمكابرة لنفكر: ماذا يفعل المريض أو الحامل التي تعاني آلام المخاض على الحاجز؟ لم نتخيل. لسنا بحاجة للتخيل، والشعر مؤخراً لا يزيدنا خيالاً. والإبداع والفن يصور الواقع ليستفيد منه لا ليغيره. وقد أقلعنا عن ذلك منذ فترة إذ تجاوزه الواقع إبداعاً وصدقاً. جاءت أشباح المعاناة بذاتها متمشية على الحاجز، إنها دائماً هناك. في كل سيارة رجل وامرأة وأطفال وقصة، ألف قصة وحكاية. بعضها يصرخ طلباً للمساعدة من المارة من الجنود، يستغيث، بعضها «يتفشش» بالسيارة التي تقف أمامه أو بالزوجة التي تجلس إلى جانبه أو بالأولاد على المقعد الخلفي لتطلع الرجولة والكرامه عليهم بعد أن انسحبت من أمام الجنود، أو انسحقت على الحاجز، أو قمعت ذاتياً قبل أن تصله. بعضها يهمس، وبعضها يعاني بصمت، وبعضها يقص بـ«الطُوَش»، المشاجرات، التي يفتعلها على الحاجز، القصة الأكثر مأساوية قصة غياب الإحساس وانعدام الحساسية للذل.

في اليوم التالي قالت وجد على طاولة الفطور فجأة «في بيبي». «إيه

عال منيح، شو منعمل لما في بيبي؟». وقفت وعملتها أمامنا في ملابسها الداخلية، قبل أن تلبس، والحمد لله، «البيت بعيد» قالت، وضحكت. هل ضحكت لتصالحنا قبل التوبيخ، أم ضحكت منّا، أم أنها فعلاً تضحك من شيء ما يبدو لها مضحكاً؟ تعابير وجوهنا المندهشة، مثلاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

[2]

حارة الحاجز

مع مرور الزمن قامت في فلك المدينة أحياء زادت من هشاشة وسط البلد الذي بات ينوء تحت القوة الطاردة عن المركز. لقد أصبحت المدينة ممراً لسكان هذه الاحياء في طريقهم. وقد حُسِبت هذه الأحياء مجازاً على القدس وأصبحت «غير قابلة للتفاوض» بلغة «العملية السلمية» الجارية أو بلغة «العملية السياسية» أو بلغة «العملية» كما أصبحت المفاوضات تكنى في تلك البلاد. وكل ما يمسه اسم القدس، حتى لو لم يكن له علاقة بها لأنه لم يكن ببساطة قائماً في الماضي المقدس البعيد، أو لأنه كان قرية بعيدة عنها حتى الماضي القريب، يصبح بقدرة قادر، وبفضل استخدام الدين في السياسة العلمانية، مقدساً. حتى انتشر في تلك الديار اعتقاد مفاده أن المقدس هو كل ما أطلق عليه اسم القدس، أو العكس. ومن بين هذه الأحياء ما خطط له بعناية: شوارع واسعة، أرصفة، حدائق، بيوت مبنية من حجارة مقدسية بيضاء ومسقوفة بقرميد احمر. في القدس وحدها يبدو الحجر الذي استخرج ودق من صخر الجبال غريباً عن الجبال ذاتها. تبدو الأحياء أكثر شبهاً بـ«حقائق على الأرض» منها بحارات «فيه أكومبليه» «عوفدوت بشيطح»، كما في لغة سياسيي دولة الحاجز تلك. يندر أن يرى الإنسان السياسة مهندسة ومجسمة اسمنتياً بثلاثة أبعاد ومن دون حلقات وسطية أو جمل اعتراضية أو أقنعة، كما يراها في بلاد الاستيطان خلف الحواجز. ويستفاد من هذه التجربة إنه إذا ما جُسِّمت السياسة

وهي في عجلة من أمرها وأمر صنّاعها، ينتج مجسماً قبيحاً للغاية.

كأنها الوجه الآخر للأحياء المخططة، الآخر قامت، وفي الحقيقة تكومت أو تكدست، حارات عفوية عشوائية، هي النقيض التام للتخطيط. «بناء القرصنة»، هكذا تسمى هذه الظاهرة العربية بالعبرية. إنه البناء غير المخطط في بلد لا يخطط فيه لسكانه الأصليين إلا الرحيل، ولا يبقى فيه السكان الأصليون إلا عكس التخطيط.

لم تشق هنا الطرق وترسى البنى التحتية لتليها الحدائق ثم البيوت، كأن الخاص يشتق من العام ويتبعه. هنا بنيت بيوت للسكن على الشارع الرئيسي بين المدينتين، ثم بدأت بالتراجع عنه تدريجياً بعدما هدم أصحاب الحاجز بعض البيوت. قامت البنايات ثم تحولت الفسحات بينها إلى شوارع. لم تقم حارة، ولم يقم حيز عام، بل تجمع من البيوت لا يربطها رابط سوى الحاجة إلى المنزل. سلسلة من البنى السكنية على الطريق بين مدينتين لا تترك بينها مجالاً لقطع أو تمييز، إلا حيث سيقطع الحاجز الاستمرارية عشوائياً ومن دون سبب ظاهر. في أسفل المباني حوانيت مشرعة أبوابها نحو الشارع الرئيسي، وكلما خويت بطونها فغرت أفواهها نحو المارة.

لم تحظ الشوارع المتفرعة بأسماء ولا أرقام. لم تجتمع هيئة لتسميتها خلافاً للأحياء التي خططها أصحاب الحواجز والتي يندمج في عملية استئراخها وتتريخها استخراء التاريخ المحلي. يسمى الشارع على اسم أحد قادة الحركة التي أقامت دولة الحاجز أو على اسم أو تاريخ «معركة من معارك أصحاب الحاجز»، خصوصاً تلك التي دارت رحاها لتحرير المدينة من سكانها.

ليس للحارة الجديدة بؤرة أو مركز ولا حيز عام تنسج فيه علاقات بين الناس. إنه شارع ممتد على طول سبعة كيلومترات. خطر عبوره إلى الناحية الأخرى خطر الموت لأن السيارات تتعامل معه كأنه شارع سريع بين مدينتين. إنه يصل بين الأحياء ولكنه يفصل جنبيه إلى حيين منفصلين. ولا ينتج الشارع حيزاً عاماً، وإنما خطراً عاماً. وأبرز ما في الشارع هو حوانيت البقالة، وهي الجواب لأبرز حاجيات الناس في ظل

الحواجز، تستقبل السيارات على أرصفتها للتزود بالطعام كما تتزود بالوقود في محطات الوقود. وتستخدم البقالة أيضاً للتأشير إلى مكان السكن: «بعد سوبرماركت فلان في دخلة حادة عاليمين، انتبه لا تأتيها مسرعاً من الشارع لأنها قد تفوتك، بعد السوبرماكت هدئ السرعة، ثم بعد مائة متر عند حاوية النفايات المحروقة، يعني لونها أسود على أخضر، خذ يمين. ثم بعد أول دكان خضار اسمه الفردوس خذ يمين مرة أخرى، انتبه لأول شارع ترابي، انتبه! لأن البعض يجرّ بواسطتها المياه الآسنة. هناك في هيك أربع بنايات لصق بعض، كل واحدة منها أربع طبقات، اسأل في محل معارض غرناطة أو فينيسيا، أو لا، معرض أريزونا لأن ابنه يا سيدي بتعلّم هناك انشالله يكون فالح مثل أبوه، اسال أي منها عمارة ابو فلان» وهكذا. لا يصل البريد هنا بالطبع، فالبيت مكان سكن، البيت مكان للمبيت وليس عنواناً. لا توجد خدمات بلدية ولا شرطة مدنية. هنا يمكّك جيب حرس الحدود باستمرار باحثاً عمن تسربوا بين البيوت ملتفين على الحواجز قاصدين القدس لضربهم واعتقالهم أو لضربهم من دون اعتقالهم، وقلما يعتقلون من دون ضرب. الاعتقال من دون ضرب هذه قضية قانون، والبلاد خلف الحواجز وبين الحواجز هي بلاد من دون قانون. أو أن قانونها يخضع لاجتهادات الجنود الإبداعية بين البيوت وفي ساحاتها الخلفية المعتمة.

لم يقم في هذه الأحياء مجتمع أهلي على أنقاض القرى التي حلت محلها، ولم تقم علاقة جيرة ثابتة بين الناس المستأجرين عند سكان القرى الأصلية التي باتت أحياء في مدينة وبات سكانها مؤجري بيوت في القدس. وإنما تشبه العلاقة إلى حد بعيد في حالتها المتطورة اللقاء في السوبرماركت، واللقاء عند الحاجز في حالتها المتردية. كما تشبه العلاقة بين الملتقين في المطار أو في محطة القطارات المركزية، اللقاء عابر كما الناس عابرون في الطريق إلى مكان آخر. اللقاء في المطار أو المحطة يكون أقل حميمية، حتى لو جمعت أطراف اللقاء معرفة سابقة، فمدته مقررة سلفاً ترافقه عصبية إنتظار الطائرة أو القطار أو الباص، أو عصبية انتظار مواصلة السير بعد انتهاء الحديث. تفلت اللحظة من اللقاء لأن

الهدف هو اللحظة التي تليها. ويفلت الزمان من قبضة المكان باستمرار في غفلة المكان عن اللحظة الحاضرة وهو يترقب اللحظة الآتية.

وكما في كل مكان أقيمت حواجز على الشوارع الرئيسية التي تربط المدينة شمالها وجنوبها برام الله وبيت لحم على الخط المسمى «كاف هتيفر». إنه بلغة أصحاب حواجز تلك البلاد «خط التماس»، مستعار من الخيط الذي يرتق الثوب، إنه الخط الذي يشير إلى الرتق أو الفتق أو إلى الرقعة في الثوب يصلحها ويؤكد وجودها في آن، إنه الوصلة بين قطعتي القماش أو الجلد الآدمي عند خياطة الجرح بعد عملية جراحية.

قام الحاجز في البداية بمعونة علب معدنية فارغة كبيرة لحفظ الأطعمة للبيع بالجملة، وضعت فيها حجارة، وفي بعضها أشعل في الليل فتيل مبلول بالمحروقات. وبمرور الزمن حلّت البراميل الفارغة المملوءة بالإسمنت محل معلبات الحجارة، ثم ما لبثت البراميل أن استبدلت بقواطع بيضاء وحمراء من البلاستيك المقوى الذي تستخدمه عادة دائرة الأشغال العامة في تلك البلاد لتغيير مسار السيارات للابتعاد عن ورشة تصليح الشارع. وما لبثت أن أصبحت إسمنتية مضافاً إليها مكعبات إسمنتية وقواطع حديدية تقطع الشارع إلى مسارين للتفتيش، وصخور من كافة الأحجام.

في البداية وقف الجنود في العراء ثم ارتفع إلى جانبهم برج حديدي يحمل حاوي ماء من البلاستيك الأسود، وفي أسفله خيمة ميدانية ما لبثت أن احتلت مكانها غرفة إسمنتية جاهزة محجوبة عن الشارع بحواجز جاهزة من الباطون المسلح العاري القبيح. ومن حين لآخر تستخدم الصخور أو حاويات النفايات كمتمم إبداعي للحاجز لإغلاق منافذ على جنبي الشارع تحتجب عن نظر الجنود وقد تشكل منافذ للتسلل. وتؤدي أيضاً وظيفة منع سيارة من الالتفاف إلى الاتجاه المعاكس والعودة على أعقابها من حيث أتت. إذا علق من علق على الحاجز فلن يستطيع العودة بسبب الملل أو النرفزة مثلاً إلا بعد أن يتم فحصه، أو تمريره من دون فحص. عليه أن ينتظر بصبر أو من دون صبر، الأمر سيان بنظر الحاجز. الصفيح والصخور والبراميل المملوءة بالإسمنت أو الحجارة تقطع الشارع

طولاً وتمنعه من تغيير رأيه والعودة من حيث أتى. انعدام خط الرجعة، أو جسر العودة، إضافة للانتظار ذاته يجعل الانتظار واجماً وعصبياً محتقناً، منفذه الوحيد الحاجز.

بداية الحاجز عشوائية مثل الأحياء المحيطة به، تفتقر إلى نظام ونظافة وهيبة الحدود، ولذلك يجب أن تفرض قسوة السلوك البشري الهيبة في عملية تعويض عن غيابها البنيوي، وعن غياب القواعد المكتوبة. الحاجز يحجز الحركة ويقسم الفضاء، إلى «ما قبل الحاجز» و«ما بعد الحاجز»، أما الزمان فلا معنى لتقسيمه لأن المكان إمتصه تماماً. وأصبح الإنسان يوجد في أية ساعة من ساعات اليوم إما قبل الحاجز أو بعده ويسكن في حي موجود إما «قبل الحاجز» أو «بعده»، على نفس الشارع الممتد. وطبعاً يتذوت بعض القاطنين «قبله» أو «بعده» هذا التقسيم فيصر أنه يسكن في القدس لأنه «قبل الحاجز»، في حين يسكن جاره في رام الله لأنه يسكن «بعد الحاجز».

- ياخي انتو قدس واللا رام الله؟
- لا إحنا قدس وبالعلامة نمرة السيارة صفرا.

وفي ذلك إشارة للون لوحة رقم السيارة.

- لا النمرا مش مهمة، يعني قصدي ساكنين قبل الحاجز واللا بعده، هلأ إذا ساكنين بعدُه نمرة السيارة ما راح يخلولكو إياها صفرا، وكمان هوية القدس الزرقا رح يسحبوها منك، راح تخسرها، مثل ما بتخسر الغرينكارد إذا ما سكنت في أميركا. لأنك سكنت بعد الحاجز يعني بالعبراني «نقلت مركز حياتك خارج القدس»، ما بصحلك إقامة دائمة في القدس، وشو هي بطاقة الهوية غير حق الإقامة الدائمة؟
- شو أميركا؟ شو أنا هاجرت لهون؟ هلأ أنا اللي نقلت مركز حياتي واللا هم، مين اللي أجا لعند مين؟ مين بعطي حق الإقامة لمين؟ بعدين مين قرر يحط الحاجز؟ شو أنا حطيتُه؟ يعني لو قربُه مترين كان صرت قدس. مين بعطي حق الإقامة لمين؟ بعدين ليش هي هاي قدس؟ هادي قرى منطقة القدس، وإسرائيل

ضمتها للقدس وصارت أحياء: يعني بيت حنينا، شعفاط، أبو ديس، العيزرية، الزعيم، التوري، المكبر. كلكو أحسن مني، كلكو صرتو قدس، وأنا مش قدس لأن الحاجز هيك قرر؟

- هلأ مش مهم، البلاد كلها احتلوها إذا هيك بدك تناقش، واجو عليها كمان إذا بدك. أنت المهم ما عدت قدس. مش قدس بس طالب أجار البيت بأسعار القدس. مش معقول، لازم عندك يكون الأجار أرخص، هذا بيت ضفة مش قدس.
- ما دمت هيك بتحكي لو قدس أنا ما كنت أجرتك، لأن الأجانب واقفين بالدور بدهم بيوت في القدس، وهدول بيدفعوا وخفيفين دم وما عندهم ولاد، كمان ما عندهم عزوة وعشيرة. وما راح يجيبولي رجال كل ما اختلفنا، وما في حدا «يلبس قميصهم» وما بدهم «جاهة» وتعويض كل ما صرخت على ولد من ولادهم، الأجانب بدي اترجاهم ليلبسوا قميص عادي.
- هلأ الأجانب بالذات ما لازم يخافوا من الحاجز، شو يعني بدهم يعملو معهم عالحاجز؟ واحنا اللي لازم أصحاب البيوت يتضامنوا معنا ويأجرونا في القدس.
- كيف يعني يتضامنوا ما فهمت؟
- يبدو أنك فعلاً مش أجنبي. لو أجنبي كنت تضامنت، بس إنت القضية قضيتك مثل ما البيت بيتك، كيف بدك تتضامن والقضية قضيتك... أنت صاحب القضية، وصحاب القضية غير ضحاياها، المفروض يربحوا مش يتضامنوا، صحيح والله نسيت، كيف نسيت ليش نسيت؟ فيه أعداء القضية وضحايا القضية وفي المتضامنين مع القضية وفي المتضامنين مع ضحايا القضية وفي كمان صحاب القضية اللي بحافظوا عليها وفي المتضامنين مع صحاب القضية. وين رحت أنا؟ ما بدي أسكن في هالبلد، بعدين في حدا بعقل وبسكن في بلد كل حجر فيها معتبر حاله مقدس، وماكل بحاله مقلب لأنه في مجانين بأميركا بدهم يشتروه، بلد مجدوب وبجذب كل مجاديب الدنيا.

قبل أن يصبح وجود الحاجز طاغياً أو شمولياً في المراحل التي تسمى «سيجر» بلغة أصحابه أو إغلاق، بمعنى حصار بالعربية، مرت سنوات من الإغلاقات المتقطعة يتبعها تخفيف بموجب أسلوب بافلوف أو سكينر البدائي في تحديد ردود فعل كلب أو قرد التجارب على المؤثرات وسلوكه المشروط بردود الفعل المذكورة. وهكذا توفر الوقت لنشوء أسلوب حياة وثقافة الحاجز في هذه المرحلة، لأن الحاجز صمد فترة تميزه عن «الحاجز الطيار» الذي ينصب لساعات، يوماً أو نصف يوم، ويعدّ للمارة مفاجأة غير سارة في مكان غير معهود، ولكنه لا يلبث أن يختفي تاركاً وراءه ركباً ومفاصل متألمة بعد أن أجبرت على الجثوّ إلى جانبه بانتظار فحص الهويات وأرقامها باللاسلكي، وسائقين يشتمون بعد أن اضطروا حتى إلى فك دولاب الاحتياط، ناهيك عما فوقه أثناء التفتيش الدقيق. ويذكر طلبة الجامعة كيف ترك «الحاجز الطيار» وراءه شهيدين من الطلبة وستة أشهر من الإغلاق، قبل الانتفاضة المسماة أولى تشاؤماً من استمرار الاحتلال وتفاؤلاً باستمرار الانتفاضات. وبحكم تعريفه كحاجز طيار يستفز الحاجز المفاجئ ردود الفعل عفوية وغاضبة ومفاجئة بدورها حتى لأصحابها، وغير مقررة سلفاً. لأن الإنسان لا يدخله وهو مستعد نفسياً حاسباً تصرفاته خطوتين إلى الأمام.

يمثل الحاجز «نقطة تحول» في المجال العام. إنه ليس مكاناً بل حافة، تخوم، ونقطة عبور، نهاية، وبداية في نفس النقطة في الحيز العام، إنه شفا الانتقال. وإذا لم يتقن الإنسان المشي بتوازن، فقد يتحول إلى منحدر سحيق، منزلق نحو الهاوية. فقد يصل المرء منه إلى الاعتقال بدل الوصول إلى العمل، أو إلى البهدلة الجسدية المباشرة بدلاً من البيت. عند نقطة الحاجز ينتهي حيز عام واحد ويبدأ حيز عام آخر. ليس الحاجز النظري مكاناً إذاً، بل نقطة في المكان. ولكن الحاجز الفعلي هو مكان، وهو مكان متوسع باستمرار ليصبح هو بذاته حيزاً عاماً. يخلق الحيز العام المكان ويعيد إنتاجة على صورته ومثاله. هكذا تتحول مفارق الطرق والأحياء المتاخمة للحاجز إلى محيطه، إلى هامش له مطبوع بطابعه. هنا ينتظر الناس بعضهم وينتظر الناس دورهم، هناك يقوم موقف

سيارات، وتباع بضائع وتنتقل من شاحنة إلى أخرى، هنا تنزل أمتعة وتجرُّ العربات. هناك محطات ركاب، قلايات فلافل كدليل فلسطيني أصيل على وجود ازدحام. وللازدحام في بلاد الحواجز رائحة سجائر وفلافل وكباب مشوي وصوت علب مشروبات غازية فارغة تتدحرج بين الأرجل. موقف لسيارات العمال الذين ذهبوا إلى أعمالهم مشياً على الأقدام قبل طلوع الشمس ولم يتبقَّ خلفهم من دليل على وجودهم إلا موقف سيارات بعضهم العتيقة، وبعضهم الآخر الذي لم يسعفه الحظ وما زال على الحاجز ينتظر من لديه «واسطة» وعلاقات مع أصحاب الحواجز ليقله إلى العمل أو يمضي النهار على الحاجز. أماكن للاختباء الفوري من الجنود، وأماكن للانفراد بالناس يجرهم إليها الجنود لتفتيشهم وضربهم بحرية بعيداً عن أعين الناس.

الحاجز هو حالة الوضع، حال الحالة. ليس الحاجز بالنسبة للجنود مكاناً. إنه موضع يوضَعون فيه بحكم علاقتهم بالدولة، يُنَصَّبون عليه، يعينون ويرسلون إليه، إنه موقع للسيطرة والاستبداد. إنه موقع وتحصين. الموقع - التحصين الذي يشرف على الحاجز يرى من الخارج فقط. رؤيته ممكنة ودخوله مثل مسه محظور، إنه ليس حيزاً عاماً، إنه موقع يسيطر على الحيز العام.

[3]

ألـوان الليل

ما زال يذكر تلك الليالي الصيفية في دير ماريوسف، في مسكن الطلاب غير الرسمي، مأوى الحركة الطلابية الرسمي. نزلوا من منتصف الليل بإتجاه الصباح عبر شارع الأنبياء مشياً على الأقدام مروراً بعرائش البطيخ عند حي المصرارة مقابل الأفران. نظروا نحو العرائش بازدراء الثوريين الذين ينظرون إلى وكر حشاشين. وتابعوا السير بعد منتصف الليل مروراً بباب العمود من دون أن يهبطوا درجاته الجديدة بعد الترميم، وأكملوا السير حتى باب الأسباط ودخلوا إلى البلدة القديمة التي يحيط بها سور، واتجهوا إلى اليسار، وتابعوا مسيرتهم إلى الفرن الذي كان، والذي يعمل ليلاً ويقفل في النهار، إلا في نهايات الأسبوع والأعياد، حيث يخبز للناس مأكولاتهم، ويحمِّر لهم مُحَمَّراتهم، ويدس لهم قدور «القدري» إلى جانب الحطب لتنضج «على مهلها».

أرادوا بعد السهر الطويل والمناقشات السياسية، التي لا تميز فيها السيكارة من الادعاء، أن يملأوا رئاتهم من هواء البلد القديمة وأزقته الخالية، وأن يتناولوا الكعك الساخن مع البيض المشوي والفلافل المقدسية التي تشبه في حجمها الهامبورغر الذي لم يعرفوه في حينه إلا من الأفلام. وربما هذا ما دفع بعض أصحاب الحواجز في يومنا المحتلين في حينه الذين فتحوا أكشاك فلافل في مدن أوروبية أن يسموا الفلافل «أزرييلي فجيترين هامبورغر» وليصطادوا عصفورين بحجر، تغيير هوية الفلافل أي مصادرته مثل الأرض، وتملق النزعة النباتية لدى اليسار

الأوروبي وحركات البيئة المعادية للهامبورغر الحيواني الذي يحول غابات البيرو والأرجنتين وهي رئة العالم الخضراء إلى مراع لأبقار تُحْقَن بالهورمونات. وهو لا يذكر من كثرة كلامهم في تلك المرحلة إذا كان قد قال هذه الافكار لأصدقائه أم دخنها، أي فكر بها بصمت وهو يدخن كما يفعل الآن أمام الحاجز.

طلاب وطالبات جامعة دخلوا الفرن. عطَّل وجود الطالبات نكاتهم مع صاحب الفرن الذي تغيرت تعابيره لوجود الطالبات في هذه الساعة المتأخرة من الليل. لم يصبح أكثر تأدباً بل أكثر غضباً، ربما لأنه تخيل ابنته في الجامعة أو شيئاً من هذا القبيل . . .

مع أن لباسهم كان محافظاً ومظهرهم لم يوح بسوء من النوع الذي يفكر به، ولكنه لا يوحي بسوء في الصباح. في هذه الساعة لا بد أن يوحي بسوء. في هذه الساعة لا بد أن يكون الشيطان، أو ملاك الحب ثالثهما. يتوقف ذلك على زاوية النظر. كل شيء في سياقه.

تحملوا نظراته التي تتجنبهم أثناء الكلام وإجاباته المقتضبة، وصعدوا من حمرة الفجر بالزاد عبر أزقة القدس القديمة التي خلت لهم ولبعض مطاردي السائحات والحشاشين، يخفق قلبهم بسرعة قبل كل منعطف مظلم في نهاية كل زقاق، ولكنهم يستأنسون بأولئك من بينهم الذين يصيبهم داء المرح والتنكيت عندما توجد فتيات. هنالك من يصاب بداء المرح المبالغ فيه ويشعر بنوع من الاكتفاء لو تجاوز الإحراج عند إضحاك الفتيات، وكأن الضحك شهادة على خفة الدم، أو أن ضحك الفتاة المستمر مثل «كأس المشروب» الثاني يزيل الحواجز، أو الشيطان ثالثهما يعلم. . . إلى أن يصطدم وهو يحاول إضحاك الفتيات بأحد منهم أيضاً يأبى أن يُستخدَم موضوع سخرية لهذا الغرض فيعكر الجو ويقلبها غماً وحرجاً أمام الفتيات.

مظهر الانتفاضة الأولى الأول انسحاب عرائش البطيخ من تخوم البلدة القديمة، هذا الانسحاب الذي تمنوه في طريق العودة إلى الدير، وكانت العرائش قد حاصرتها من عند باب العمود بالضبط. نوع جديد

من الديسكوتيك الشرقي قام في القدس يجمع بين عريشة بيع البطيخ وشاشات تلفزيونات ضخمة تعرض عليها أفلام كاراتيه أو أفلام أخرى غير إباحية، طاولات وكراسي لأكل الكعك المقدسي والفلافل واللبنة، وموسيقى صاخبة ورقص: «المدينة نائمة والمحتلون يرقصون». انسحبت عرائش البطيخ الكبيرة بآلاف الشباب والشابات، منهم شباب عرب يبحثون عن فتاة أو يبيعون أشياء، جمعهم خروج السبت ودخول البطيخ.

لم يعد الرقص بعد الانتفاضة ممكناً في المدينة النائمة ولا ممارسة هذا الضرب من التعايش بين الراقصين والنيام.

بعد انسحاب عرائش البطيخ تجمعت مجموعة بارات ومطاعم ومراقص حول سجن المسكوبية في أعلى شارع الأنبياء فوق باب العمود وحي المصرارة. خطوة غير مفهومة إطلاقاً، لأن من معالم المدنية إخراج السجون خارج المدينة وإخفاؤها عن الأنظار مثل مستشفيات الأمراض العقلية والمصحات، خلافاً لعقلية القرون الوسطى وبداية الحداثة العنيفة التي برز فيها السجن في وسط البلد، ونصبت فيها المشانق والمقاصل وتدحرجت الرؤوس في ساحتها المركزية.

هنا، في عصر ما بعد الحداثة، وما قبل الحاجز، تجمعت البارات حول السجن. وتتجول مجموعات من الشباب التي عادت لتوها من الخدمة في «المناطق» في هذه الجهة من القدس بسراويل جينز وقمصان مفتوحة أو «تي شيرت» بسيط أبيض، وشعر طويل ووجه غير حليق «عالموضة» وإم 16 مدلى عند أسفل المؤخرة بغير اكتراث. مجموعات من الشباب تتجول من بار إلى بار في الوقت الذي يتم فيه التحقيق يرافقه «الضغط الجسدي المعقول» في حجرات غرف التحقيق التي تبعد عن المرقص خطاً جوياً لا يتجاوز الخمسين مترا.

لم تعد المدينة تقدم الكعك والجبنة والبطيخ للشباب، ولم تعد زميلتها «تجرسن» للطبقة الأرقى والجيل الأكثر بلوغاً، فتجمعت البارات والمطاعم وحشرت حول السجن عند تقاطع شارع الأنبياء مع شارع الملك جورج. في المطابخ يغسلون الصحون، وعلى بعد أمتار يملأون

السجن، كان هذا قبل بداية عصر الحواجز الحاجزة عن المطابخ، والمؤدية إلى السجون. وما لبثت البارات أن تآكلت ونخر فيها التناسب العكسي بين القرب والفجوة بين الرقص والتعذيب، ولسبب ما، تبدو مهجورة في عصر الحاجز.

[4]

الحاجز

«الحجز: الفصل بين الشيئين، حجز بينهما يحجز حجزاً وحجازة فانحجز، واسم ما فصل بينهما: الحاجز. الأزهري: الحجز أن يحجز بين مقاتلين، والحجاز الاسم، وكذلك الحاجز. قال الله تعالى: «وجعل بين البحرين حاجزاً»، أي حجازاً بين ماء ملح وماء عذب لا يختلطان، وذلك الحجاز قدره الله. وحجزه يحجزه حجزاً: منعه»

«والحَجَزَة بالتحريك: الظلمة، وفي حديث قَيْلة: أيُلامُ ابنُ ذه أن يفصل الخطة وينتصر من وراء الحَجَزَة؟ الحجزة هم الذين يفصلونه عن حقه».

من مادة «حجز»، **لسان العرب** لابن منظور

امتد الحاجز وهيمن على كل شيء. الحاجز في قلوبهم، والحاجز في عيونهم. الحاجز يفصلهم ويقسمهم على جنباته، والحاجز يجمعهم أمامه. الحاجز يستفز أسوأ ما في صراع البقاء وفيهم، كما يحصل للناس المتصارعين للنجاة بأنفسهم في قارب لا يتسع لهم جميعاً. الحاجز يستدعي أنبل ما فيهم. الحاجز هو الفوضى، وهو النظام. إنه الكتلة البشرية المغبرة المتصارعة المتشابكة المتلاحمة مع كتل الإسمنت في محاولة النفاذ، كل بجلده. وهو الصف الطويل الذي يقدم فيه المريض على غير المريض. الحاجز هو المظاهرة والتحدي وانفجار الغضب والكبرياء دفعة واحدة، بفعل فظاظة الجندي، أو بفعل حرارة الشمس؟ لا أحد يعلم، ولا حتى ألبير كامي، فالغرباء الأجانب عموماً لا يقفون

على الحاجز. الحاجز هو الهتاف، وهو التمتمة. هو اللعنة، وهو الاستعاذة بالله منها.

عندما اكتشف الناس التليفون النقال، أو المحمول، أو الخليوي، «السيلولير» في لبنان، أسموه بداية «بيليفون»، كما أسموا الحاجز «محسوم» والإشارة الضوئية «رمزور»، لأنهم تعرفوا إليها أول ما تعرفوا بالعبرية ولأنهم لم يروها قبل ذلك بلغة أخرى. وللعين لغة ترى فيها الأشياء. ولكي لا يستغرق إخوانهم في الغربة بالاستغراب، لا بد من التذكير بأنهم أيضاً سمّوا المحارم الورقية «كلينكس»، وهي تسمية لا تعني محارم ورقية بأي لغة، وكما أسموا المكنسة الكهربائية «هوفر»، وأحياناً يراوده وهم صوتي (ولكي لا يناقشه أحد بالألسنية أكد دائماً أنه وهم!) أنه ربما كانت «الهوبرة» السياسية مشتقة منها. وكما أسموا في «الخارج» السلعة الاستهلاكية على اسم الشركة التي قدمته لهم، هكذا كان أيضاً نصيب «بيليفون» من التداول. ولكن شركة «بيليفون» الأولى في هذا المجال، والتي تحدَّت قلة الخطوط التليفونية التي مدتها شركة احتلالية بملكية دولة الاحتلال والحواجز في المناطق العربية المحتلة. لقد اختارت اسماً له معنى بالعبرية، فـ«بيليفون» بالعبرية هي جمع بين كلمتين تعنيان: التليفون العجيب. «وشوف العجب يا رجب وأعجب من الروايات». بقدرة قادر وصلت بالبيليفون أماكن نائية لم تحلم بالوصل. وأصبح كل مواطن مشاهداً ومراسلاً لمحطة فضائية في آن معاً. وعلى وزن «اعمل ذلك بنفسك» الأميركية لصناعة الأثاث وأدوات العمل، أصبح بالإمكان القول: «اعمل برامجك التلفزيونية بنفسك»، أو «صمم بنفسك أوقات الفراغ» وذلك بالاتصال اللاسلكي البيليفوني من أي مكان إلى الأستوديو.

ومنذ أن اخترع البيليفون وحمله الناس في الأفراح وفي الجنازات وأجابوا عليه أثناء استماعهم لمحاضرة، واحتل مكان علبة السجائر في الجيب، ودور المسدس لمن يتمنى أن يحمل قطعة معدنية متدلية من حزامه ولا تكتمل رجولته من دونها، منذ أن رماه الناس بغير اكتراث على الطاولة حال وصولهم إلى المقهى أو إلى بيت لزيارة معارف، أي

منذ أن احتلت هذه الحركة مكان حركة إلقاء مفاتيح السيارة لتحدث قرقعة لافتة، فإذا كان صاحب السيارة محظوظاً انتبه الناس لنوع سيارته، منذ بداية هذا العصر الجديد، تبدأ المحادثة الهاتفية كما يلي: «هلو، مرحبا، وينك؟»، أو «هلو وينك؟»، أو «هلاو وينك»، أو «ألوو وينك»، أو «ألُ وينك؟». تتغير «الهالو» والـ«وينك» واحدة. أي أن سؤال «أين أنت؟» احتل مكان «كيف الحال؟». ولكن التعامل مع سؤال «كيف الحال؟» لا يتطلب إجابة ملزمة بل إجابة سلبية أو إيجابية تقال لغرض متابعة الكلام ولا يتم التوقف عندها، أما سؤال: «أين أنت؟» فما زال حتى الآن سؤالاً عينياً يتطلب جواباً عينياً. وبإمكانك أن تجيب عن سؤال: «كيف الحال» لدى قضاء حاجة في «التواليت»، وهذه الأخيرة ليست كلمة عبرية ولا عربية، ولكن كيف تجيب عن سؤال «أين أنت؟» وأنت هناك، ولا تربطك بالمتحدث السائل أي علاقة؟.

ومنذ أن عيَّن الاحتلال، من دون عون من شركة بعينها، الحاجز العجيب الشمولي الكلي الحضور، اليومي، غير النقال وغير المحمول وغير القابل للتوقع والحساب في إيقاعه وسلوكه اختفت كلمة «وينك؟». وذلك لسببين، أولهما أنه احتل مكان هذا السؤال همّ مباشر جديد لا يقبل بأي سؤال قبله بعد «الهالو» في المحادثة الهاتفية، وبعد السلام في المحادثة وجهاً لوجه. «كيف فكرك مفتوح الحاجز اليوم؟» أو «ها شو صار معكو عالحاجز، مريت بالآخر؟». وهذا السؤال الأخير مركّب ويفترض وجود «بيليفون» لأنه يفترض معرفة بما وقع لشخص على الحاجز من ألوان المعاناة أثناء وقوعها بالبث المباشر على «البيليفون»، كما يفترض انتظاراً لمعرفة ما أسفر عنه هذا الوقوف الطويل.

- كيف صار شي اليوم عالحاجز؟ انتظرت كثيراً عالحاجز؟

ويصبح السؤال عينياً وأكثر واقعية مع الوقت:

- شو انشالله ما انتظرت أكثر من ساعة، ساعة ونصف؟

وعندما تتبدد الآمال تماماً:

- شو بتقول انتظرت كثير؟ ساعتين كثير؟ طيب إحنا مبارح الله ستر إنه ما نمنا عالحاجز!

وخذ مزاودة على هذا النحو، تتناول طول الانتظار، إلى أن ينَبِّه المتكلمين دائماً صوت متوقع من زاوية مألوفة ترفض أن تغرق في التفاصيل وتعيد الهموم والتفاصيل دائماً إلى الموضوع الأساسي بنظر المتحدث:

- طبعاً كثير، خمس دقائق كثير، شو بدهم يحرمونا الروحة عالقدس واللا بدهم يحرمونا الشغل والحركة، نسيتوا بلاد مين هاي؟

بات الالتفاف عليه شبه مستحيل، وأصبح الخيار إما مواجهته أو الخضوع له.

وثانياً، اختفت كلمة «وينك؟» لأن السؤال بات سخيفاً بل مستفزاً مع الحياة في ظل الحاجز، فأين من الممكن أن يكون في هذه الظروف؟ إما منع تجول وبالتالي في البيت، أو على الحاجز أو في البلد، لأن التنقل من بلد لآخر أصبح شبه مستحيل. إنه «الإستثناء» وليس القاعدة.

أما «منع التجول» فقد فَقَدَ التجول وأصبح منعاً فقط:

- في منع اليوم؟
- لا، مبارح كان، وبكرا في منع.

مكتبة
t.me/t_pdf

أو

- رفعوا اليوم المنع ساعتين.
- كيف المنع؟
- شو أخبار المنع؟
- عارفين شو صار بالمنع اليوم؟
- أما اليوم والله مشددين المنع!
- إن شاء الله بكرا إذا ما في منع!
- بعد المنع بإذنه تعالى.
- ليش هو متى المنع، مش عالسبعة كل يوم؟ شو صار؟ ليش مغيرين؟

والحديث عن «منع التجول»، أي منع الناس من الخروج خارج عتبة البيت ليوم أو اثنين، أو لأسبوع، والمقصود بالناس، كل الناس: الكبار

والصغار، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء والوسط وتحت الوسط وفوق الوسط بقليل، العاقلون والمجانين، المرضى والأصحاء، العمال والطلاب، الهادئون والعصبيون، المتعلمون وغير المتعلمين، العارفون والجاهلون، القوميون والمتدينون والعلمانيون والأصوليون، المتخلفون والمتحضرون، أنصار التسوية وأعداء التسوية... كلهم «تحت المنع».

[5]

فـوردات

اختفت سيارات التاكسي السيرفيس من شارع القدس رام الله، تلك التي كانت تقلك بين المدينتين مقابل شيكل واحد. يقف السائق حيث تؤشر له فجأة ومن دون سابق إنذار ولا غماز مستدعياً شتائم السائقين خلفه. اختفى السيرفيس إقتصادياً، كان ذلك قبل أن يمنع الحاجز سيارات أهالي رام الله وغيرها من مدن وقرى الضفة، بلاد الحاجز، التي تحمل لوحات الأرقام الزرقاء من عبوره نحو القدس. اختفى هذا النوع ولم يصمد في صراع البقاء لأنه لم يتحمل ضرائب الترخيص ومخالفات السير ورخص الأجرة. واحتلت مكان التاكسي سيارة «الفورد ترانزيت» البيضاء غير المرخصة كسيارة عمومية والمحررة ذاتياً من الرسوم وراحت تجوب الطريق تنهبه نهباً بالإتجاهين كالمكوك، وكأن الشارع داخل البلد أوتوستراد دولي، وكأن بقية السيارت تتطفل عليها عندما تستخدمه. ويبدو أن كل سيارات الفورد ترانزيت بلاد الحواجز القديمة قد انتقلت للعمل على هذا الخط بعد أن اشتراها مقدسيون.

السائقون شباب في العشرين من العمر، غالباً ما يحسبون أنهم على متن طائرة جامبو جيت على مدرج رام الله القدس قبل الإقلاع بثوان، جيل الانتفاضة الأولى «بعد أوسلو»، يستمعون من دون حرج لأغانٍ إسرائيلية شرقية بالعبرية التي تشابه النواح في فيلم تركي أو عربي من الأربعينيات، من النوع الذي كان يعرض في سينما «جانيم» (جنائن، حدائق) في حيفا، حيث كانت زانيات المدينة يحضرن مزودات بالمناديل

للبكاء في الفيلم وفش الخلق بعد أغنية تركية أو أغنية باكية لفريد الأطرش. يبكين حتى في حضور البحارة، فكم بالحري في مواسم غيابهم؟ وقد اختفت سينما «جانيم» قبل قدوم البوارج الأميركية التي باتت توحد زانيات المنطقة في شرق أوسطية جديدة. ولكن سائقي الفورد يغنون ويضحكون، ويرفعون صوت المذياع عند الحاجز علهم يجدون جنوداً يفصلهم الزي الرسمي عنهم، ولكن توحدهم الدندنة مع «زهافا»، أو «حاييم موشي»، أو «ساريت حداد»... ومن الصعب أن تعرف الفرق بين الطرب والتمويه في حالة هؤلاء الشباب، فمظهرهم يوحي أنهم لا يمثلون، وأن القناع «الشرقي» الذي ارتدوه بدل العربي أو الفلسطيني قد التحم مع البشرة فبات جزءاً منها. لم يُزل الشباب الملصقات العبرية عن زجاج السيارة بعد اقتنائها. وتكاد لا توجد سيارة إسرائيلية لا تحمل موقفاً عبر ملصق سياسي، وبعضها يحمل ملصقات عديدة كأنه مظاهرة متجولة. رمز الوحدة العسكرية التي خدم فيها السائق كجندي على الأقل: شعار سلاح الطيران، أو المظليين، أو موقف سياسي يفضح «المعسكر» السياسي الذي ينتمي إليه سائق السيارة: «هعام عِم هجولان» (الشعب مع الجولان) أو «هعام نيجد تكشورت عويينت» (الشعب ضد الصحافة المعادية)، «ييشع زه كان» (يهودا والسامرة هنا.. في إشارة لـ«القارئ» أنه لا يستطيع التهرب بالاعتقاد أن هنالك فرقاً بين مصيره ومصير المستوطنين في المناطق التي احتلت عام 1967) أو «اين عرابيم اين بيجوعيم» (بدون عرب وبدون عمليات) «السلام الآن»، أو «السلام هو الأمن» أو «دور شليم دوريش شلوم» (جيل كامل يطالب بالسلام) ويتحول السائق في دولة أصحاب الحاجز من دون أن يدري إلى قارئ نجيب حافظ للشعارات المسافرة أمامه والتي تحيط به من كل جنبات الشارع رغم أنفه وقبل أن يفكر أو يعيد النظر: «ماذا أفعل، ولماذا أقرأ وأردد هذه الشعارات؟» يكون قد غطس متأملاً بها فترة طويلة. كانوا صغاراً يقرأون اليافطات التجارية من دون أن يدروا وبشكل غير إرادي من نافذة باص البلد في الطريق إلى المدرسة «بنك هبوعليم ليمتد» نقرأها ليمتد، أي لكي يمتد ويزدهر،

فباتوا يقرأون الملصقات على نوافذ السيارات الخلفية بشكل غير إرادي.

وما لبث سائقو الفوردات الشباب أن أضافوا للملصقات القديمة العبرية السياسية ملصقات جديدة قد تنفع المرء عندما يمر من مدينة يهودية أو عندما يضطر شرطي إلى اتخاذ قرار سريع بإيقاف أو عدم إيقاف هذه السيارة المسافرة بسرعة. أليس الملصق الأبيض لليوم الأسود؟ عندما اغتيل رئيس وزرائهم انتشرت على سياراتهم ملصقات: «شالوم حفير» (وداعاً يا صديقي، عبارة رئيس أميركي العبرية من كلمته في تأبين رئيس الوزراء) و «حفير أتاه حسير» (نحن نفتقدك أيها الصديق) وخذ قوافي وسجعاً من هذا النوع على فوردات القدس رام الله! أوهم سائقوها أنفسهم أن اغتيال وفقدان رئيس وزراء دولة الحاجز الذي اغتيل من قبل مناصري ضم بلاد الحواجز، لأنه تجرأ على التنازل عن بعض الأراضي في إتفاق سلام، هو موضوع تحالف بينهم وبين جنود الحاجز ضد المستوطنين المتطرفين الذين قتلوه، أو أنه يحميهم على الأقل من تكرار مخالفة شرطة المرور الإسرائيلية لهم.

حلت هذه محل الملصقات المعروفة على سيارات أهل تلك البلاد قبل عهد الحاجز: «يا صلاة الزين» أو «سارحة والرب راعيها» أو «عين الحسود» أو «القلب يعشق كل جميل» أو الملصق السمج والذي «يسمّ بدن» قارئه بخبثه الغبي، وهنالك لمن لا يدري خبث غبي هو أكثر الصفات الإنسانية وطأة على النفس: «اللهم احمني من أصدقائي لأنهم ألد أعدائي».

ولكن محاولات المراضاة تبدو بائسة إزاء سخرية الجنود أو غضبهم، ولذلك يضطر بعض السائقين إلى تقديم خدمات ذات معنى يتجاوز مجرد التظاهر من نوع التأشير أو، للدقة، الوشاية للجندي على المسافر الذي لا يحمل هوية زرقاء من هويات أصحاب الحاجز، أي أنه من بلاد الحواجز، بلاد ما خلف الحاجز، والمفروض أن يحمل تصريح دخول وإلا...

ويبدو من رائحة الفوردات مؤخراً أن مرض ضغط الدم العالي قد انتشر في بلاد الحواجز انتشاراً غير مسبوق بسبب التوتر والضغط الحياتي

المسمى «سترس». وقد انتشر في البلد من جديد العلاج بالأعشاب، كموضة مستوردة من برامج التلفزيون وخريجي الجامعات العائدين حديثاً من أوروبا، بعد أن كان التداوي بالأعشاب هو الأصل. على كل حال انتشر الوهم القائل أن الثوم ينزل ضغط الدم. وقد حلت رائحته محل رائحة السجائر والديودورانت، أو اختلطت بهما وأصبح «الديويدورانت» والـ«أفتر شيف» مثوماً. وتفنن البعض بالكمية وبأكله على الريق قبل قهوة الصباح. والموضوع برمته مثل غيره من المعلومات الإعلامية في عصر الجماهير مجرد نظرية غير ثابتة تعتبر الثوم عاملاً مساعداً في تخفيف ضغط الدم، ربما، ولكن الذي ثبت هو أنه رغم أن تنزيل ضغط من يأكلها غير أكيد، إلا أنه من المؤكد أنها ترفع ضغط من حوله.

[6]

متجولون... ومحجوزون

ينجب الازدحام تجارة المفرق، فوقوف الناس هو مجال حركة البائع المتجول. يتحرك عندما يقفون. والوقوف الاضطراري هو الشرك الذي يقع فيه المشتري رغم انفه. تتجول جماعة من الأولاد حول السيارة ولا تتركها، وهي تعتمد على حقيقة أن هم واهتمام السائق والركاب ينصبُّ على الحاجز فيبدو لهم هذا «التدبيق»، الالتصاق، بزجاج السيارة هما بسيطا يخضعون ويستسلمون له تغليبا للتناقض الرئيسي على المعارك الجانبية مع الباعة. يبدو البائعون الصغار للحظة كمن يتلهون بضغط الفم والانف على زجاج السيارة في لعبة طفولية عابرة للقوميات. تتغير تقاطيع الوجه، وهذا لسبب ما يضحك الاطفال في كافة البلدان كما يجعلهم الـ«شيبس» و«الهامبورغر» يبتسمون قبل أن يحرضهم أهلهم ضده. ولكن السيارة لا تتحرك وبالكاد يرى السائق اشباح الجنود الخضراء الزيتية، ويصبح الطفل الذي يحمل العلكة، أو محارم الورق، أو قصاصات الأظافر، أو الولاعات هما ثقيلا لحوحا. وقصاصة الاظافر خلافا لزميلاتها، ليست من لوازم الانتظار على الحاجز، فالإنسان العصبي على الحاجز لا يقلم اظافره بل يقضمها. والصبي الذي يلصق وجهه بزجاج السيارة لا ينفك يردد «اشتري مني بشيقلين»، «ليش اشتريت منه ومني لأ؟»، وهو يراقب الزبون المغتصَب والمغلوب على أمره في السيارة والذي لا يستطيع منه فكاكاً خلافاً للمارة المشاة الأسرع حركة والقادرين على التخلص وعلى تهديد الصبي بالتلويح باليد، والركض وراءه بضع

خطوات. يصرخ السائق ويعنف ويتوعد، ولكن ازاء مثابرة الصبي ومعرفته بقيود وحدود ضحيته سجينة السيارة، فإنه يبدأ بتوسل الصبي واقناعه إنه لا يوجد معه «فكة»، «فراطة» بالفلسطيني.

والصبي يراقب: قد يكون السائق فعلا مغلوبا على أمره ولا يحمل فكة. ولكن مهلاً، لقد بحث فعلاً إلى جانب المقعد، لقد رضخ، وخلال دقائق سوف يتبرع من معه بالسيارة، وسيهبون جميعا ودفعة واحدة لنجدة زميلهم. وفي محاولة للوصول إلى القطع المعدنية الصغيرة في قاع الجيب يميلون ذات اليمين وذات اليسار ويرفعون الفخذ تلو الآخر عن مقعد السيارة ويشدون بطونهم إلى الداخل بسحب النفس وحبسه كما هو الحال قبل صورة أشعة، وبصر البائع الصغير أكثر نفاذاً ودقة في التشخيص من أنفذ أشعة. ينتصر الصبي عندما يهتف احد الركاب: خذ النقود، ودع العلكة معك، لا نريدها. وليس كل الأطفال منشغلين برمي الحجارة على جنود الاحتلال، فهنالك من يضطر للبحث على الحاجز عن لقمة العيش، متعرضاً لما يشبه العبودية من قبل من يحمِّلهم البضائع التي يبيعونها، ومنهم من يغير الأدوار تباعاً.

الأولاد على الحاجز يعرفون الجنود، راقبوهم بعناية. انهم يعَلِّمُونهم بالشكل، ويعرفون من القابل للاسترحام ومن للابتزاز، ومن لا ينفع معه رجاء، «قلبه من حجر». والجنود في ساعات الملل يستدعونهم للتحدث معهم، كحالة مثيرة لحب الاستطلاع، يحاولون أن يفهموا منهم كيف يفكر الفلسطينيون، هكذا في نوع «بناء» من تمضية الوقت، يظهر لهم فجأة ملاك الأنثروبولوجيا ويحثهم على طرح الأسئلة على الصبي. والبعض الآخر يتسلى. ولكن غالبية الجنود تتصرف غالبية النهار كأنها لا تراهم باعتبارهم اصبحوا جزء من الحاجز.

بعد قليل لن يبقى في صدر أحد متسع لصبر على احد، والصبي يعرف متى يتجنب الناس في هذه الحالة.

بعد أن تمأسس الحاجز وقبل أن يصبح شموليا إلى درجة التيئيس والتنفير عن انتظار فَرَجِه، قامت حول الحاجز حالة هرج ومرج. وبين طوابير السيارات الطويلة حمل رجل «ثيرموس» قهوة ذا ذراع طويلة

وتصرف كأنه بائع السوس على مدخل باب العمود، إنه يبيع رشفات قهوة صباحية يتناولها الناس من نوافذ سياراتهم. ولكن الكؤوس بلاستيكية تنازلت للقهوة العربية بأن تقزمت حجما فأصبحت أكثر قبحا، وبذلك خسرت عالم الكوكا كولا ولم تكسب عالم القهوة العربية. وهي تتناثر في كل مكان لتعزز المشهد البلاستيكي المالوف والطاغي بدءا بالكراسي مرورا بخزانات مياه الجنود البلاستيكية السوداء وقواطع البلاستيك المملوءة بالاسمنت على الشارع وانتهاء بالأكياس البلاستيك الابدية. لقد هيمنت اكياس البلاستيك السوداء على المشهد ترفرف على كل نبتة شوكية علقت بها على الهضاب المحيطة بالحاجز، وهي كثيرة. يضفي الاسود المغبر على نبتة شوك علق بها كيس، لا لسبب أو هدف، إلا لان الرياح تذروه والاشواك تلتقط ما تذروه الرياح، قبحا وكآبة على المشهد. كيس البلاستيك هو راية المشهد وعلمه الحقيقي في كل بقعة من بقاع بلاد الحواجز.

وهيهات أن يتساوى بائع القهوة المهرول بين السيارات مع بائع السوس المزركش والمتباهي بصب السوس في كؤوس زجاجية صغيرة بحركة تبعد المصب عن الفنجان حوالي المتر الكامل أثناء الصب، ويتابع بعده عزف موسيقى الكؤوس بين اصابعه، كأنه عازف كاستنيتا لا تنقصه إلا راقصة فلامينغو تدور حوله وتدق بلاط باب العمود بحذائها الاسود وتحيِّر العيون بنظراتها الحادة الصارمة ولكن المنزوعة الغضب. وشتان ما بين التجمهر على الحاجز وعلى باب العمود وباب السلسلة يوم الجمعة، أو «باب الجديد» يوم سبت النور، أو القدس كلها كما كانت يوم الاسراء والمعراج ويوم احد الشعانين. شتان ما بين بائع السوس وقهوة الحاجز، التي ما لبث أن حملها في ثيرموسات بيضاء بلاستيكية أيضاً متسخة بخيوط من سائل بني اللون عدد كبير من الاطفال.

وما لبثت أن افتتحت قرب الحاجز «باجيت وكافيتيريا الحبايب»، واضافت إلى المشهد وكيف لا، كراسي بلاستيك بيضاء وحمراء. ومن الناحية المقابلة كافيتيريا الحصار. وما لبثت سلطة بلاد الحواجز أن هدمت كافيتيريا الحبايب.

[7]

شيْ... مشبوه

«وحجز الإزار: جنبته، وحجزة السراويل: موضع التكة، وقيل حجزة الإنسان معقد السراويل والأزار. الليث: الحجزة حيث يثنى طرف الازار في لوث الإزار، وجمعه حجزات، أما قول النابغة:

رقاق النعال طيب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب

فأنما كني به عن الفروج، يريد أنهم أعفاء عن الفجور».

تعج عامية أصحاب الحاجز التي ينتجها الجيش والخدمة العسكرية بتعابير الصراع الكثيرة. ومنذ أن بدأت الفصائل الفلسطينية تتنافس في إعلان مسؤوليتها عن «العملية»، إلى أن اعلنوا مسؤوليتهم عن حوادث الطرق، دخل حياة الاسرائيليين مصطلح جديد: «حيفتس حشود» وتعني شيئاً مريباً، مشكوكاً بأمره. و«الشيء» هو عادة كيس من النايلون يحتمل أن تختبئ فيه قنبلة موقوتة أو ماسورة حديدية قد تكون قنبلة بدائية، وحتى البطيخة تدهورت (أو ترقت حسب زاوية النظر) في حينه إلى حد الاشتباه بها وبنواياها في بداية سبعينيات القرن الماضي، و«القضية» عابرة للقرون في مائة عام من الصراع، بعد أن تفجرت كومة بطيخ في القدس.

وبعدما فجرت الأجساد البشرية نفسها في زمن الحواجز الشمولية مرددة كلمة شمشوم المعروف عند العرب بالجبار من العهد العبري القديم: «علي وعلى اعدائي يا رب» كما وردت بالترجمة العربية، أو «لتمت نفسي مع فيليستين» كما وردت بالعبرية أو «مع الفلسطينيين» كما وردت في العربية أيضاً، اصبحت الحقيبة الكبيرة الحجم هي محط

الاشتباه الأول لا ينافسها على ذلط احد، وقد فُجِّرت وقائيا العديد من الحقائب البريئة بمفجر آلي بوليسي للتأكد من محتوياتها، وطرح اصحابها ارضا قبل أن ينبسوا ببنت شفة.

وعلى الحاجز لا قوانين تحكم الشبهة، كل شيء مشبوه. الشارب والسمرة معطيات مشبوهة أصلاً في مطارات العالم اجمع، والنظارة الشمسية مشبوهة، لانها، ولا احد يدري لماذا، قد تكون محاولة للظهور بمظهر أصحاب الحاجز كانهم احتكروا النظارات الشمسية، والجيل مشبوه. وسبب الاشتباه متغير. لا شيء متوقع، أو يمكن حسابه على الحاجز. ومنذ أن قررت ممرضة شقراء «أن تنفذ عملية» في بلاد الحواجز، عملية استشهادية كما قيل، لم يعد الجنس أو لون الشعر يشكل حماية، ولا المهنة أيضاً. ومضافا إلى السياسات هنالك طبعاً مزاج الجنود الذي تتحكم به حرارة الشمس والملل، لا اقل مما تتحكم به التربية المنزلية التي تلقوها، والعنصرية، والآراء المسبقة، وآخر مكالمة تلقاها جندي من صديقته على «البيليفون»، أو ببساطة، القوة الهائلة الممنوحة لشاب اخرق أو معتدٍّ بذاته أو مجرد مراهق عُيِّن على الحاجز يسمح لمزاجه أو غضبه أو آرائه المسبقة أن يتحكم بحياة الناس.

ولا يدري السائق هل سوف يؤمر بفتح السيارة من ناحية المحرك ام من ناحية الحقائب، كما أنه لا يدري هل سيطلب منه أن يحل الدولاب الاحتياط هذه المرة، أو سيطلب منه العودة على اعقابه بعد هذا الانتظار كأن الغيتو أغلق أبوابه، وقد حان وقت نومه، كما يأمره الجندي الذي سرق دور الأستاذ على حساب تحويل المواطنين إلى تلاميذ.

وبعد أن انتشرت الأحزمة المتفجرة التي تغني عن الحقيبة وعن الكيس، أصبح بطن الإنسان مشبوهاً. ومن زاوية غير متوقعة ولا محسوبة ولا معهودة، وعى الناس لوجود بطونهم، واصبح لدى الانسان متسع من الوقت أثناء الانتظار على الحاجز ليفكر بتكويرة بطنه، التي كلما ازدادت ازداد الاشتباه.

ولكن «هذا كله كوم»، والطقس الذي اختاره الحاجز لدرء الشبهة وتبرئة الذمة «كوم»، كما يقال بالعامية. ولأن جسم الإنسان بات مشبوهاً

ابتعدت المسافة بين الجنود والصف البشري الذي ينتظر دوره لدرء الشبهة والمرور. والجندي يومئ بيده للإنسان الأول في الصف، وعليه بعد هذه الإيماءة بحركة من السبابة أن يضع ما يحمل على الأرض، وان يتحرك بضع خطوات نحو الجنود بحيث يوقفه فعل آخر، قد يكون مسبة أو سبابة، بعيدا عنهم فيجد نفسه وحيدا بين الناس والجنود، العدو أمامكم وبحر الجماهير المنتظرة من ورائكم، عند ذلك يرفع قميصه بحركة رشيقة من يديه ويظهر بطنه العاري للمشاهدين من المحتلين والواقعين تحت الاحتلال، أو «للطرفين» باللغة الامريكية، أو «لطرفي الصراع». ثم يدور نصف استدارة نحو اليمين ونصف استدارة نحو اليسار، ليظهر للجنود في كل مرة الخاصرة ونصف الظهر ونصف البطن. ويستطيع المواطن اذا كان رشيقا أن يقوم بكل هذه الاستدارات دون أن يحرك رجليه من مكانهما كأنه راقص تويست محترف - وفي الصغر كنا نعتقد أن اسم الرقصة «تويستاغي» لأن المغني كان يردد بالإنجليزية «تويست أغين» - اما اذا كان اكبر عمرا وهمًّا، وأقل رشاقة بطبيعة الحال وتعثر الأحوال فانه يستدير بجسمه كله بتثاقل دورة كاملة بخطوات دائرية.

في البداية تم كل شيء بتعليمات مفصلة تأتي بعربية مكسرة عن بعد عشرين مترا: «كَدِّم! وكّف!...استنى!... ارفع كميصك!»، ثم أصبح الناس يؤدون هذا الطقس من دون تعليمات.

رجل اكبر سناً من المتوسط مقطِّب الحاجبين منذ أن وقف في الدور وهو يراقب الناس بغضب، وينهى الشباب عن التدافع، ويهز رأسه بغضب كأنه يلعن الزمن أو كأنه يهدد مجهولا بلهجة و«بعدين معك؟» الصامتة التي فلتت من بين اسنان صمتها عبارات معدودة: لا اله إلا الله، استغفر الله العظيم، يا الله. النظر في العدم شرود، ولكن صاحبنا يرمق العدم بنظرة غاضبة كما يتأمل الشخص شخصا آخر كثير الكلام يخاطبه ويهز برأسه دون أن تفارق نظرات الوعيد والتهديد عيني كثير الكلام. وهو يرى ما يفعله الجنود دون أن يقول كلمة واحدة، إلى أن يأتي دوره فيحاول أن يتصرف كأنه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، وعندما يأتي الامر بالعربية المكسرة

- ارفع كميصك!

ينفجر الرجل

- أنا؟. . .أنا ارفع كميصي؟

ثم يجرف سيل الشتائم حاجز صمته ووقاره، وما تلبث الشتائم أن تتحول إلى مواقف سياسية تشتم العرب والانظمة والزمان والمكان، ثم يبدأ الترحم على من مات دون أن يرى ويسمع ما يرى ويسمع الآن.

- شو هلأ بدك تفتحلنا اتصال لشتم الأنظمة على فضائية؟ مشيها بدنا نمشي!
- وحد الله! أنا لا اتصلت بحدا، ولا بدي حدا، ولا عايز حدا؟ أنا ناقصك، أنت كمان؟ حل عني! شايفني على كنباي و بفشلك خلقي عالتلفزيون من البيت؟

غضب الرجل فهو لم يتصل بأحد، ولم ينو اعطاء كاريكاتير عن بيان سياسي تافه بنظره للأمة، وانما يريد أن يذهب لزيارة شقيقته في المستشفى ليطمئن عليها، فهو معيل أطفالها بعد أن توفي زوجها في الكويت وعادت مع أطفالها تبحث عن رعايته. لذلك كان مستعداً لأن يصمت ويتحمل ويهز رأسه، ولكن الحاجز يطلب منه ما لا تقبله هي له.

وتقوم جنديات بتفتيش النساء بحذر ومن دون هذا الاستعراض، لئلا يقوم الرجال بثورة حقيقية، وليس مجرد انتفاضة كما يقرر خبراء دولة الحاجز بالشؤون العربية. إن حركة من هذا النوع كانت أصل ثورة جبل العرب، والتهكم على لباس المرأة، وليس قضية فلسطين، كان وراء اغتيال زعيم عربي كما صرح المغتالون، وما زال العرب يتحدثون عن «اغتصاب» فلسطين أو «القدس المغتصبة» و«الأرض هي العرض» لتحريك الحميَّة المتعلقة بالرجولة والشرف.

[8]

عناية مكثفة

على حاجز شمال-غربي المدينة على طريق بيتونيا التي كانت تمر في قرى بيت عور الفوقا والتحتا قبل أن يقام الطريق الالتفافي والذي أصبح يسمى طريق موديعين على اسم المستوطنة الكبيرة التي اقيمت على الخط الاخضر، أوقف الجنود سيارة اسعاف بيضاء، هدية من حكومة اليابان إلى مؤسسة من مؤسسات العناية الصحية، كما يتبين لمن يعرف فك الحرف الانكليزي. خرجت سيارة الاسعاف عن الشارع تماما ووقفت على هامش ترابي عريض. السائق يجلس في مكانه. رجل يتناقش باستعطاف مع الجنود. ويظهر الاستعطاف من ضم اصابع اليدين وتحريك الأذرع أثناء الكلام والاصابع مضمومة. باب سيارة الاسعاف الخلفي مفتوح وقد اخرجت منها حمالة ترقد عليها مريضة مغطاة حتى أعلى الصدر. وضعت الحمالة على الهامش الترابي للشارع. سيارات المارة لا تجد من يوقفها على الحاجز فتتريث لإلقاء نظرة على الجنود المشغولين، مما يؤدي إلى ابطاء السفر، يزداد طول خط السيارات التي تتحرك ببطء على الحاجز، ويزداد عدد المشاهدين. جندي يفتش داخل سيارة الاسعاف.

المرأة تئن، وكلما ازداد أنينها ازداد إصرار الجنود وصرامة تعبيراتهم الحازمة في تنفيذ غاية جنديتهم بالحفاظ على الأمن، إنهم يدوسون على عواطفهم بأرجلهم كما يقال في الأفلام المصرية في سبيل المهمة، أو انهم يستمتعون بالمهمة ولا عواطف يدوسون عليها سوى عواطف

ضحيتم. كما تُكرر عبارة «أنا دست على قلبي برجلي» في فيلم مصري للتدليل على التضحية في سبيل المبدأ أو الحبيب، ولكن هنا لا ضمانة أن القلب موجود ولا أن التضحية بالمشاعر تتم في سبيل قيمة غير التسلية أو الاذلال - تعابير الوجه جادة ولا يثنيهم عن الغاية لا إلحاح الزوج ولا أنين المرأة.

لم يأتوا القدس من جهتها الشمالية، واضح انهم مسرعون ولم يرغبوا في الانتظار في الدور، وهذا يعني انهم مروا من بيتونيا أي انهم خلفوا وراءهم ثلاثة حواجز مغلقة سمحت لهم بالمرور في طريقهم إلى القدس. وها هو الحاجز الاخير، الحاجز الذي لا يتوقف عنده احد تقريباً لأن الطرق المؤدية اليه تأتي من مستوطنات يهودية أو قرى عربية مغلقة مداخلها ومخارجها باكوام ترابية وصخور، ولا يمكنها الوصول إلى الشارع الرئيسي إلا من طريق رام الله القدس. وغالبا ما ترى سكان هذه القرى زرافات ووحدانا يقطعون الكيلومترات مشياً على الاقدام في حقول زراعية وأراض بور من أجل الوصول إلى الشارع، لأن الشوارع التي تقود إلى الشارع الرئيسي مغلقة تماماً. وما أغرب البدلة والشنطة في طريق زراعي! وما أغرب النساء الممكيجات يمشين جماعات بسرعة عبر الحقل إلى الشارع وهن مهمومات من غرابة منظرهن أو من التفكير بالسياج القادم القائم على طول الشارع الرئيسي حتى بواية المستوطنة، وبكيفية تجاوزه بأقل إحراج ممكن ومن دون تمزيق الثوب أو التنورة أو الفستان!

عبرت سيارة الإسعاف الحواجز المغلقة وأوقفت على حاجز لا يُوقف أحداً، والجنود يعلمون أنه لا يمكن أن تصل سيارة إسعاف إلى هذه الضواحي في طريقها إلى المستشفى الكبير، إلا اذا كان الامر طارئاً إلى العناية المكثفة مباشرة.

ولكنهم قرروا أن يولوا السيارة عنايتهم المكثفة قبل أن تصل الى قسم العناية المكثفة. وبعد أن يفرغ جندي من تفتيش جانب من السيارة أو الحمالة يلفت نظره جندي آخر إلى جانب آخر خفي لم يفتش بعد وهكذا. . .في عملية قد لا تكون لها نهاية، ويؤدي عدم وجود حدود لها

أو مهام محددة إلى فقدان اعصاب من ينتظر لانه في انتظار المجهول. واذا التقت اعين الجنود تفلت ابتسامة خبيثة وتختفي. وحال تدارك الابتسامة يحاول الجندي التخلص منها بسرعة والعودة إلى التعابير الصارمة والموضوعية في الوقت ذاته. إنه يقوم بواجبه ولا يتلهى، لا يضرب ولا يشتم. إنه يفتش بهدوء وبصرامة ومن دون صوت أو شتيمة أو علامات ضرب تقدم كدليل ضده. الشارع رئيسي، وموضوع التفتيش هو سيارة اسعاف، والازعاج الوحيد المتاح والممكن هو إنه يفتش بشكل مستمر ومثابر واستحواذي وتفصيلي وقانوني للغاية، امرأة تئن خارج سيارة اسعاف.

- طيب ما انتوا شايفينها سيارة اسعاف ومريضة.
- ليه شو ما سمعت إنه نقلوا سلاح بسيارات اسعاف.
- شو يعني احنا ما عدنا ننقل بسيارات الاسعاف إلا سلاح، طيب هاي مريضة وانت شايفها، وانا جوزها.
- مش شايف شي، لازم افتش عشان اشوف. لو سمحت وقف عجنب.
- كيف أوقف عجنب هاي مرتي زوجتي يعني.
- وقف عجنب يا رجال خليه يفتش! منكون بمشكلة منصير بتنين، هلأ بقلك انك بتزعج شرطي في اداء مهامه، بصفا أنا في المستشفى وحضرتك بالسجن، ومين بيبقى مع الأولاد؟ خلينا بس نخلص.
- شفت مرتك كيف بتعقل؟ لو من الأول ما بتناقش كان صرنا مخلصين.

[9]

نظرية المراحل

«مبارح كنا عالحديدة وهلأ صرنا عالحديد»

زياد الرحباني

من وقائع بلاد الحواجز المشهودة والمروية أن مواطنا من غزة رد على سؤال صحفي عن شعوره وهو ينتظر على حاجز ايرز بعد تحرير «القطاع» من الاحتلال المباشر بالقول: «كنا قبل ما تيجي السلطة بعد اتفاقيات السلام ننتظر على الحاجز من الفجر لنصل اعمالنا صباحا نقول «الله يفرجها»، بعدين تبين لنا إنه الله كاين فارجها وما معنا خبر. فجاءت مقولته أكثر تعبيرا من قول الشاعر:

يـــوم يـــبـــكـــيـــنـــا وآونـــةً

يـوم يـبـكـيـنـا عـلـيـه غـده»

وإذا كانت الحياة حقاً مراحل، فلم يرَ منها الناس في بلاد الحواجز حتى لحظة الوجد إلا مراحل تبكي على سابقاتها كلما تطور الحاجز وتمأسس إلى أن تقزمت المراحل واختزلت إلى عملية التقدم المحسوب بالخطوات أمام الحاجز الكلي.

ومن وقائع ذلك أنه ضمن عملية مأسسة الحاجز، ولحماية رؤوس المنتظرين من أشعة الشمس التي تتحول إلى مخرز في ساعات الظهيرة، والكف قد يلاطم مخرزا اما الرأس فلا، في منطقة اصبحت مؤخرا لسبب لا يعرفه أحد رملية صحراوية نصب «الشادر». وهو قماش عسكري يستخدم للخيام، وأصل المعنى عن الفارسية - شادروان - «وهو الستر

العظيم الذي يسدل على سرادق السلاطين والوزراء وعلى الشرفة من القصر أو الدار، ومنه كلمة الشاذروان وبالعربية تأزير لأنه كالإزار للبيت»، كما يستخدم لتغطية العربات التي تجرها سيارات الشحن الكبيرة. ويغطي «الشادر»، يكمله شبك عسكري من النوع التمويهي الذي تُغطى به الدبابات، مسافة خمسة عشر متراً طولاً ومترين عرضاً. والعرض هنا قليل الاهمية، لأن طول صف المنتظرين يتجاوز الخمسين مترا غالبا - أي أن على المرء أن يتحمل حر الشمس أكثر من ثلاثين مترا وهو يتحرك إلى الأمام بسرعة عشرة أمتار أو خمسة عشر مترا في الساعة.

وطبعاً لا رتابة تحكم السرعة وتجعل كل شيء متوقعاً إلى درجة الاستسلام، ولا فوضى عامة تحرر الارادة للمحاولة المستمرة، أو للقنوط المستمر، أو الامتناع عن أي محاولة. قد تختلف تفسيرات الجنود للأوامر، كما قد تختلف الأوامر بناء على تغيرالحالة السياسية، وقد يصرخ جندي فجأة بعد طول انتظار: «هويات زركا امشي!» والمقصود أن سكان القدس أو من وصل إلى هذه الديار من مواطني دولة الحاجز العرب يستطيعون التقدم ليحظوا بمعاملة سريعة. كان هذا في الماضي غير السحيق، كان يا ما كان... منذ ذلك الوقت تقلَّب عدد كبير من المعتقلين المقدسيين على زنازين المسكوبية في القدس بتهمة التفجير أو محاولة التفجير. ولذلك لا يحكم هذا النداء أي سبب أو عامل يمكن حسابه أو التنبؤ به. وإذا كان البقية محظوظين يكون عدد المختارين أصحاب الهويات الزرق كبيرا. هكذا يتقدم الدور أن لم يكن نحو الجنود فعلى الأقل إلى الظل تحت الشادر.

وفي أحد الأيام سقط الشادر من جهته الشمالية. سقط ببساطة. فرفعه أول الواقفين بالدور وبقي يسنده بيده ثم انضم إليه أكثر من عشرة يستظلون بالشادر، يقفون جميعاً بانتظار دورهم وأيديهم اليمين مرفوعة إلى أعلى ويتبادلون الاماكن كلما تقدم الدور، ويضحكون من المهمة الجديدة ومن منظرهم الغريب كأنهم يرفعون ايديهم في وداع قريبهم على الحدود، أو كأنهم يصرون على رفع الراية مهما كان الثمن.

منذ تلك الأيام القائظة والتي يبدو أن ثقب الأوزون قد تحالف فيها مع الحاجز أصبح بالإمكان تقسيم المعاناة أو الانجازات إلى قسمين: مرحلة ما قبل الوصول إلى «الشادر» ومرحلة ما بعده. وأصبح بإمكان الإنسان أن يحلم أولا بالوصول إلى «الشادر»، ثم أن يحلم بمغادرة الحاجز بعد الاستظلال به قليلا. ويتبدى فورا الفرق بين نفسية ووجوه المستظلين، ووجوه ونفسية «المرقوعين» تحت أشعة الشمس، وجوه غير منفردة الأسارير وعيون نصف مغمضة للتمكن من الرؤية.

وهنالك من يستعجل المراحل، فقبل وصوله الشادر ببضعة سنتمترات يمطُّ رقبته ويدلّي رأسه عند الظل ليشعر بالأمان أو ليقنع نفسه بأنه انجز مرحلة من مراحل التقدم نحو الهدف المنشود:

- اوف... دخيل الله
- قول الحمد لله.
- كمان هاي فيها مزاودة؟ هدي بال حضرتك لانك وصلت الظل قبلي بساعة، لحقت تهدأ وكمان توعظ؟ طيب يا سيدي، الحمد لله. الله يذلكو يا عرب مثل ما ذلتونا.
- وشو دخل العرب، شو دخلهم؟ بدك يعني يمدولك الشادر؟
- اسكت يا !! خلص، بكفي حل عني!!... الله يذلهم، ايوا، الله يذلهم يا شيخ.

[10]

أخـورا

رسخت في الذهن مثل الغبار على الملابس، ومثل خيوط العرق الجاف البيضاء الملحية على ياقة القميص وتحت الابط، لصقت بالذهن، مثلما يلصق لا إراديا على شبكية العين ملصق «أين عرابيم أين بيجوعيم» على السيارات الإسرائيلية المسافرة أمامك (من دون عرب ومن دون عمليات، يعني اذا لم يكن هنالك عرب فلن تكون عمليات تفجير). علقت كما علق في روتين أذن تلك الديار «المحسوم» ومنع التجول يوم الجمعة، وكما علقت «يهودا والسامرة» و«التنسيق الأمني» «الدي سي أو» و«بيت ايل» و«الشؤون المدنية»، وكما علق زيني وتشيني ودينس روس، ولارسن وموراتينوس، وبيرنز.

«اخورا» (إلى الوراء) يصرخ الجندي بالجمع، كلما تقدم الجمع خطوات إلى الأمام نتيجة للتدافع، أو الاكتظاظ أو الرغبة بالاستظلال، أو نتيجة الفوضى. الفوضى التي تحكم لقاء بشر لم يلتقوا في السابق في حيز ضيق إلى درجة أن أي بسطة بيع جديدة تكفي لإثارتها، وأي سيارة تتوقف في الطريق لإنزال راكب، أو لقطع الطريق على سيارات الركاب الأخرى والوصول قبلها للدور أو من أجل الالتفاف في وسط الشارع، وأي ممارسة لقلة الذوق العام تخلق فوضى في الحيز العام مثل سقوط حجر دومينو.

«اخورا» هي الكلمة التي تؤدي إلى تدافع معاكس لاتجاه السير، وكم من خصام سببته هذه الكلمة بين المتدافعين إلى الوراء بعيدا عن

الحاجز يرافقها الجهد المبذول لكي لا يفقد احد أولويته الزمنية في الصف! وكم من ارجل واصابع ضغطت تحت اقدام المتدافعين! حتى بات مجرد سماع كلمة «اخورا» يولد ألماً في الابهام أو يستفز رد فعل- رفلكس- منه بحركة نحو الاعلى.

أخورا تعني ألماً في اصابع الرجلين، وتعني جزدانا نسائيا قطع التدافع حمالته الجلدية، وتعني كدمة زرقاء اللون في الفخذ لا يتعرف إليها إلا أهل البيت، وتعني كعب حذاء نسائي انكسر وفلت من مكانه. اخورا تعني صراخ طفل يرد عليه طفل آخر حتى يتعالى صوت جوقة الاطفال المحمولين والمجرورين الذين تحتمي امهاتهم بهم أكثر مما تحميهم من الناس ومن الجنود.

عندما يرغب جندي في لعب دور الاستذة والتربية على الحاجز، أو عندما يريد التسلية، أو عندما يرغب في التأكد من حالة السيطرة، فإنه يوضح للناس الـ«أخورا» بشكل لا يقبل التأويل والاجتهاد والمساومة. يحمل بندقيته كأنها عصا ويرسم بفوهتها خطا على الارض:

- اللي بمرك عن هذا الخط كلكو عالبيت.

وفجأة يُظهر الخط الذي تخطه بندقية «أم سكستين» أن الأرض قد تصحرت وباتت رملية في هذه النواحي.

وفوراً ومن دون سابق انذار أصبح الوقوف في أول الصف لعنة بعد أن كان بركة. فالواقف على أول الصف يصبح هو المدافع عن الخط بحيث لا تطأه رجلاه. وعبثاً يبحث المدافع الغيور الذي ائتمنه حظه السيئ على الخط عن تفهم من الجمهرة خلفه:

- خلص بكفي يا اخوان! آخ بكفي!
- يا اخوان في نسوان، ما بصير، اخواتكو هدول، ما بصير!
- يلعن ابو المنيح فيكو، جماعة نص كم بتستحوش!

وقبل أن يغضب احد من الشتيمة، وقبل أن توقظه صباح اليوم التالي بعد الحاجز بعد أن يصلوا إلى البيت «عطوات» و«جاهات» تطالب بتعويض المشتومين يرثي لنفسه مستعطفاً مسترضياً بميلودرامية عقيمة متوسلة لا

تخلو من الاشارة إلى التضحية من أجل المجموع الذي بات يظهر مثل جمهرة بسبب خط رسمته فوهة بندقية:

- أنا يعني عشاني؟ هيها صحتي تبهدلت علشانكو كلكو ما بدي أقرّب عالخط. بدهم يروحونا كلنا، خلص بيكفي دفش.

[11]

الجندي المنيح
والجندي اللئيم

انتبهت دولة الحاجز كما يبدو إلى ما يجري على الحاجز كأنه يقود نحو انفجار. وعندما نقول انتبهت، فإنما نقصد أن الأجهزة الأمنية قد قدَّرت قدرة الناس على الاحتمال، وقد فعلت ذلك من دون سياسيين ومن دون إعلام ومن دون تنافس، أي بمهنية. والمعلقون كتبوا محذرين من مصادرهم في الأجهزة ذات الشأن، والكاميرات التلفزيونية زارت الحاجز عدة مرات بحيث يبدأ الخبر وينتهي بـ«مراسلنا هناك»، ووجه «مراسلنا» للكاميرا وظهره للحاجز... والحاجز، بأل التعريف، هو حاجز قلندية ليس لأنه أكبر أو أعنف أو أسوأ الحواجز، بل لأنه حاجز الصحافيين كونه الأقرب إلى المدينة اللائقة لسكن صحفي. كما أن «الكولوني» هو فندق الصحافيين الأجانب ومن يحبون رفقتهم من العرب. ويقابل الصحافيون الأجانب بعضهم بعضاً في باحته ويقصون لبعضهم نوادر وطرائف عن العرب ذات ابتسامات تتجاوز الضحك البريء في بعض الحالات إلى تاكيد الآراء المسبقة، وعن نكت العرب ونوادرهم التي لا تنتهي عن شخصية ياسر عرفات، ويقابلون سياسيين في الـ«الكولوني» بعد الاتصال بهم من دفتر صغير عليه أرقام تلفونات الـ«كونتكتس» في القدس تحت القدس، وفي عمان تحت عمان، وفي كوسوفو تحت كوسوفو، وأرقام أخرى يزودهم بها المراسل الثابت في البلاد، أو بنصيحة من السائق الذي جعل من مرافقة الصحفيين وتجهيز «السايتس» للتصوير مهنة. كذلك فإنهم لغرض قراءة التقرير يسافرون إلى الحاجز الأقرب إلى الفندق الذي يصبح خلفية «باكجراوند» للمراسل أمام

الكاميرا. وصارت الناس بفعل التجربة وروتين الكاميرا مع ازدياد المحطات وساعات البث تتصرف أثناء ذلك بطبيعة من يجر عربته، ومن ينتظر دوره، ومن يبيع لكليهما القهوة. تعودوا أن يكونوا «باكجراوند» يلزم للـ«زوم إن» والـ«زوم آوت». وفقط في بعض الحالات تقترب المراسلة من سائق سيارة غادر الحاجز للتو بعد ساعات انتظار، وما إن خرج حتى وجد الطاقم ينتظره ليفاجأ أن الكاميرا ليست تابعة لفضائية عربية تصلح لإلقاء خطاب نضالي معزياً نفسه أن الأهل على الأقل سيرونه. ولكنه وقف وقضي الأمر فماذا يقول:

- والله شوفي يا ست، إحنا مع السلام، وما في غير السلام.

أو

- هذا الحاجز والله ما صار في التاريخ كله شغلة مثله.

أو

- كل الحق عأميركا لو أميركا ما بتدعمهم ما بيعملوا فينا هيك.

أو

- الانتفاضة مستمرة وانشالله منوقف ست ساعات ما رح يكسروا إرادتنا، بس يعني حتى ما تفهمي غلط إحنا منفضل السلام إلنا وإلهم.

أو

- وين القانون؟ وين العالم؟ وين الامم المتحدة؟ بسألك جاوبيني!

المراسل بالطبع مثل كل المراسلين يريد ثلاث كلمات معبرة ولا يوجد فيها كليشيه، تتبعها صفنة، ويُفضّل دمعة، و«كات»، يعني «حكمة بسطاء» بكلمات ثلاث. ويعرف العابرون الذين يريدون التهرب من موقف سياسة اللاسياسة هذه، ويتقنون اللعبة إذ يحولون الـ«لا كلاشيه» إلى «كلاشيه» بعد أن تشجعهم ابتسامة الرضى الصادرة عن الصحافي الذي يعرف كيف يورط فريسته بهزة رأس واستحسان لن يراها أحد غير ذلك الذي تتم معه المقابلة.

- ما تحكيلي حرب وسلام تعبنا من حكي السياسيين، إحنا بدنا نشتغل، السياسيين من الطرفين ضحكوا علينا.

أو

- قبل الانتفاضة كان في شغل على الأقل.
- السياسيون ما بهمهم غير حالهم وكراسيهم.

الصحافي يعرف أن هذه الجملة هذا «الساوند بايت» هي ما سيأخذه من التقرير عند التحرير، وسوف يختم التقرير ووجهه للكاميرا مباشرة وظهره للحاجز الذي تحول الآن من موضوع إلى خلفية، «باكجراوند». هذه الجمل مثالية لأنها ليست ضد أحد، أو لأنها ضد الجميع. وفيها تجسيد لمعاناة الشعب كقضية إنسانية من دون سياسة، ومن دون منغصات للصحافي أو الصحافية. فإذا أخذ كلاماً ضد دولة أصحاب الحاجز تراه مضطراً إلى السفر إلى طرف المدينة الآخر ليستمع من أصحاب الحاجز عن الإرهاب الذي يجعل الحاجز ضرورياً وليوازن الصورة.

والكاميرا عين الشيطان، إنها تعيد إنتاج الواقع، تصممه من جديد. إنها في الواقع تخلق واقعاً جديداً. الكاميرا تحول كل شيء إلى كليشيه لأنها انتقائية ولأنها أصلاً تقدم الصورة لتقدم تمثيلاً أو شرحاً لمعنى. اللقطة، الـ«شوت»، الصورة هي استعارة مما يجري لتقديم معنى، لصنع الواقع. المشاهد لا يشهد ما يجري ويحدث وإنما الصور المقدمة له كواقع. وعندما يرى الصور فإنه لا يعتقد أنه يشاهد صوراً عن الواقع من زاوية نظر الكاميرا وإنما يشعر، من دون أن يعتقد، أنه يشاهد الواقع من زاوية مريحة في بيته.

«من غير طول سيرة»، أجمعت التقييمات الإعلامية مع التقييمات الأمنية أن الوضع على الحواجز ينذر بالسوء وأن الضغط قد يولد الانفجار. وكان الاستنتاج، كما لمسته الناس على الحاجز، ظهور فئة من الجنود كبار السن غير معنيين بإثبات رجولتهم على حساب عابري الحاجز، وإنما معنيون بتنفيذ وظيفتهم فحسب من دون إذلال زائد. وكان قد وصل الأمر بأهالي بلاد الحواجز أثناء الاجتياحات المتكررة من الحواجز إلى بيوتهم قد تمنوا أن يكون صوت قرع أحذية الجنود على درج العمارة يشير إلى قدوم جنود كبار السن وليسوا شباباً، فقد عانوا بما فيه الكفاية في ظلمة تلك الأيام من الجنود الشباب الذين اقتحموا بيوتهم

وخلطوا مظاهرات الرجولة الاستعراضية بحب الاستطلاع حول غرف النوم وما وراءها، بالوقاحة اللازمة لطلبات مثل الاستحمام أو طلب إعداد الطعام البيتي. كل هذا لكي يكون في جعبتهم ما يحملونه إلى جلسات الأصدقاء في المقاهي يوم السبت مساء من النوادر حول سكان بلاد الحواجز، وحول ردود فعلهم على الاهانة.

وفي الانتفاضة الأولى التي عرفت في العالم بالكلمة العربية ولم تترجم، كما لم نترجم نحن التليفون والراديو والتلفزيون، اعتاد الناس على مرأى جنود الاحتياط من كبار السن الذين يعانون من السمنة والكرش تتدلى فوق الحزام وهم يركضون لاهثين وراء الصبية بعد قذفهم بالحجارة، في حين كان الجنود الشبان يفضلون التصويب بالبندقية على المشاغبين، كما يسمى المتظاهرون بلغة البنادق العالمية، على الركض المهين لكرامتهم ورجولتهم. وربما كانت هذه هي العلاقة بين الكرش واتفاقية السلام التي لم يقتنع بها الجنود الشباب الذين لم يرغبوا بالركض وراء الصبية ولا بالسلام معهم، لأن طريقة إطلاق النار عليهم من دون ركض ومن دون سلام، لم تجرب بما فيه الكفاية.

ظهر على الحاجز، كما على الحواجز جميعها، ضابط احتياط ناضج نسبياً يهدئ الجنود عندما تحتقن الأجواء ويحتدم النقاش إلى درجة تمشيط البنادق. إنه قادر على قراءة رسالة يحملها مواطن وتتضمن تحويلاً من مستشفى إلى آخر في الجهة الأخرى من الحاجز بتأنٍّ ليفهم ما ورد فيها قبل إلقائها على الأرض. وعندما يقترب منه شاب يركض خارجاً من طابور السيارات المغبرة والتي لا ترى وجه من فيها من حيث يقف يلهث ليقول له شيئاً، فإنه لا يرفض سماعه بل يستمع إلى شكواه كاملة، ولا يبعده إلى سيارته بحركة من يده ليتبين فعلاً أن لديه حالة طارئة في السيارة وأن ابنته مريضة فعلاً ولا يستطيع الانتظار. ولأن هذا الجندي متقدم بالعمر نسبياً وغالباً ما يحمل كرشاً، فإنه يكثر من الجلوس، وتتوجه إليه الناس كأنه في مكتب على الحاجز.

ولكنه مثل الصحافيين يكره سماع الشعارات السياسية ويحب التعامل مع الحالة في بلاد الحواجز من زاوية تفهّم أن سكانها مساكين، وأنهم

يودون العودة إلى العمل ولو في ظل الاحتلال، فقط سياسيوهم يجعلون التعايش بين الحياة الطبيعية والاحتلال غير ممكن. لذلك فإنه يتعامل مع المارة الفلسطينيين وكأنهم غير مذنبين، وهم بدورهم يبادلونه تبرئة الذمة بالتعامل معه كأنه غير مذنب، لأنه كما يقول:

- طالما في مشاكل وفي حواجز فهو مضطر لتنفيذ وظيفته.

وقد تشمل وظيفته إطلاق النار أيضاً «ليحمي الحاجز من المشاغبين إذا لزم»، ولكنه، والحق يقال، يبذل قصارى جهده لكي لا يكون ذلك ضرورياً. وهو يفرح لسماع الفلسطيني يتمنى العودة إلى الحياة الطبيعية عندما كان يعمل في دولته وعندما لم يكن الحاجز متشدداً، وهو يطرب لسماع اللعنات ضد العنف والمتطرفين، ويخاطب الجنود الشبان بالعبرية:

- ألم أقل لكم؟ إنهم لا يريدون إلا العيش بسلام، إنهم يكرهون هؤلاء المتطرفين الذين لم يجلبوا لهم إلا اللعنة، إنهم يكرهون قيادتهم أكثر منا.

ويهز الجنود الشبان أكتافهم غير عابئين. ثم يتوجه للفلسطيني المنتظر أمامه محركاً يديه بعصبية، تارة يتكتف وتارة يدليهما أو يضعهما في جيبه، كأنه لا يدري ماذا يفعل بهما عندما يقف صامتاً مبتسماً ريثما ينهي الجندي المسن «المنيح» كلامه مع بقية الجنود:

- أيوه، شو قصتك إنت؟ قلتلي ما بدهم يفوتوك. ما معك تصريح؟ مش ممكن تفوت. مش بإيدي، إذا بتجيب تصريح بفوتك، أنا ما عندي مشكلة معك. كيف حالك اليوم، منيح؟ كيف الولاد انشالله ما عم يضربوا حجار؟ ها ها ها...

- الحمد لله، لا والله مناح الولاد بروحو عالمدرسة.

يجيب الفلسطيني بخجل محاولاً أن يظهر امتنانه على السؤال، إنه يدرك أن السؤال فوقي، سؤال وصاية، ولكن هذه وظيفة الجندي المنيح أن يكون وصياً عليه، ووظيفته هو أن يبدو كأنه ممتن لمجرد السؤال، وإلا فسوف يصبح متطرفاً والجندي المنيح متطرف في كرهه للمتطرفين أكثر من كره بعض الجنود الشبان للجميع.

[12]

حائط

كانت قرية بخير القرية وبلواها، بأمان القرية وانغلاقها، بحميمية القرية وتعصبها، فأصبحت حياً في مدينة. في كل الدنيا تهاجر القرية إلى المدينة، إلا في تلك الديار تهاجر المدينة إلى القرية عبر توسيع شارع الإسفلت وأعمدة الكهرباء والهاتف، وقرار حكومي بضم هذه القرية إلى القدس. في العالم أجمع تتحدث المدينة لهجة مختلفة عن القرية، وعن المدن الأخرى، ويتحدث أهالي القرية بلهجة مختلفة عن أهالي القرى المختلفة. في هذه البلاد وحدها تتحدث أحياء المدينة لهجات مختلفة لأنها كانت قرى حول مدينة في الماضي قبل أن تقرر حكومتهم توسيع القدس. وعندما كانت قرية، كان من الصعب إيجاد وسيلة سفر تقلك من المدينة إليها، ومنها إلى المدينة بعد السابعة مساء. فأصبحت أحياء في مدينة.

استفاد أهل هذه القرى في البداية من هذا التمدين المفاجئ المفارق، فقد ارتفعت أسعار أراضيهم الزراعية، وما أن شموا رائحة النقود وبناء العقارات للبيع وللتأجير حتى بدأت الحكومة التي ضمتهم بمصادرة أراضيهم لغرض بناء المستوطنات لمن احتلوها. ضُمت القرى بعد أن أعدّت خرائط تلك المستوطنات، وفي الحقيقة ضمت أراضيهم لتوسيع المدينة، أما هم فقد ضُموا معها. ولو صودرت الأراضي عندما كانت زراعية لكان الأمر أسهل من حالهم لدى مصادرتها بعد أن تمدنت الأرض وبات أصحابها يحسبون سعرها وخسارتها بالدولار. وعلى أية

حال فقد قامت المستوطنات إلى جانب «أحيائهم» التي ازدهرت مقارنة بفترة ريفيتها.

وعمل بعضهم في هذه المستوطنات التي باتت هي الأخرى أحياء مقدسية لا يسكنها مستوطنون، بل مواطنون في القدس. ومن المستوطنين المواطنين من يفتخر أنه يشغل في بيته عربية، وعربياً في حديقته. وبعضهم جاهر بأنه يأسف لأن الحاجز يمنعهم من الوصول إلى العمل عنده، وأنه لا يخشى على أولاده منهم.

ومنذ عصر الحاجز بدأت حياة هذه الأحياء تتغير. في البداية ساد شعور عام بأنها محظوظة، لأنها ليست «وراء» الحاجز بل «أمامه». ثم اتضح أن الحياة من دون الذين بقوا «وراء» الحاجز أصبحت صعبة، ولذلك اضطر بعضهم إلى أن يلحق بزبائنه إلى هناك، وأن ينقل محله التجاري إلى «ما وراء» الحاجز. ولكن جاءت الإنتفاضة فـ:

- طلعنا لا من هون ولا من هون.

ويستدرك لئلا يفسر خطأ أنه ضد الانتفاضة

- يا سيدي، هو يصير حل ومش مهمة الخسارة، بس يكون في نتيجة.

ولو تابع النقاش لتبين أنه يعتقد أنه لا حل، ولا توجد نتيجة غير «خراب بيته»، ليتبع ذلك استدراك آخر، وهكذا.

وعندما اشتد الحاجز وضاق على الناس وتشعب ليسد كل المنافذ، انقسمت هذه الاحياء، فأصبح جزء منها «أمام» الحاجز وجزء منها «وراءه» أو «قبله» و«بعده» وأصبح بعضهم يبيِّت سيارته أمام الحاجز، ويكمل المسيرة إلى البيت مشياً على الأقدام تجنباً لإزدحام الصباح والمساء على الحاجز.

ولكن حظ هذه القرية اختلف عن البقية، فهي لم تضم أصلاً، ومنذ أن حل عصر الحواجز، قررت حكومتهم وضع حائط، حاجز مطلق، يغلق شارع المدينة المتجه نحو الأغوار والصحراء القديمة نهائياً. وهو الشارع الذي عرفت به القرية وزميلتها المجاورة ومحطة الوقود ما بينهما، فهي تشكل مدخل المدينة الشمالي الشرقي ومخرجها إلى الصحراء

القديمة. وبعد هذا الحائط لم يعد أحد يدري ماذا تعني هذه البلدات؟ وإضافة إلى كل شيء فقد جعل الحائط-الحاجز جزءاً منها في المدينة وجزءاً وراءها.

وفيما عدا الشارع الرئيسي، تتصل البلدة ببعضها البعض في مواقع أخرى مثل الحدائق، ليست شوارع ولكنها تحولت إلى ممرات.

أما طريق القدس - أريحا نحو الصحراء فقد تحول بعد أن قطعه الحائط إلى طريق التفافي من شمال غربي القدس بإتجاه مستوطنة «معالي أدوميم». فللوصول من نقطة «أمام» الحاجز إلى نقطة «خلفه» بالسيارة المطلوب هو السفر عبر شرقي المدينة بإتجاه الشمال ثم باتجاه الغرب فالجنوب، أي إلى نفس النقطة من جديد، مسافة تزيد على عشرة كيلومترات. ومن لا يفعل ذلك يستطيع أن يتابع سيراً على الأقدام. وما يبقى في تلك المنطقة متصلاً ببعضه البعض هو حدائق بيوت وفيلات، ولذلك ليس أمام من يسرع إلى فرع البنك قبل أن يغلق إلا تسلق سياج والمرور بحديقة بيت خاص ثم سياج آخر وحديقة أخرى في طريق التفافي ذاتي الصنع نحو الجهة الأخرى من الجدار.

لا يستطيع أصحاب البيوت الصمود طويلاً أمام تحويل حدائقها إلى ممرات لا بد أن تنتهي إلى التطفل عبر نوافذ بيوتهم من مارة غرباء لا تربطهم بهم أي علاقة. ولذلك بدأ هؤلاء أيضاً ببناء جدران أعلى لحدائقهم، ولتختف الفيلات الاستعراضية خلف الأسوار لا يهم، المهم هو الحفاظ عليها كبيت والسور يمنع أن تتحول إلى شارع.

وكأن الجدار المرتفع في وسط الشارع قد انتشر تشعب أو أطلق فروعاً له في كل الاتجاهات. أصبح الوضع يبدو كأنه متاهة إسمنتية لا تشبه بشيء متاهات وحدائق الأرستقراطية الإنكليزية التي نمت من جدران نباتية مشذبة عبر عناية عشرات السنين. وليس أمام من يريد التقدم إلا جدران وفوضى على الشارع ومحطة وقود مزدحمة وأبواق السيارات، وما عليه إذا كان عصبياً إلا أن يعود ادراجه على الأسفلت نحو المدينة بحثاً عن طريق المستوطنين.

وكأن هاتين القريتين مجرد أعراض جانبية لما خطط على الورق:

- اللي خططوه واللي عملوه وقرروا يحطوا هون حيط، أكيد لا كانوا هون، ولا رح يمروا من هون.
- لا إنت متفائل بالنسبة لطبائع الناس، أكيد كانوا هون وشافوا شو ممكن يصير فينا، بس أكيد مش راجعين لهون ولا رح يعيشوا هون أو يمروا من هون.
- شو يعني هاي زي سايكس بيكو؟
- أيوه، على أزغر شوي بس.
- بطلنا نعلمه في المدارس هذا.
- ما عاد في حاجه نعلمه، مهو معلِّم على جلدنا.
- عشو بتحكو ورا؟
- على سايكس بيكو يا سيدي.
- إيه انتبهو للي سايق فيكو أحسن من سايكس بيكو، لوين أروح؟
- مش عارفين لوين، عجهنّم الحمرا، بتعرفها؟
- أيوه، هاي سهله من هون، قريبة، قرَّبنا ما في حاجة حتى لطريق التفافية، وبتصور كمان إنه شالوا الحاجز اللي كان بينا وبينها هالأيام، وما حطوا محلو حيط حتى نضطر نحتاط منه.
- شو هالسماجة هاي؟ إيه، الله يطمنك، هي الحالة كلها صايرة منحطة.
- قصدك تقول إنو اللي حط الحيط في هالمحيط واحد منحط.
- يعني فيك تقول هيك. وفيك تقول إنه خلص حط حطاطنا،
- شو هاي حطاطنا؟ ما عندي إحاطة بهالتعابير اللي عندكم في الشمال.
- بدك يعني أحيطك علم فيها؟ ما بعرف كانوا يقولوها إحنا وزغار، يمكن هلأ فهمت شو يعني هاي.

[13]

الجدار من ناحية أخرى

- بعد أن ذهبت لزيارة الجماعة قلت استغل وجودي في القدس قبل لقائنا لكي أذهب وأرى الحائط في حي جيلو عن قرب.

خاطبته بالإنكليزية. وجيلو حي استيطاني جنوبي المدينة تقابله على تل مرتفع أحياء من مدينة بيت جالا. وبينهما يمر الشارع الالتفافي المؤدي إلى الخليل ومستوطنات جوش عتسيون عبر جسور وأنفاق موفراً على المستوطنين المرور في بيت لحم وبيت جالا.

- وماذا هناك؟ نعرف أنهم قد بنوا حائطاً لحماية بيوت هذا الحي المواجهة لبيت جالا من عمليات إطلاق النار القادم منها بين فترة وأخرى، والذي كان يرد عليه بقصف جبى من سكان بلاد الحواجز خسائر أكبر بما لا يقاس من خسارة العيش وراء حائط.
- عليك أن تذهب لترى أنه جنون يصور الحالة برمتها.

جيلو المحاصرة بحائط من الجهة الجنوبية ليست مستوطنة بالمعنى الأيديولوجي المعتاد، والمقصود، أنها ليست مستوطنة حركية قامت بجهد من عتاة المستوطنين وغلاتهم، مدفوعين بالوصايا والواجبات الدينية والتي تشمل فريضة الاستيطان كما يتخيلونها، وبقمصان «كريهات» مفكوكة الأزرار خارجة من السراويل فوق المؤخرة دليلاً على الطلائعية وعدم توفر الوقت للعناية بالمظهر، وصنادل «مسيانية» مؤلفة من نعل وحزامين جلديين، أقرب إلى ما تخيلوه عن نعال فترة دولة يهودا. لباس سكان هذا الحي ومظهرهم عادي، وتقل في لهجتهم لكنة

نيويورك الإنكليزية والتي تجعل عملية التكلم تبدو كأنها عملية مضغ للكلمات العبرية الساخنة والتي أتى بها شباب بروكلين وغيرها الباحث عن مغامرة الغرب المتوحش، وعن حل لأزمة هويته في ربوع بلاد الحواجز وعلى ظهور أصحابها.

تقع المستوطنة في حدود بلدية القدس، وهذه تشمل مستوطنات أقيمت على أراض احتلت عام 1967، ولكنها نجحت ببلورة إجماع على أنها مجرد أحياء قد يقطنها ناس عاديون غير مؤدلجين يصوتون لليمين كما لليسار. وهذا يعني أنه بموجب التعريف الإسرائيلي فإن المستوطنة هي المدينة أو القرية التي لا يتوفر إجماع على وجودها. ولا علاقة لذلك بكون الأرض محتلة أم لا، أي لا أهمية لكونها مستوطنة أم لا.

وأهالي جيلو غاضبون لأنهم عوملوا كأنهم مستوطنة، أي لأن الفلسطينيين لم يلتزموا بإجماع أصحاب الحاجز. كما أنهم غضبوا «لأن الدولة لا تفعل ما فيه الكفاية»، وربما تصلح هذه الجملة الأخيرة لتعريف المواطن في دولة أصحاب الحاجز: إنه إنسان يشعر أن الدولة دولته، وهو بالتأكيد على علاقة شخصية بها. وهي لا تفعل ما فيه الكفاية من أجله. ولا يوجد مجتمع معاصر يشعر ما يشعر به شخصياً وما يكنه تجاه الدولة، إنه مشغول بالدولة وبما يفعله السياسيون لها من أذى، إنه حريص عليها. كما يستخدم تعبير الدولة بكثافة قل مثيلها في المجتمعات المتحضرة التي يحب أن ينتمي إليها. أكبر صحيفة تسمي نفسها في الدعاية لذاتها تسمية غريبة في عرف المجتمعات المتحضرة: «صحيفة الدولة». وأفضل كوميدي يسمى «مهرج الدولة» وأفضل استعراض فني يمنح لقب «استعراض الدولة» في عامية تلك البلاد الدارجة، وقلما تستخدم مصطلحات مثل الوطن أو البلد. وبالطبع هنالك في أكبر المدن ساحة فخمة تسمى «ميدان الدولة»، وغالباً ما يؤكد المحتج على غبن أو ظلم مطالبته بقرض سكني، أو بفرصة عمل أو من أجل حقوقه كمعاق، أو ضد إغلاق مصنع نسيج، على مساهمته في بناء الدولة، أو مساهمة أبنائه في الدفاع عن الدولة.

وأهالي جيلو غاضبون على الدولة مثل غيرهم في نوع من العتاب

القبلي أو الشخصي، إنهم غاضبون على العائلة. إنهم غاضبون على الدولة لأنها أتت بهم إلى هنا، ومع ذلك لا تفعل ما فيه الكفاية لحمايتهم. ولكنهم غاضبون أيضاً على بيت جالا، ليس فقط لأنها تعاملت معهم كأنهم مستوطنون، وإنما أيضاً لأنها حرمتهم من منظرها. والمنظر المطل على بيت جالا هو السبب الذي دعا بعضهم لاقتناء الشقة هنا. فالأسعار ليست أرخص من المناطق الأخرى، كما هو حال المستوطنات عادة. ولكن الجدار قد حجب الرؤية. والصف الأول من البيوت المحجوب عن الرؤية لا يرى البلدة العربية وديرها وطاليطا قومي وفيلات المغتربين التي شوهها القصف الانتقامي من مطلقي النار وممن بنى فيلا ليست لدى الجندي الذي يقصف مثلها، مع أنه جندي صاحب الحاجز ومع أن صاحبها يخضع للحاجز .

فماذا فعلوا؟ قام من رسم بدقة متناهية صورة بيت جالا كلوحة جدارية على الحائط أمام صف البيوت، ولكي تظهر الصورة في الصورة بشكل دقيق، أكمل الرسام قوام الأشجار المختفية فعلاً خلف الجدار والمرتفعة قممها فوق السور رسماً حتى قاعدة الجدار.

- معقول يصبِّح الواحد بسور وعليه صورة، مثل سور برلين أكثر من عشر سنوات بعد إنهيار الأخير؟
- التعايش مع الصورة صباحاً عند الاستيقاظ ممكن بالطبع، مثل تعايش المرأة مع صورة زوجها والعكس. ولكن في ذكاء وعبقرية في هذه المحاولة للاحتفاظ بصورة الآخر جامدة رغم تقلبها.

إنه تحدٍّ موجه ضد الآخر الذي سيبقى صورة منظراً مشهداً مهما حاول أن يبدي من معالم الروح والحياة بإطلاق الرصاص مثلاً.

- في هذه الأثناء بالإمكان هدم تلك البيوت الحقيقية في ذلك الحي البيتجالي المطل على جيلو، فهي مثبتة في الصورة.
- ويمكن أن تكون الصورة الجدارية نوعاً من السخرية المرة من الذات: «تبقى لنا من البلد ما أردنا منها أن تكون. أردناها صورة. والصورة خلافاً للجسم الحي لا تقاوم».

[14]

طرق التفافية

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى السفر، كبّر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون».

اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من عناء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد».

رواه **مسلم**.

أنجب الفصل بين السكان من مواطني دولة الحاجز ومن سكان بلاد الحواجز طرقاً التفافية، «كبيش عوكيف» بالعبرية، وهي نفس الكلمة التي تستخدم لوصف العملية الجراحية التي يتم بموجبها الالتفاف على الشريان الحاجز للدم والذي لا فائدة من فتحه بواسطة الالتفاف عليه بزرع شرايين جديدة by- pass. وهنالك نوعان من الطرق الالتفافية، الأولى هي الطرق الالتفافية الرسمية التي تشقها الدولة ضمن خارطة لمواطنيها للالتفاف على قرى ومدن بلاد الحواجز المأهولة، وذلك بشق الجبال من حولهم وتقسيم أراضيهم الزراعية بواسطة طرق مستقيمة وواسعة وسريعة توصل المستوطنين إلى بيوتهم ضمن شرايين حياة حوَّلت كل ما تلتف عليه إلى شرايين منسدة. وتصل الشوارع الواسعة بين نقاط على الخارطة تعيش فيها بضع عائلات تضخ إليها الأوكسجين وتسده عما عداها.

الطرق الالتفافية الرسمية لا تقطعها حواجز، ولكن الحواجز تقطع الطرق القديمة إذا قادت إليها. بنت الطرق الالتفافية عالماً جديداً تحولت فيه المدن الأصلية الكبيرة إلى هامش للمستوطنات الوافدة الصغيرة التي تصل الشوارع الواسعة فيما بينها. لم تعد الطرق الرئيسية تمر من المدن والقرى الكبيرة أو إلى جانبها، بل صارت تتجنبها، ولم تعد الطرق تلتف حول الهضاب أو تتسلقها ملتفة حولها بشكل حلزوني، بل صارت تشقها إلى نصفين. وكأن الطرق الالتفافية ومستوطناتها قد أنزلت من الجو على الأرض مثل مجسم جاهز من الإسفلت والحديد والإسمنت.

أما الاستراتيجية الثانية فتتمثل بطرق التفافية بائسة شقت طريقها عشوائياً وعفوياً من دون خرائط، إنها تلتف على الحاجز، تحشرج ناقلة الهواء ملتفة عليه إلى أعضاء الجسم المحصورة خلف الحواجز والطرق الالتفافية.

من ناحية رام الله نمت وترعرعت بمحاذاة الحاجز محطة سيارات أجرة كانت تحمل لوحات زرقاء أضيف إليها حرف «ر» بالعبرية إشارة إلى رام الله. ثم ما لبثت أن حملت السيارات لوحات جديدة إشارة إلى ترخيصها من السلطة الجديدة الناجمة عن اتفاقيات السلام مع إضافة حرف «ف» للوحة الخضراء اللون بالإنكليزية كناية عن فلسطين. ثم لونت سيارة الأجرة بكاملها بالأصفر كأنها سيارة أجرة في مانهاتن. وبقدر ما كانت السلطة الجديدة دولة كانت سيارة الأجرة من نيويورك.

- يعني كيف بدها الناس تحس انو في تغيير بعد ما انسحبوا بعد أوسلو.
- هاي صار عنا تكسيات صفرا.

ولكن بدل أن تنسحب دولة الحواجز من بلاد الحواجز بعد الاتفاقيات، استمرت مرحلة لوحات السيارات الجديدة سبع سنوات عجاف أو سمان حسب وجهة النظر، وقد وصفها البعض بأنها «جمعة مشمشية» كناية عن الأسبوع اليتيم الذي تثمر فيه شجرة المشمش، فمن يسرع بما فيه الكفاية يستفد من الثمر، ومن لا يسرع يضيع عليه الموسم، وهنا أيضاً استفاد من استفاد. وما لبثت أن أعادت سيارات الأجرة إنتشارها من مركز رام

الله وتجمعت بفوضى أمام الحاجز بعد الحاجز، أو قبل الحاجز حسب زاوية النظر أيضاً، لتقلّ الركاب منه وإليه وليعبر الركاب الحاجز مشياً على الأقدام ولتقلهم «سيارة الفورد» من ناحيته الأخرى إلى القدس، مروراً بالحاجز الأقدم والأثبت والذي يقطع شارع القدس - رام الله عشوائياً على مفرق الرام. هذا إذا لم يقم حاجز ثالث طيار على الطريق على أبواب القدس.

- نسيت كمان حرس الحدود الثلاثة تقيلين الدم اللي بوقفوا الناس عند محكمة العمل آخر شعفاط أول القدس على مفرق التلة الفرنسية بلا سبب، وبدون حاجز هيك يا بتمرنو، بطبقو يعني، بعملو ستاج، يا اما بتسلو.

لوئم في الماضي لكل حاجز طريق التفافي شقته السيارات ودكته خطوات الناس، طريق يقترن به وبمحاولة التملص منه. وقبل أن يسد الجيش الإسرائيلي المنافذ كافة بوسائل مبتكرة مثل أكوام ترابية أو حفر خندق في وسط شارع جانبي، أو تكويم الصخور، كان بإمكان السيارة قبل الوصول إلى الحاجز أن تنزل إلى طريق جانبي بعد أن تدخل في زقاق بريء بين منزلين تحوّلا بقدرة قادر إلى معلمين على خارطة المرور، ثم المرور إلى جانب بقالة مغبرة لم يسمع بها أحد وتحولت بقدرة قادر إلى دكان على شارع التفافي، مروراً بعدد لا يحصى من الحفر إلى شارع موازٍ للشارع الرئيسي ومنه عبر سلسلة من العقبات إلى الشارع الرئيسي بعد الحاجز.

هنالك ألف نوع من الطرق الإلتفافية المحلية وهي موضوع تصنيف لا يتوقف بلهجة ونبرة الاحتيال على الحاجز:

- لا ما تفوت الحاجز، قبله بكثير بتوخذ الطريق اللي عند سميراميس عاليمين.
- لا الطريق اللي قبل من داخل رام الله بعد ما تصل أم الشرايط أحسن، و في واحد بس بعيد شوي، يعني بدك ترحلو من عند بيتونيا وتيجي عالقدس من الغرب.

وهكذا أتلفت الطرق الالتفافية من مُعدَّات السيارات ومعد البشر،

وتحملها الحاجز فترة ثم عاد وسدها بابتكار جديد في عملية من الالتفاف والالتفاف على الالتفاف، إلى أن انسدت الدنيا تماماً بأكوام من التراب والصخور والقنوات والأخاديد المفتوحة تقطع الطرق. ومنذ أن انسدت حتى المسارب أصبح الحاجز يتحكم بساعات نوم الناس،

- يعني بعد السابعة مساء بسكروا الحاجز.
- يعني بتسكر البلد، خلص بتسكر، طيب مش أشرفلنا نحط آرمة «أهلاً بكم في غيتو رام الله» أو «أهلاً بكم في مدرسة رام الله الداخلية» واللا مستحيين من حالنا على أساس دولة وسلطة ومفاوضات بين الطرفين؟ أي طرفين؟ يعني اللي بروح عالبيت الساعة السابعة طرف واللي بروحُه بالسماعة بسيارة جيب وجنود تنين طرف. طرف زائد طرف صاروا طرفين!!

عندما كانت هناك طرق التفافية كان الطريق المؤدي إلى ما بعد حاجز الرام يوصل إلى الشارع الرئيسي بالاتجاه المعاكس لحركة السير. وقد أغلق الجنود بعوازل إسمنتية إمكانية العبور إلى الجهة الأخرى والاندماج بحركة السير بشكل طبيعي. ولذلك لا بد أن ينكشف وينفضح أمر كل مستخدم للطريق الالتفافي حال وصوله الشارع الرئيسي ويضطر للسفر بإتجاه معاكس لحركة السير في منطقة مزدحمة على الرصيف. كل سائق وحظه: هل ستأتي دورية حرس الحدود في هذه اللحظة أم لا؟ ولذلك يسعى السائق لتقصير فترة الفضيحة بالإسراع بعكس حركة السير على رصيف مكتظ بالبشر. ولكن لا يخطر ببال أحد أن تأتي الشرطة لتسجل مخالفة سير في مكان لا شيء فيه يجري بموجب أي قانون. ومع ذلك ظهرت فجأة سيارة شرطة السير، شرطي بنظارة «ري بان ديتكتيف» ومعه شرطية. وقف وبدأ يوقف السيارات الآتية بعكس حركة السير لمخالفتها. وكأن باب جهنم قد فتح خلال دقائق، أو كأن العالم عاد إلى حالة السيولة: كل شيء اختلط بكل شيء. كل شيء يسيل بكل اتجاه تضاف إليه المؤثرات الصوتية غير القابلة للتمييز: ضجة أبواق السيارات والشتائم المشبرحة وصراخ البائعين وبكاء الأولاد. تحرك أبو علي حارس العمارة السمين والمتثائب طيلة اليوم أمام الحاجز، الذي بات تسليته الوحيدة،

بعد أن لم تكن لديه أية تسلية قبل قيام الحاجز. لم يستطع أن يتحمل الغباء والسذاجة، لقد طور شعوراً بالمسؤولية تجاه الحاجز من طول المناوبة أمامه. أمسك أبو علي بزمام المبادرة بدل أن يزمزم شفتيه عند نفث الدخان، وبدل التسلي بصنع دوائر من دخان السيجارة دخل أبو علي إلى دائرة الحدث.

- بدك هلأ تخالف كل هالناس؟
- أيوا بدي أخالفهم، يلا امشي من هون، روخ روخ!!
- هلأ إذا بتخالفهم... بوم بوم بوم...، قالها أبو علي وأطلق ذراعيه بحركة من بطنه الكبير نحو الخارج.

جرى ذلك في عصر بات فيه البطن الكبير شيئاً مشبوهاً. استنفر الشرطي ووضع يده على المسدس، وتوالت الصيحات:

- اتركه هدا مجنون!
- شو ما بتشوفه هون كل يوم، ما بعقل!

عاد الشرطي إلى شرطيته، أدار المحرك، لوى رقبته نحو الخلف وقاد سيارته بعكس حركة السير، وذهب لا يلوي على شيء.

[15]

طورا بورا... وكآبة المنظر

ملأ الحاجز الدنيا وشغل الناس في نفس الأيام التي سمعوا فيها عن طورا بورا، وكأن الاسم من كوكب آخر على وزن أسماء الكواكب في أفلام حروب النجوم من إعداد ستيفن سبيلبيرغ، أو على اسم بلاد الواق واق التي سمعوا عنها في أساطير الرحالة. ولا بد أن بعضنا اعتقد أن تلك الحرب التي دارت رحاها ضد الارهاب كانت من إخراج أحدهم ممن عرضوا أمثالها على الشاشة فيها: الأمريكي بطل في وضعه الطبيعي يحارب الأشرار وينقذ العالم قبل وقوع الكارثة وزوال العالم بخمس دقائق.

طورا بورا . . يا له من اسم. «وما زال القتال مستمراً في طورا بورا. . .». وما زال الأمريكان يقصفون جبال طورا بورا استعداداً لتمشيطها بواسطة المشاة الإنكليز، الذين ما زال بعضنا يتخيلهم بشورتات وتنانير اسكتلندية وألقاب عسكرية ورتب ودرجات تركية. فأهالينا صنفوا الدرجات العسكرية الإنكليزية بالتركي، والإسرائيلية بالإنكليزي، يتقدمهم أمباشي هندي ويقودهم جميعاً ضابط بكباشي من ضباطهم الذين اشتهروا بالشجاعة والشنب المفتول نحو الأعلى يتراقص على نغم موسيقى القِرَب. وبمثل هذا الشنب الذي احتال بوسائل شتى شباب تلك الأيام لتصليبه وإبقائه واقفاً قبل اكتشاف الـ«جل»، عاد آباؤنا الذين خدموا في قوة حدود شرق الأردن بحثاً عن بندقية وفرس وزي وشنب إنكليزي مقصوص بعناية، وعن سجائر إنكليزية «فايف دبل فايف» و«بلايرز»

وعلب لحمة «بيلوبيف» وسردين برتغالي. ولا تكتمل الرجولة إلا بصورة بالزي والشنب تعلق في صدر الصالون للتدليل على أن البيت لا يخلو من الرجال. وما دامت لا توجد دولة ولا جيش فحريّ بالرجل الذي لا تكتمل رجولته من دون التجربة العسكرية أن يخدم في عسكر أبو حنيك، أو في قوة حدود شرق الأردن.

طورا بورا لم توجد قبل الحرب، ليس لأنه لم يفكر بها، بموجب نهضة «أنا أشك إذاً أنا أفكر إذاً أنا موجود»، وقبل أن يختصرها طلاب جامعة بير زيت إلى «أنا أشك إذاً أنا دبوس»، بل بموجب «أنا أشاهد إذاً ما أشاهده موجود، وأنا موجود إذا تذكرت ما أقوله مما شاهدته أو إذا نجحت في تحويله إلى موضوع حديث في اليوم التالي»، وما لا يوجد هو ما لا يشاهد في التلفزيون.

- شو هاي، ما حكو عنها في التلفزيون؟

أو:

- كيف ما حكو عنُه في التلفزيون؟

أو:

- بعرفها هاي حكوا عنها في التلفزيون؟
- ما حكو عنه. لو القتيل منهم كان كل تلفزيونات العالم صورت، يا أخي شو بدك في الحكي إحنا مشكلتنا الاعلام.

والقمة بالطبع:

- شفناك عالتلفزيون، حكيت منيح والله، بيضت وجهنا، مش بطال.

كما لم توجد الكسارة التي تمتد من مخيم قلندية إلى الشمال الشرقي ووجدت من دون أن «يحكوا عنها في التلفزيون» لأن الناس أحست بها على جلودها. وجدت ولا تنتهي... ولم يجرب أحد أن يخاطر من دون شاحنة أو عمل ينفذه هناك أن يكتشف أين تنتهي. ولا حاجة للتحذير: «ممنوع الدخول لمن ليس له عمل»، فحتى من له عمل لا يرغب أن يدخلها. كسارة لا تنتهي وعمق حفرها غير مسبوق. دولة الحواجز في عصر الدفاع عن البيئة تعوض عن تقييد حرية كساراتها

بالحفر أعمق وأوسع و«أوحش» في منطقة رام الله. وبما أن البناء لا ينتهي فإن العمل في الكسارة لا يتوقف، ولا يعرف الفرق بين الليل والنهار، والغبار يحجب أشعة الشمس على أية حال.

ولا تحتاج شاحنات الحجارة الضخمة الـ«ماك» الأميركية إلى شارع فعجلاتها معادية أصلاً للإسفلت وحضارة الشارع. وبما أن الفلسطينيين بسياراتهم قد اكتشفوا طريق الكسارات الالتفافية في عصر تقاطع الحرب الأفغانية والحاجز، فقد أطلقوا عليها التسمية المعولمة التالية: طريق طورا بورا. وهذا آخر طريق التفافي يلجأ إليه المرء. ويجب أن يكون يائساً تماماً ليلجأ إليه بعد أن انسدت في وجهه سبل الحياة، لأنه طويل وشاق وخطير ولأنك تأخذه من عند الحاجز تماماً وتمضي فيه مسافة طويلة من دون أن تتقدم إذ يعيدك إلى ما بعد الحاجز بأمتار.

والرحلة طويلة وخطيرة لأنها تشمل السير على رمل أبيض ناعم كالطحين أسفر عنه طحن الحجارة الكلسية، بمحاذاة شقوق جبلية وأخايد من صنع البشر وحفر كبيرة بعمق خمسين متراً من دون وجود أي إشارات تحذر من السقوط في الهاوية، ولأنه مهما أغلقت نوافذ السيارة ومهما كان الإغلاق محكماً، وحتى لو لم يغر الركاب أن يطلوا من النافذة إلى أسفل الهاوية، فإن شكلهم بعد نهاية الطريق سيكون كشكل من خرجوا لتوهم من مطحنة قمح بعد يوم عمل. ولا يود أن يتخيل حال هذا الغبار في الشتاء ونوع الوحل والمنزلقات التي تنتج عنه.

هكذا اضطر أن يأخذ طريق طورا بورا للمشاركة في تأبين قائد سياسي اغتالته دولة الحاجز في رام الله بصاروخ يُقال إنه أطلق من مروحية كانت تحوم على بعد كيلومتر أو اثنين هوائي غربي البناية، ويقال إنه اغتيل بعد أن دخل المكتب بدقائق وبعد أن رن التليفون على مكتبه ورفع السماعة، وقد تبين من التحقيقات فيما بعد أن تلك المكالمة الهاتفية كانت من المدينة التي تقع فيها «ساحة الدولة».

ورغم كل المحاولات لوصف الحالة التي وجد بها بعد أن ضرب أعلى جسده بصاروخ أصاب الرأس، إلا أنه امتنع عن محاولة التخيل. وبقيت في ذاكرته صورة رجل متواضع مربوع القامة صلب البنية يكثر من

الابتسام لطيف المعشر، يذكّر لسبب ما بصورة الشيوعي الإيطالي الذي ترسمه أفلام برتو لوتشي وفليني وبازوليني والأخوة تافياني أو الأناركيست الجنوب إيطالي أو الإسباني من الفترة بين الحربين.

ويبدو أنه للانتقام الذي تم بعد هذه الحادثة بإغتيال وزير علاقة بفضاء الحاجز. فقد ساهم في ترتيب العملية الانتقامية وتنفيذها حسب المصادر الحاجزية رجل يكنى «مجدي الفورد». وقد استبدل الفورد بإسم العائلة لأن للرجل علاقة عريقة بأعمال النقل على الحواجز وفيما بينها، وبيع وشراء وتبديل وقيادة سيارات الفورد ترانزيت التي تقل الناس من وإلى الحاجز. أغلقت طريق طورا بورا فيما بعد، مع زميلاتها الطرق الالتفافية الأخرى.

مكتبة
t.me/t_pdf

[16]

أريتريا

عندما تسلقت السيارة المنحدر الذي يقود إلى بيته جال نظره من حوله بغضب، لماذا يبنون بيوتاً واسعة من دون أرصفة، لماذا تبنى البنايات بهذا الاتساع وحولها خراب، لماذا يرفرف كيس بلاستيك أسود على كل شجيرة شوك وبلان؟ ألا يمكن أن يكون الوضع أفضل؟ ليس علينا أن نتحمل هذه البيئة رغم الاحتلال.

- هل رأيتم هذا الكم من الغبار في أي بلد في العالم؟

قالها سجالياً. لم يكن هذا سؤالاً، ولم يطلب من أحد أن يجيبه أين بالتحديد يقع البلد الذي يزيد فيه الغبار عما حول بيته الذي يبعد عن الحاجز بعض مئات الامتار.

ورغم ذلك جاء الصوت من المقعد الخلفي.

- في أريتريا.
- ماذا؟
- قلت لك في أريتريا. سألت أين يوجد بلد يزيد فيه الغبار عن هذا البلد فأجبتك.
- من وينلك هالمعلومة؟
- كنت في أريتريا. أريتريا أقذر من هون. شو بتستحي تقارن بلدك بأريتريا؟ سألت وانا جاوبتك.

جال بنظره في المكان - النفايات مبعثرة على السفح محروقة ونصف محروقة، قباحة البنايات العشوائية التي لا تترك سبيلاً إلا لسكانها

ليستطيعوا الوصول إليها بإتجاه واحد. وإذا تصادفت سيارتان بنفس الاتجاه، فيتوقف نشوب الشجار ونوعه على توازن القوى بين السائقين: هذا له عزوة، وذلك ليست له عزوة، وعلى حسن أخلاق الواحد ومزاجه. ما الذي يجبره على السكن هنا والتظاهر بالتسامح الفكري مع مقارنة المكان مع أريتريا؟ ومن قال إن أمثاله في أريتريا فرحون بنصيبهم من الغبار؟

القمع والإذلال مزعجان جداً، ولكن القباحة الناجمة عن أهل المكان، عن غياب صاحب للبيت، تزعج أكثر. وهو يذكر النقاشات التي كانت تدور حول العلاقة بين القذارة وبين الثورية، ولم يؤمن في يوم من الأيام أن القذارة ثورية ودليل على القمع والاضطهاد، أو أن النظافة والترتيب والحس الجمالي من صفات البرجوازية الكبيرة أو الصغيرة أو «النونو الزغيورة» كما كان يتهكم على اليسار الذي يحب تقسيم العالم بموجب مفاهيم لم يفهمها احد، فقد اعتبر القذارة مظهر تخلف والنظافة مظهر حضارة. لا أكثر ولا اقل.

- عيب هاي؟
- لا مش عيب.
- يعني اللي بتفرغ سلة النفايات على الأرض تقوم بعمل ثوري، لأنه لا توجد حاويات نفايات في محيط الحاجز ولا أحد ينظفها؟
- لا ممكن متخلفة فعلاً، وممكن انها تنتقم من زوجها الذي يسافر كل يوم في السيارة ولكنه يرفض أن يحمل كيس نايلون وفيه نفايات بالسيارة ليضعه في الحاوية القريبة، هذا مش شغل رجال. وهو بيبقيلها إياه ويذهب إلى العمل، وهي تحمله وترميه بباب البيت.
- ما بقي إذاً إلا أن أروح لبيتها وأقنعها أن تعطيني هالكيس وأضعه أنا أيضاً في باغاج السيارة مع زبالتنا، لتتوحد زبالتنا وزبالتهم في وحدة مصير.
- أيوا فعلاً. لأن جاركم وضع كيس الزبالة وساق السيارة والكيس

فوق غطاء المحرك كي لا تطلع رائحة الباغاج ومش مهم تطلع رائحة الحارة، وكاد يسبب حادثاً لأن الناس وقفت تنظر كيف سيصل الكيس سعياً إلى عنوانه على مقدمة السيارة كأنه رايتنا وكأنه رمز أو علم.

وقع الكيس ولم يكد يلاحظ ذلك حتى داسته عجلات السيارة فتحول إلى ازعاج عام وعائق على طريق المشاه يضاف إلى الحفر الكبيرة والمياه الآسنة.

- إيه وزعلان من المقارنة بأريتريا؟
- أنا قلت إني زعلان شي؟ بس استغربت إنك كنت هناك.
- شو يعني لأني مرأة؟
- لا أنا مش مقابل بحياتي حد كان هناك لا مرأة ولا رجل.
- هناك في أريتريا ما في أكياس زبالة نايلون متجولة مثل رايات توضع على غطاء المحرك.
- يعني شو بدها الناس تعمل إذا أول حاوية تبعد 2 كلم وما في بلدية حول الحاجز، ومش معروف أول الحارة من آخرها ولا تابعة لمين.
- بس على الأقل كيس الزبالة معروف تابع لمين، هذه ليست بحاجة لعملية خصخصة.
- إيه ولكن تم تأميم كيس الزبالة بعد أن داسته عجلات السيارة وتحول إلى إزعاج عام في الحيز العام.

[17]

مجنون

في الانتفاضة المتلفزة الأولى قبل التلفزة الفضائية، أي تلك التي وقعت قبل الثانية، ومقارنة بها سميت الثانية انتفاضة أيضاً، تعوّد الناس على صورة الجنود يقبضون على متظاهر بعد كرّ وفر، ويحاولون اعتقاله بعد ضربه وبعد أن تجرد من حجارته. وفجأة من لا مكان ومن كل مكان، يظهر فريق من النسوة، كل نساء الحي، أو كل نساء البلد في حالة القرى الصغيرة.

تحلف دولة الحاجز أغلظ الأيمان أنهن منظمات، ونحلف نحن أغلظ «من أبوهم» أنهن عفويات اصيلات متضامنات مع كل ما يتحرك ويعاني ويعتقل في بلدهن. ويبدأن فوراً بالادعاء أن الشاب لم يفعل شيئا، ثم تمسكه الأسمن منهن، أو الأجرأ، أو الأكثر عافية رغم سبعة أو ثمانية بطون (كما تسمين الحمل فيما بينهن) وتخبئه، وراء ثوبها المطرز أو الريفي لتبدأ عملية «شد وارخي» جديدة، وما أن يمسكه الجنود حتى يتحول الشاب إلى حبل مشدود بين الجنود والنساء.

- ولك امسك فيي تستحيش! أنا زي امك.

لا تصدر عن الشاب سوى حشرجة غير واضحة إما خجلاً أو خوفاً أو كليهما، أو نتيجة للشد.

والشد وما أدراك ما الشد! قد ينفع ويتعب الجنود خاصة أمام الكاميرات، وقد لا ينفع شيء مع مجموعة جنود أصروا على ألا يخضعوا للعبة الفلسطينية كما يرونها، وغالباً ما ينتهي الصراع بشاب

مضروب ومعتقل ونسوة يملأن الدنيا صراخاً بعد أن أصبن بكدمات يتحوطن أم الشاب للشد من أزرها وتشجيعها على الصمود أمام المصيبة الجديدة التي حلت، وتتضمن ما يعرفنه ولا يعرفه غيرهن: توسل المحامين ومناقشتهم على تسعيرة رمي الحجر في هذه الأيام والصفقة مع النيابة: يعترف أم لا يعترف؟ والحواجز والسفر والتصاريح، والاستيقاظ عند الفجر للوصول إلى السجن قبل الظهر والعودة إلى البيت قبل الغروب

- إذا اعترف ممكن نحَصِّلّه سنتين محكومية بس. هو عنده وقف تنفيذ شي؟ وإذا ما اعترف فالتهمة ثابتة ثابتة والعقاب دوبل، أنا بعرف حدا بالإدعاء بقبل صفقة.

وزيارة السجون والمعتقلات والبهدلة المؤكدة على الحواجز في الطريق إلى هناك وباب السجن الذي قد لا يفتح بعد كل البهدلة، فقد يعاقب الاهل على اثر مشاكل وقعت بالأمس بين سجين وسجّان. ولكن في الإنتفاضة الأولى كان ما زال المجال مفتوحاً لعراك بالأيدي بين المحتل والواقع تحت الاحتلال، وكان بإمكان النسوة أن يدافعن بأجسادهن عن الشباب كل واحدة قد تدّعي في أي لحظة انها امه. أما في الانتفاضة الثانية فقلما وقع عراك بالأيدي، وقلما تدخلت النسوة بين الأولاد والبنادق.

وفي يوم من أيام الشتاء الثاني للانتفاضة الأولى التحقت مجموعة جنود جديدة من نفس الكتيبة كما يبدو بالوحدة الموجودة في القرية لتعزيزها، وقد طور الجنود الشباب من الخدمة الإلزامية طقوس دخول إلى وحدتهم تتضمن استقبال الجندي في وضعه الجديد بشكل مراهق كما يحصل عادة في طقوس القبول إلى البلوغ بوسائل ترمز إلى تغليظ وتقسية القلوب، وفي حالتنا بغرض مواجهة شروط اللعبة الجديدة في قرى جبال الخليل النائية. وهنا يلبس الجندي سروال جينز من دون حزام وحذاء رياضة مطاطياً أبيض وقميصاً عادياً ملوناً كأنه شاب عربي ضبط لتوه متلبساً بإلقاء الحجارة على الجنود، ويمسكه جنديان آخران كأنه معتقل يمران به بين صفين من الجنود المتمرسين هذا يركله وذاك يبصق

عليه وثالث يشتمه: «ياعربي يا قذر» أو «سنعلمك درسا في رمي الحجارة اليوم». ومع التقدم تصبح الشتائم أكثر دسما وتركيبا وتفننا.

وصادف أن الجندي الأول الذي أقحم طقس القبول كان من أصل شرقي، وبالتالي شرقي الملامح. وما إن أمسكه الجنديان وجرّاه على الأرض وهما يقهقهان وهو يشتم حتى تجمعت النسوة نخوةً:

- اتركوه! شو بدكو فيه؟
- أنا شفته ما رمى حجارة، كان مارر من هون.
- اركضو اركضوا! هلكوا الولد من الضرب.

ويكون ضرب الجنود الطقسي لزميلهم قد بدأ فعلاً، وكمن أنهوا لتوهم مدرسة ثانوية، يمكن أن يكون ضربهم إثباتا عنيفا للرجولة. وما أن تدافع الحشد وولولت النساء حتى ظهر فجأة المختار الذي ما زال يلبس لباسا عربيا ويتعكز على عكاز مزركش بالحفر نصف تركي نصف بلقاني من بلغاريا جلبه له ابن اخيه الذي يدرس الطب هناك بمنحة إيفاد من الحركة منذ عشر سنوات، ومنذ أن بدأت الانتفاضة لم يعد يستعجله للعودة.

تقدم المختار بخطى واثقة نحو الحشد، وتوجه إلى من بدا له الضابط المسؤول واضعا اصبع السبابة باتجاه رأسه فوق الأذن وأخذ يدوره بعكس اتجاه عقارب الساعة في إشارة عربية معروفة لفقدان العقل:

- اتركوه هذا مجنون! يا عمي والله مجنون!! هذا كلنا منعرفو مِن وهو زغير مجنون.

[18]

أسطا واصل

طويل القامة إلى درجة حني الظهر عند المشي، أو هكذا شبه لهم. اسمر اللون، ملتحٍ، يجوب شوارع البلدة بقدمين عاريتين سوداوين من الاسفلت، وهو، على ما يبدو، لم يستحم طيلة حياته. يحمل دائما على ظهره كيس خيش كأنه حمال يقي ظهره من أذى حمولة ذات زوايا حادة، ولكن الكيس متعدد الاستخدامات، وهو يفرشه ارضا كلما جلس كأنه يريد الحفاظ على ملابسه القذرة وأسماله البالية من الاتساخ، ويجمع فيه زجاجات البيرة الفارغة ويستبدل بها بواحدة مليئة يشربها ماشياً، والأصح هائما على وجهه في البلدة الصغيرة. الأسطا واصل هو أول خوف من المجهول عرفه اطفال البلدة. يجوب الشارع مثل شبح أسمر، يلفه الغموض. يرمق الأطفال بنظرة عدم اكتراث تتحول إلى غاضبة إذا حاول أحدهم أن يلحقه بحجر أو أن يهزأ منه كما من مجانين الشارع والساحات والسوق المعروفين في البلدة وهم ثلاثة: خالد في حارة الروم، وأبو الحيايا في الشارع الرئيسي، ونمر يشتم نفسه والذين ولدوه بأبذأ التعابير في السوق ويلبس الفساتين من حين لآخر ويمشي في السوق باحثاً عن سيجارة.

وقد أنقذ الأسطا واصل من قسوة الأطفال خوفهم من المجهول ولهجته المصرية في مرحلة حيكت فيها الأساطير عن مصر عبد الناصر. لا يتكلم إطلاقاً إلا بعد شرب البيرة، ولكن بعد أن يشرب البيرة فإنه ينطلق يجوِّد القرآن بصوت عذب يأسر السامعين، وعندما يتكلم فإنه

يهذر كلاماً منطقياً وحكماً وكلاماً في خليط لا ينجح المستمع دائما في فصل قمحه عن زوانه لسرعة حديثه وكثرته.

لم يدرِ أهل البلدة من أين أتى الأسطا واصل ، وكيف وصل إلى بلدتهم. ولم يعرفوا أنهم يستضيفون أول «هوموليس» حديث قبل نيويورك وقبل الـ«داون تاون» في سان فرانسيسكو. ظهر فجأة بعد حرب السويس. ومع إنه مصري إلا أن أحدا لم يربط بين وجوده في البلد وانسحاب الجيش الإسرائيلي ومعه بعض المعتقلين المصريين والفلسطينيين المحررين من المعتقل المصري. على أية حال، انتشر لدى الصبية اعتقاد مفاده أنه طيار مصري سقطت طائرته في سماء إسرائيل. وكيف برروا لأنفسهم وجود طيار مصري حر طليق بهذه الحالة؟ لقد اصيب، بموجب رواية يرددها الفتية، بصدمة من السقوط ولم تهتم مؤسسات الدولة بسجنه نتيجة لحالته النفسية. وتستمع ربات البيوت لهذا الكلام بريبة وتوجس لا لعدم منطقيته، بل لأنهن قد قررن أن غريب الشكل هذا هو جاسوس للشين بيت، أو خاطف أطفال، أو ممثل الشيطان نفسه.

يمشي الأسطا واصل طيلة اليوم، يجول البلدة ذهابا وايابا بعصبية كأنها قفص. ويشاهد من باص المدرسة، ويشاهد من التلة الصغيرة المحاذية لمغارة يأوي إليها ليلاً عند عمارة الجيش، التي ما زالت تسمى «عمارة البوليس» من أيام الانتداب وباختصار «العمارة». ويشاهد عند شرقي البلدة وغربيها في ساعات غير محددة وبموجب نمط سلوك ومشي غير محددين.

الأسطا واصل لم يكن مجنوناً. هكذا حكم بعض الشباب من المرحلة الرومانسية التي اختلطت فيها خطابات عبد الناصر بأغاني عبد الحليم بجميلة بوحيرد، التي أحبّوها جميعا حباً عذرياً إلى أن مثلت ماجدة دورها، بحذاء خروتشوف يقرع في الأمم المتحدة، بكاسترو وسوكارنو الذي وقع في حب ممثلة يابانية طلعت جاسوسة للسي.آي.إي، وهي العبارة التي اعتبرت تهجئتها بدقة علامة على الثقافة والثورية. لقد جلس هؤلاء معه، استمعوا إليه وانفعلوا من صفنته كأنها

حكمة وفسروا ابتسامته كسخرية العالم بالأمور، المستهتر بالجهلة، واعتبروا تخريفه درجة من الصوفية لم يخبروها بعد:

- يا أخي خليه يحكي.
- شو هالاسئلة اللي بتسألو اياها، شو عرفُه هو بعبد الناصر؟
- ياخي أنت ليش زعلان، خليه يحكي!
- لا أنت بتتصرف برومانسية كأنو اللهجة المصرية ما بتوصل إلا إلى قصة لإحسان عبد القدوس، عم تقرا منها كتير مؤخرا، شو قريت «في بيتنا رجل» واللا شو؟ شو؟ مش هيك اسمها؟
- آه شو يعني بدك اقرا كتب روسية من اللي بتصل عن حرب الانصار ؟ والله اسماؤهم ما بعرف الفظها. واللا هاي المجلات اللي كلها تراكتورات ومواسير من وإلى سيبيريا. ورقها لميع ما بينفع حتى لقضاء حاجة.

وطربوا لتجاويده، وكان يجوّد بصوت رخيم ولغة جميلة. واسقطوا عليه نظرياتهم حول مصر، جعلوا منه حكيماً، مثل خالد محمد خالد على الأقل في حينه. وقد عبروا عن إعجابهم بكتاب «لكي لا تحرثوا في البحر». وما دام «في البدء كان الكلمة» فما عليهم إلا أن يتكلموا معه، ولكنهم لم يثبتوا لأنفسهم العلاقة بين حراثة الاسفلت التي يقوم بها يوميا الأسطا واصل وبين حراثة البحر التي يقومون بها في محاولة تحويله إلى حكيم.

وفي يوم من الأيام نجحوا بإقناعه أن يستحم في بيت احدهم الذي جهز زوجته بتعبئة ثورية حقيقية لتقبل بهذا الحمام، وعندما لم تنفع التعبئة الثورية ادعى أن الأسطا واصل من نفس بلد ناديا لطفي من فيلم «الخطايا» الذي عصرت عليه مناديل الدموع في عرض النساء يوم الجمعة في سينما «ديانا». واشتركوا في تجهيز ملابسه: من هذا بنطلون، ومن ذاك قميص، في مرحلة لم يكن فيها الإنسان يملك بسهولة سروالين، حتى لو كان لديه عمل ووظيفة آمنة. ولبس الأسطا واصل النظيف ثياباً مثل العريس. ولكنه بدا فيها عصبياً مهموماً.

بعد ساعات قليلة هرب. عاد وارتدى ملابسه التي حملها بالكيس

وأبى أن يرميها أو يحرقها أو يتنازل عنها. وعاد إلى مغارته وإسفلته اليومي.

كبر أسطا واصل وبقي غامضاً واختفى. لم يمت في البلدة، هذا مؤكد. مات خارجها. ويروي شهود عيان آخر حادثة وقعت معه أنه رمى سائحة حاولت أن تصوره بزجاجة بيرة جرحتها شظية منها في رجلها، وان رجالا قدموا وأخذوه إلى «مستشفى المجانين» في عكا، حيث توفي مجنونا في فترة غير رومانسية، لا احد يعلم متى. ومستشفى الامراض العقلية الشهير في عكا، كان في فترة الانتداب سجن عكا الذي كانت تنفذ فيه أحكام الإعدام والذي قيل فيه وبنزلائه:

من سجن عكا طلعت جنازة
محمد جمجوم وفؤاد حجازي
جازي عليهم يا شعبي جازي
المندوب السامي وربعه عموما

[19]

مدبر حالو

لسبب ما مع انتشار وعي الأطعمة قليلة السمنة كتب على أغلفة منتوجات الألبان أرقام مثل: نصف بالمائة أو تسعة بالمائة دهنيات، أو اثنان ونصف بالمائة وهكذا. وبدأ هو يتفحص الناس كما يتفحصون منتوجات الالبان أثناء الشراء، ويحاول أن يكتب عليهم بنظراته: هذا نصف بالمائة روح وذاك اثنان ونصف بالمائة انسانية، وهذا ديكاف منزوع الانسانية، وهو متعجب ينظر كأنه مخدر نحو كثرة الناس الذين يتكلمون ويتصرفون دون بقايا من روح أو قلب أو انسان. ولذلك وبعد التحية التي سمعها بوضوح وأجاب عليها بنفس الوضوح، بدا له صوت صديقه، تلميذه السابق، الذي قابله على الحاجز وأقله بسيارته لتوه غريباً وبعيداً كأنه قادم من أحلام اليقظة:

- سعيد والله مدبر حاله، برافو عليه!
- أيوه منيح.
- ليش هيك ناشف زي اللي مش عاجبك؟
- هو مدبر حاله. ما أنت قلت هو مدبر حاله. يعني مش مدبرني أو مدبرك أو مدبر غيره، يعني مدبر حاله هو، وأنا شو دخلني اذا هو مدبر حاله؟ بعدين أنت لشو فايت بجولة ايجابيات لتثبتلي يعني إنه عندك شي ايجابي تقوله عن الناس، مين ما نذكر رح تقول عنه شي ايجابي لتقول انك ايجابي ولتغيظني وتفرجي إنه ما عندي شي منيح اقوله عالناس، وانك يعني بطلت تشعر بالمرارة

وانه عندك شي منيح تقوله. بدك تصلح انطباع مبارح لما قالتلك الست: «إيه: قول شي منيح عن حد»؟ وأنا مالي يا خوي أنا ما اتهمتك هالتهمة، وانا ما بشعر بالمرارة وعندي اشياء منيحة اقولها، وبعكسك أنا مضطر أساير الناس كل الوقت.

- طيب يعني أنت ما بتعتبر نجاح شاب عربي بحد ذاته شي منيح؟
- هاي ما فهمتها يعني مثل ما كنا ننبسط انو محمد علي كلاي انتصر في الملاكمة لأن اسمه محمد؟ هذا كان مجرد تضامن رمزي مع المظلومين، ومن زمان توقفت عن شخصنته، وما عدت صحاب أنا والرمزية، وبعدين صرت أشوف بالحماس والتعصب لرمز شي صبياني غير ناضج، واذا الواحد طوَّل في هالمرحلة الصبيانية ممكن يوصل لكوارث. عن قصيرُه، لا ما بعتبر النجاح بحد ذاته شي منيح.
- ما في نجاح بحد ذاته في نجاح فردي لفلان وفلان.
- إيه وشو أعملهم؟
- ما تعملهم شي، يعني بس عبر عن اعجابك!
- أنا غير معجب بالنجاح هيك بحد ذاته.
- اتفقنا انو الاعجاب بنجاح محدد.
- الاعجاب سلف يكون بنجاح مجرد. واذا محدد، تعال نحدد! ما تقول لي «مدبر حاله» شو يعني مدبر حاله؟ عن أي نجاح منحكي؟ ممكن نجاح شخصي مضر بالمجتمع، هذا لست معجبا به بل يجب فضحه وليس الاعجاب به وبسيارته وفيلته اذا كانت مثلاً قائمة على السرقة أو على بيع المخدرات أو على الرشوة وسرقة الاموال العامة. مع أن هذا الحرامي النصاب لم يعد بحاجة أن يبيع أو يسرق بنفسه، ولديه الوقت ليعاشر المعجبين بالناجحين وبفيلته ولوحاته التي اشتراها بمال تعاسة الآخرين المباشرة. ولديه الوقت لمخالطة المعجبين به من امثالك ونسائهم المعجبات باللي مدبرين حالهم وبعيروا رجالهم لانهم مش مدبرين حالهم كفاية. واذا كان الحديث عن نجاح في

الوظيفة فانظر مقابلك الضابط مسؤول الحاجز! هذا عربي الأصل. وهو يعتقد أنه يعطي أوامر لليهود. ما رأيك أن أعجب بهذا النجاح؟

- لا طبعاً، هذا مش المقصود.
- أين الحد الفاصل بين المقصود وغير المقصود؟ هل الحد هو خدمة دولة الحاجز؟ هل هذا ما لا تحتمله؟ إذاً لماذا تحتمل وتعجب بنجاح من يخدمونها في وظائف اخرى غير قيادة الحاجز؟ لأن تلك الحواجز مخفية لا تراها ولكنهم يخدمون حاجزا غير مرئي يمنعك ويمنع أمثالك ليس فقط من التطور وانما من رؤية حاجز التطور. بل ويدفعك الحاجز الوجداني والغباء العاطفي للإعجاب به. هنالك بشر يحددون تطورهم الضميري، يعني ضميرهم صغير ومحدود وعلى قياسهم، ويجولون بيننا بأناقة ولكن بنفوس وارواح ميتة، من دون مبدأ عزيز على قلوبهم. وهنالك بشر اغبياء عاطفيا اذكياء في جانب واحد اداتي في حياتهم، يرون انفسهم والناس كأداة من أجل النجاح الذي تتحدث عنه، وهذا بحد ذاته قمة الغباء العاطفي.
- خلينا نفترض هيك مع أن الموضوع اعقد من هيك. ليش صرت تحكي معي فصحى؟ عشان...؟
- أعقّدها؟ هيك بدك تقول؟ قول! الفصحى علشان تفهم، وكأني رجعت أستاذ، أو انجرفت ورجعت أستاذ، ومستعد ادفع ثمنها بسخريتك. ما في عشم بهيك مواضيع. ما رأيك اذا بمقاول لا يخدم السلطة الحاكمة في وظيفة بل يبني مستوطنات اذا لم يبنها فسوف يبنيها غيره؟
- هذا صحيح، اذا لم يبنها فسوف يبنيها غيره - حسناً، ولكي لا تردد مثل الببغاء ادعاءاته التي افترضها، اقول لك أن هذا الكلام يصح أيضاً بالنسبة لضابط حرس الحدود اذا لم يأخذ الوظيفة سيأخذها غيره وقد يكون حتى عربياً.
- ولكن الدنيا ليست أسود أم أبيض، أتدري ماذا؟ سأقول لك إن

هنالك فرقا، نعم هنالك فرق بين مقاول يعمل للبناء بموجب قوانين السوق وهو لا يخدم دائما سياسة بعينها، مرة يبني مستوطنة ومرة يبني مدرسة وهكذا. لا، هنالك فرق بين من اختار مهنة مقاول ومن اختار مهنة حرس حدود، الدنيا ليست اما ابيض أو اسود، هنالك الوان، ولكن التفكير الراديكالي يقسم الدنيا بهذا الشكل ولذلك أيضاً يفقد القدرة على التغيير، وإذا نجح الراديكالي بالتغيير يكون التغيير كارثة مدمرة.

- إيه، ماشي. دعك من الراديكالية، أنا مثلك متحفظ جداً على المزاج الراديكالي. نعم هنالك ألوان وفوارق ودرجات هي التي تجعل الحياة ممكنة. ولكن ما رأيك إذا قبلت إفتراضك وقلت أن يبني لا بأس بذلك، ولكن ماذا اذا اضطره النجاح إلى تملق الوزير القائم ورشوته بالمال ووعده بتجنيد الاصوات له ولحزبه الصهيوني في الانتخابات، هذه أيضاً اذا لم يفعلها فسوف يفعلها غيره؟
- لا أقبل هذا السلوك ولا أعجب به.
- ولكنك تعجب بنتيجته ولا تفكر بكيفية الوصول إلى هذه النتيجة.
- حسنا.
- حسنا، ماذا؟
- حسنا، أكمل!
- كل شيء سيئ، كل قذارة وموبقة ترتكب قد يقوم بها غيرك، ولكن هذا ليس أداة الحكم على الأشياء اذا كانت سيئة ام لا. واذا كان الواحد يتصرف بموجب ما قد يتصرف به غيره. لماذا اذا قلت انك لا تدعوني للإعجاب بنجاح مجرد بل عيني لهذا الشخص أو ذاك، في الوقت الذي تقول فيه أن الواحد يتصرف مثل غيره؟
- اقصد أن الإنسان الناجح قد جسد نجاحا فرديا في تحقيق

طموحاته المهنية أو المادية أو في تحقيق الشهرة اذا كان من محبي الشهرة، هذه هي النجاحات التي نقصدها وكل نجاح عيني مشتق من هذه.

- ولكن هذه نجاحات مجردة. أنت معجب بأي نجاح، بأي إنجاز.
- حسناً، لن أعتذر بعد الآن عن ذلك، فعلى النجاح والإنجاز يقوم المجتمع الحديث، وهكذا أيضاً يربى الاطفال، التحصيل العلمي والانجازات في الدروس وفي الرياضة وهكذا. ألم تعلمنا في الجامعة أن المجتمع البرجوازي الحديث قام على هذه الرغبة بتحقيق الربح والنجاح، الرغبة في العمل والعقلانية في تنظيمه واحترام الواجب والمواعيد وغيرها مما اسميته أنت اخلاقيات البرجوازية المبكرة التي بنت المجتمع الرأسمالي الحديث؟ الم تدّع أن هذه الدوافع في النهاية، ومنها دافع الربح والاثراء، تؤدي إلى تطور المجتمع؟ لو جاء كل برجوازي من القرن التاسع عشر وشاورك لاحبطت همته وأنت تحاول اقناعه أن النجاح بحد ذاته ليس هدفا.
- نعم لو شاوروني، كل على حدة، لما قام المجتمع الحديث لكثرة تبرمي وتذمري وتشاؤمي.
- لم أقصد ذلك، على أية حال إذا كان هذا مزاجك فلا داعي للكلام.
- بدأ الابتزاز. لا، أنا لا أهرب من الموضوع. كنا في حينه نقوم بتحليل تاريخي لتلك الحقبة كنتاج تقاطع ارادات ملايين الأفراد في ظل سيادة ثقافة وقيم عقلانية وعملية، نعم، وفي ظل فهم محدد للصالح العام. وحتى في تلك الحقبة الشرسة كان من مثلي سيسألك: نعم أي نجاح تقصد وكيف نجح فلان؟ وكانوا يميزون بين الاستثمار المنتج وذلك الذي يتطفل على انتاج الآخرين، بين من ينجح بمواهبه، ومن ينجح بالتملق والكذب أو لعق المؤخرات.

- يعني كل من نجح في النظام البرجوازي كان خاضعا للصالح العام؟ معقول هالكلام؟
- لا، طبعاً لا، ولذلك كان هناك أيضاً حاجة لمن ينتقد ويهاجم ويسخر في الصحافة والفن والأدب والمسرح وفي الحركات النقابية والأحزاب السياسية من قصص النجاح، ونحن قلة قليلة نقوم بهذا الدور هنا، وربما كانت قلة الناقدين وكثرة الإعجاب التافه بأي نجاح وانجاز شخصي هو ما يميزنا.
- عدنا من جديد، ما المشكلة بالنجاح الشخصي؟
- لا توجد مشكلة، وانت لا تريد أن تفهم، وهنا المشكلة لأنك بدأت تبني حياتك بموجب هذا النموذج، الذي يجعل النجاح الشخصي هو الهدف. ليست المشكلة في النجاح الشخصي بل باعجابك به.
- وهل تريد أن يكون الهدف هو الفشل الشخصي؟
- لا فائدة من الكلام معك، النجاح الشخصي يستحق أن يثير الاعجاب اذا داعب أو لامس قيمة عامة خارج الموضوع الشخصي مثل الصالح العام، الحس الجمالي العام، والذوق العام، الخير العام وهكذا. دون ذلك لا مغزى اطلاقا من الاعجاب. قد لا انتقده، ولكنني بالتأكيد لا اذوب اعجابا بمن بنى فيلا واشترى أيضاً بيتا ريفيا في جنوب فرنسا ويريد أن يزوج ابنه على حاملة طائرات، هل تذكر هذا الفيلم؟ لا أنت ولدت بالستينيات، كيف تذكر افلام الستينيات؟ ولا أُعجب بمن يتحلق حوله بعض المراهقين لانه مذيع برنامج أغان، وقد يكون هنالك في بعض الحالات سبب للذم والقدح بالناجح صاحب الانجازات لانها تمت من خلال الاضرار بالصالح العام، واستنزاف الحس الجمالي العام وإزعاجه، ونهنهة الخير العام...
- حسنا، ما رايك إذا بأنصاف الفنانين وأنصاف الشعراء وأنصاف رجال الأعمال الذين يستغلون الصالح العام و«القضية» لينجحوا

شخصيا كفنانين وكرجال أعمال يعملون في صناعة القضية ولولا الصالح العام لما سمع أحد بهم لا كفنانين ولا كمخرجين ولا غيره؟

- صدقني أن هؤلاء هم بالضبط تجسيد متطرف لنموذجك، فلا علاقة لهؤلاء بالصالح العام إلا كنوع من الحاق الضرر به، وعندما ينجح هؤلاء بمفاهيمك يتحلق حولهم امثالك، من الشاطرين لانه توفر لديهم الآن سبب وطني للتغني ينجاح هؤلاء الذين «دبروا حالهم».
- شوف هذا دبر حالو هيو فتح محل عالحاجز بالضبط اسمه «باجيت وكفيتيريا الحبايب».
- حرام عليك. بدك اهاجمه لتظهر سخافة نظريتي؟ هذا ليس نموذجك للنجاح، هون توجد حالة تعتبر جزءا من الحاجز، الموضوع يستحق أن يبحث لو منعرف صاحبه شخصيا، ولو منعرف اذا انسان منيح واللا سيئ، وكل الإمكانيات واردة. الآن ما عندنا مجال إلا أن نتهكم على الاسم واليافطة والجلسة على طاولات بره بالغبرة وأمامك منظر الحاجز، على كل لا أحد يأتي إلى هنا ليشم هوا. هدول سائقي التاكسيات معترين زيُه وشكل المحل زي شكل تكسياتهم وزي شكل حالتنا، «باجيت وكافيتيريا الحبايب»، بشرفك كيف هالأسم؟ مش قصة نجاح؟ هذا اسم مدبر حالو؟ بتعرف؟ بعض المغنين العرب لما الجمهور بصفق كثير بستخدموا كلمة حبايب، وحبايبي، يعني هو المغني أو المغنية هيك بيتبنوا الجمهور بشكل ابوي أو امومي وما بتلبقهم، مثل «باجيت وكافيتيريا الحبايب».
- إيه، بس شو العلاقة؟
- ما في علاقة بس هيك تداعيات الكلمة، يعني كلمة حبايب ما سمعتها بآخر عشر سنين غير من مغنين على المسرح بقولوا للجمهور حبايبي، وهلأ «بباجيت وكافيتيريا الحبايب».
- نجحت تضيعني.

- إيه شو رايك بهالنجاح، دبرت حالي أنا معك، لوين بدك أوصلك هيها هانت، ما بقي غير حاجز واحد، بتأمل ننجح باجتيازُه.
- بتتمسخر علي، يعني أنت ما بدك تنجح.
- لا بدي بس هدا اجتياز الحاجز مش من مشتقات نجاحاتك اللي ذكرتها حضرتك المادية والمعنوية والمهنية والشهرة وما شابه، هدا نجاح مش محسوب، اللي بتحكي عنهم ما مضطرينله.

[20]

وين كنا؟

بعد أن تعرض لتفتيش على الحاجز تضمن أسئلة حول وجهته، ومن أين أتى؟ وماذا يعمل؟ فإن أشد ما أغضبه إنه لعن في سره الجندي الإثيوبي أو العربي أكثر من غيرهم من جنود الحاجز في ذلك اليوم. لماذا يثيرون حنقه المحتقن أكثر من غيرهم رغم انهم في بعض الحالات يحاولون مسايرته، اما خجلا أو شعورا بالنقص أو لأسباب أخرى قد تنقلب أحياناً بسرعة البرق إلى حقد ضده، ولا أحد يدري متى ولماذا؟ فهم أيضاً مرتبكون والشيطان وحده يعلم بماذا يفكرون عندما يظهرون نحوه عدائية أكثر من باقي الجنود، أو عندما يظهرون لطافة أكثر من بقية من على الحاجز.

هل هذه عنصرية؟ هل الغضب على هؤلاء أكثر من غيرهم على الحاجز هو تعبير مكبوت عن عنصرية دفينة عليه أن يواجهها فورا بحجج داخلية ترشيدية من نوع: هذا ليس ذنبهم، وهم بأنفسهم ضحايا. ولكن بنفس هذا المنطق أليس الشباب اليهود الآخرون أيضاً ضحايا نفس السياسة؟ ولكنه يعتقد أنه لا يمكن التعامل معهم على نفس الأساس وإلا ضاع الفرق بين الحاجز وضحاياه. ولكنهم ليسوا ضحايا بمعنى أنهم ضحايا التضليل وغسل الدماغ وبرامج التدريس والدعاية، إنهم ضحايا نفس السياسة العنصرية التي يتعرض لها هو. هل هذا صحيح؟ إنهم أدواتها وضحاياها، وفي هذه اللحظة هم أدواتها. ولكنه ليس حزبا سياسيا يمر عن الحاجز ليحلل واقعا ويحضر برنامجا لتحرير هؤلاء، إنه

مجرد انسان عادي في طريقه إلى العمل يتعرض لهذه الأدوات.

ولكنه ينتبه إنه ينقم عليهم أكثر مما ينقم على الجندي الأوروبي الأصل أو «التسابار»، لماذا؟ لا يعرف، ربما لانه بات يعتبر هؤلاء على الحاجز ورد فعله الغاضب عليهم أمرا طبيعيا في حين قيام الاثيوبي أو العربي بذلك أمر استثنائي يستحق غضبا استثنائيا.

المساواة تعني أنه يحق لهم جميعا إهانته بنفس الدرجة، وغضبه على هذا أكثر من ذاك هو نوع من التمييز العنصري، وفكر: يا لها من فكرة سخيفة! ماذا أصابه، وكيف يرخي لأفكاره العنان بهذا الشكل؟ إنه يعتقد بهذه التداعيات التي لا يستطيع السيطرة عليها إنه يستكثر عليهم أن يقمعوه، وهو يعتبر ذلك موقفا عنصريا منه. ماذا دهاه؟

بطبيعة الحال يتعاطف مع الحركات النسوية في نضالها من أجل المساواة بشكل مجرد، ولكن طالما أزعجه عينيا مظهر القوة الذي يردن مصادرته من الرجال، ليصبح لدينا نساء ورجال «ماتشو» بدل الرجال فقط، يزعجه منظر الرجل الماتشو على الحاجز، ولكن يزعجه أكثر جندية لا تكتفي أن تكون رجولية فقط، بل أن تكون رجولية بمفهوم «الماتشو» الشديد الاعتداد بالنفس. ويحرج من الفكرة ويخشى أن يتهم بأنه عاد رجلا شرقيا لا يحتمل امرأة قوية، يضاف إلى هذا الانزعاج انزعاج آخر من فكرة أن يهمه ما يقوله يسار دولة الحاجز... ولكن عندما طالبن أن يصبحن طيارات في الجيش تساءل بالعبرية بصوت عال:

- مساواة المرأة بالرجل اذا تعني أن تمارس هي أيضاً الحق بقصف القرى والمدن اللبنانية وان تعود إلى قواعدها بسلام؟ أي مبارح شفت في الشارع بنت أمريكية مرخية سوالفها انها يعني متدينة زي الرجال المتدينين اليهود الأورثودكس وحاطة «كيبا» على راسها يعني مساواة المرأة بالرجل كمان بالتخلف والتعصب الديني. ولكل يوم طوشة عند حائط المبكي إنه حركة نسوية دينية تصر على حق النساء في الصلاة المختلطة مع الرجال في نفس المكان. ومبارح شفت وفد تركي جاي يشارك في حوار حول تعايش الديانات. طب ليه مش حول تعايش الثقافات مثلاً

مع الاكراد. هاي بلد ما بنعاش فيها، بلد بتجذب كل هالمجاذيب يتحاوروا على ظهورنا. ما بينعاش بهالبلد.

ردد في ذهنه: يميز العنصري الرجولي اذا بين إهانة جندية له وإهانة جندي، وهذا بعرف اللياقة السياسية نوع من التمييز العنصري.

إنه رجل وعربي أيضاً، وهذان أيضاً مفهومان سلبيان في عهد اللياقة السياسية، خصوصاً عندما يترابطان. يغضب لأن الجندي الأوروبي الأصل يتظاهر بالتضامن مع زوجته الجالسة بجانبه على الحاجز ويهينه أمامها، ولكنه يوقظه عندما يهينها أمامه، إنه مجرد عنصري يكره العرب رجالا ونساء، جماعات ووحدانا. ولكن هل يغضب في الحقيقة لرجولته، هل يغضب لأن إهانتها أمامه هي أيضاً إهانة لرجولته؟ لماذا يفور دمه عند إهانة امرأة يعرفها أكثر مما يثور حتى عند إهانته هو؟ فكر:

- وبعدين معي أنا؟ كأنها أفكاري عضلة لا إرادية، خلينا بالمهم! وين كنا؟
- مش عارف. مش عارف لا وين كنا ولا وين صرنا.»

[21]

مسارحة

يقع على جانبي الحاجز محتلون وواقعون تحت الاحتلال. وفي الازمنة الحديثة ناضل الواقعون تحت الاحتلال ضد المحتلين وتعاونوا معهم، والحياة عبارة عن تناقضات، وتحت الاحتلال تصبح التناقضات اقل شرعية وبالتالي أكثر احتداما وحدة وايلاما. كل شيء مرتبط بالعلاقة بين ما تقوم به قلة تجر تضامن الناس وعلية القوم الذين يتكيفون مع النضال حتى حصاد نتائجه أحياناً وبين التكيف مع عادية الحياة اليومية. في الأيام العادية يتغلب التعاون مع متطلبات الحياة اليومية على النضال ، تتغلب يومية الحياة ورتابتها والعمل اليومي على الاستثناء، لذلك هو استثناء». ولكن في الأيام العادية هنالك من يناضل رغم عادية الحياة، وقد درج الناس في تلك الديار على تسمية اندحار عادية الحياة تحت الاحتلال انتفاضة رقّمت أولى وثانية.

في بلاد الحواجز والعجائب يصنع الواقعون تحت الاحتلال مع الاحتلال مسرحاً مشتركاً، وذلك ليس بموجب حاجة جانبي الحاجز لإنتاج التعايش في إخراج وإنتاج مسرحية مشتركة، وانما بموجب حاجة جانب واحد من الحاجز لتمثيل التعايش في غيابه، ولإخراج عادية الحياة إخراجا وتمثيلا.

قبل الحاجز الشمولي في أيام الانتفاضة الأولى وبعد إغلاق بلاد الحواجز لأول مرة دفعة واحدة ابان حرب الخليج عندما سجن الناس كلهم، لأول مرة سهل تنظيم مخيم شباب للتعايش، وإنتاج أفلام مشتركة

عن القدس تصورها، تصور القدس كحالتي اختلاف بالمنظور وبزاوية النظر، وبالحكاية المختلفة والقصة المختلفة والشعور المختلف. مختلف ولكن متعايش. وهو متعايش من أجل الحصول على تمويل الفيلم من الصناديق التي تمول التعايش ويستخدمها الناس في الواقع لتمويل العيش بدل التعايش. ومرحى للاختلاف «بين الطرفين أصحاب نفس الحق على نفس الارض» «المختلف عليها من قبل الأطراف المختلفة»!! ازدهرت صناعة التعايش مثل صناعات أخرى قبل الحاجز الشمولي واثناء «عملية السلام».

وعندما فرض على البلدة منع التجول، لم تتجول في شوارعها إلا عتمة الليل ونباح الكلاب. وقد كثرت الكلاب منذ ازدادت أيام منع التجول، منذ حرب الخليج الثانية، ولم يعد بالامكان أن تنهى وتجزر لا بالعصا ولا بالجزرة ، واصبحت أكثر عدداً ونوعا، كل واحد نوع، والحقيقة كل واحد هجين انواع، كما أصبحت أكثر عناداً تتجول في الشوارع مثل قطيع من الضباع. في ليلة منع التجول حضر إلى البلدة جيب حرس الحدود بمهمة خاصة، عليه أن يحضر من القرية أثناء منع التجول ممثلتين هاويتين، بعد أن رتبت لهما ادارة المسرح في المدينة اذناً خاصاً لكي لا تتوقف المسرحية المشتركة اليهودية العربية. وكان في أوروبا من قرر أن يشجع المسرح المشترك بالتمويل ولذلك كان عليهم إيجاد ممثلين عرب.

عبرت الفتاتان عبر منع التجول ثم الحاجز باتجاه المدينة حيث جاء الجمهور المتنور، جمهور المسارح، إلى القاعة ليمارس التعايش في مسرحية، بعد أن حرر شابتين من منع التجول بغرض تسليته في مسرحية عن حب مأساوي بين شاب وشابة من حمولتين متخاصمتين. هكذا أحب المحتلون أن يشاهدوا علاقتهم مع الواقعين تحت الاحتلال. ولم يخرج ببال الإخراج الذي جاء من الخارج أن يخرج روميو جندياً اسرائيلياً ولا جولييت امرأة فلسطينية ينقذها الجندي الإسرائيلي من ضرب زوجها لها، كما درج الشبقون من كتاب تلك الديار أن يطرحوا علاقتهم مع الاحتلال وعلاقة احتلالهم مع الناس في بلاد الحواجز، في تلك

الموجة الادبية التي اجتاحت البلاد بعد الانتفاضة الأولى، أي بعد أن عاد الجنود إلى جهة الحاجز الأخرى ليتحولوا كتاباً ولتبحث كتبهم عن فتيات عربيات يمثلن دور الفتاة العربية. وقد أوصلت الحواجز البلاد إلى مرحلة تحمد فيها الله أن روميو وجولييت الأوروبيين قد اكتفيا بالموازنة بين المحتل والواقع تحت الاحتلال في حمولتين متخاصمتين ولم يجعلا الجندي السارق الغاصب المغتصب المتخلف الذكوري الماتشو كاتباً مستشرقاً محرراً لبنات الشرق من حجابهن.

[22]

مصارحة

في الطريق من الساحل إلى المدينة المحاطة بالحواجز وقبل مرتفعات القسطل عند دير اللطرون، يتشعب من الشارع طريق ترابي يقودك إلى بلدة صغيرة لم نجدها على خارطة البلاد، ولا على خارطة الوطن ولا على خارطة الكيان ولا في أي تعبير التفافي آخر حول النطق باسم دولة الحاجز. ويعتاش سكان البلدة القلائل على زوار ضريح اليساري المجهول الذي اقيم في منتصف الطريق بين مدينة الساحل التي لا تتوقف عن الحياة، كما تعرف ذاتها بالعبرية، وبين المدينة المتوقفة. ومن ضمن التذكاريات التي تباع هناك، كراس ملون يتضمن الحوار الطويل التالي بين يساريين معروفين للزوار كما يبدو من ملاحظاتهم حولهما: انهما س و ص. على الغلاف نشرت صورة معروفة لهما في شقة ستوديو مطلة على البحر المتوسط يتكئان على الفراغ المطل على البحر، ووجههما نحو الغرب، نحو البحر. وظهرهما للشرق من حيث التقطت الكاميرا الصورة:

س: تعال نشارك بالمظاهرة ضد الحاجز!

ص: ولماذا اتظاهر ضده هناك، وانا اعاني منه هنا؟

س: لم افهم ، كيف تعاني منه هنا في تل ابيب؟

ص: لدي حاجز داخلي، منع تجول داخلي، حصار داخلي، إغلاق داخلي يعذبني.

س: لم افهم، عندك امساك من نوع ما؟ اعرف طبيبا جيدا يختص بالطب البديل، ما رايك أن...؟

ص: لماذا تسخر مني؟ الم تعتبر هذه المقولة جزءا من الفهم الذاتي لليسار؟

س: وانت تتصرف، كما تعتقد أن على اليسار أن يتصرف، كأن اليسارية عرف وعادة و مسألة هوية أو ثقافة ثانوية، حضارة صغيرة، نعيش في داخلها ضمن المجتمع، يعني على اليساري أن يفكر: «أن شعبا يضطهد شعبا آخر لا يستطيع بنفسه أن يكون شعبا حرا»، وسيادتك تقول بموجب ذلك أن شعبا يحجز شعبا آخر بالحواجز انما يستبطن حاجزا داخليا.

ص: اه، وما الخطأ الكامن في هذه الجملة؟ هل الموضة الآن هي السخرية من الجمل المفروغ منها باعتبارها كليشيهات.

س: لا خطأ اطلاقا، هذه جملة سليمة. إنه الحاجز القائم أمام تحرر المجتمع المضطهد المحتل ذاته.

ص: اذا ما المشكلة؟

س: المشكلة انك حولتها إلى قضية سيكولوجية فردية، يشفق بموجبها ابن الشعب المضطهد على نفسه، لانه يعاني شخصيا، كونه ابن ذلك الشعب، من حاجز داخلي. أو كما كان يقال نطلق النار ونبكي لأننا نطلق النار، أو كما قالت الزعيمة التي خلدتها انغريد بيرغمان، اننا لن نغفر للعرب لأنهم يضطرون أولادنا أن يطلقوا النار عليهم.

ص: هذا تبرير اخلاقي، قيمة فائضة اخلاقية، تظاهر شرير بالوداعة، فذلكة تميز حالة ام بولونية من المعاناة والشكوى بأي ثمن. ولكن ما الخطأ في المعاناة الفردية من انك جزء من الشعب المحتل؟ المعاناة الشخصية قائمة عند أصحاب الضمائر.

س: لا انكر ذلك. انها قائمة في ألف سياق ومجال كما هو الحال عند كل البشر. ولكنني أعترف بوجودها الفردي لدى ابن الشعب المضطهد، بحكم تعريفه هذا، إذا كانت قائمة كرفض لاحتمال الظلم أو التسامح معه، وبالتالي كمحرك للتضامن

مع المظلومين. أما أنت فقد حولتها إلى معاناة شخصية كأنك أنت المظلوم ولم يبق سوى أن يتضامن معك الشعب الواقع تحت الاحتلال.

ص: ولكنني أشعر فعلا أنني مظلوم من قبل نفس السياسة التي تضع الحواجز بيننا وبينهم.

س: ولكنك لست أنت المستهدف به، المعركة تبقى ضد الحاجز وليس ضد حاجزك الداخلي.

ص: بهذا المنطق الذي ينتقد كل دافع داخلي واذا انضممت اليك وذهبت معك للاحتجاج والتظاهر، سيكون هناك من يقول انني ذهبت لانقي ضميري، وان هنالك رغبة لدى بعض اليساريين من دولة أصحاب الحاجز للاصطدام مع الجيش لتنقية الضمير وللشعور بالراحة عند الاحتكاك الجسدي مع المظلومين، خصوصاً وأنهم يعلمون أن جيشهم لن يطلق النار عليهم، ستقول أنت نفسك أن المحرك في هذه الحالة هو دوافع سيكولوجية فردية.

س: سأقول ذلك في المحادثة الفردية وبيني وبين نفسي عندما ارى الافراد ودوافعهم، ولكن لا بأس من الاحتجاج واثارة الموضوع، إنه افضل من البقاء في البيت مع حاجزك الداخلي.

ص: لماذا تتغاضى عن الدوافع السيكولوجية الفردية هناك أمام الحاجز كدافع للعمل ولا تتسامح معها هنا كمحبط عن أي عمل؟

س: لانها هناك تتحول إلى سياسة، إلى ممارسة.

ص: ولكن إذا كانت هذه هي الدوافع فلا ضمان ألا تتحول إلى سياسة شخصية تشمل أيضاً استعراضية وحب الظهور والعلاقة الشخصية مع القيادات هناك في بلاد ما بعد الحواجز، ونوع من طلب الاعتراف منهم بأنني ممتاز وعظيم وأخلاقي، ومن الضروري أن يميز الناس بيني وبين دولتي دولة الحاجز، وانه

يوجد لدينا ناس اخيار. ولا يخلو الأمر من دوافع فردية. ألا تذكر أنك حدثتني عن تلك المرأة اليسارية التي تزوجت من مسؤول أوروبي كبير، ولم تستطع أن تجلس بهدوء، ربما أنبها ضميرها على الزواج من رجل محافظ يمثل كل ما وقفت ضده في حياتها، ففكرت ما هو أسرع وأفضل طريق للبروز؟ فكان موضوع فلسطين، لأنه الأنجع لإثارة الضجة في كل دولة، خاصة في أوروبا لتشابكه مع مسألة الهوية والآخر والأقليات والذاكرة لدى تلك الشعوب. وها هي السيدة قد عادت إلى الأضواء متجاوزة ظل زوجها من دون أن تساهم في الواقع أية مساهمة في دفع القضية التي تتحدث عنها سياسيا إلى الأمام. وزوجها المحافظ على صمته يظهر ليبرالياً إذ يتحمل سلوك زوجته، مثل مدير شركة احتكارية كبرى تتصرف زوجته تصرفات غريبة وهذا جزء من جاذبيتها للرجال المديرين الذين يبحثون عن إثارة بعد العمل، وهو أيضاً دليل على تسامح رأس المال الكبير وشطارته في مرحلة ما بعد الحداثة، أو ما بعد الصناعة، أو ما بعد 1968، أو ما بعد فيتنام. أي باختصار، بعد أن انتقلت الجميلات اللاتي تظاهرن ضد الحرب معنا، إلى الزواج من رأسماليين أغنياء كما يليق بالمرأة الجميلة. وسوف تستقبلها قيادة شعب الحواجز وسوف تتصور معها، وهم سيتبادلون الابتسامات والملاحظات عن التغيير الكبير الذي طرأ على الرأي العام لصالحهم، وحول أهمية هذه المرأة، ولسبب ما يعتقد بعضهم أنه سيبدو حضاريا إذا تصور مع حضرتها، وينتهي الموضوع. . . . لا لم ينته، إذ سوف تضع الصورة في بيتها هي على المدفأة أو على منضدة عند باب الصالون قبل الخروج إلى الكوريدور لمواصلة استفزاز أصدقاء زوجها عند نقطة المغادرة قبل خروجهم من البيت، ولتكون موضوع حديث بينهم وبين زوجاتهم في السيارة في طريقهم إلى

البيت، ومن يدري ربما في غرفة النوم أيضاً. ولتفرح هي انها لم تقبل في هذه الأوساط إلا كمخلوق غريب وليس كانسانة عادية من هذه الطبقة.

س: حسنا أنت تعهّر كل شيء لكي تبرر عدم القيام بشيء.

ص: لماذا تستحوذ دوافعي عليك، هل ما قلته صحيح أم لا؟

س: لا أدري، ربما، ولكن لماذا تستحوذ عليك دوافعها؟ لست مهتما اذا كان ما قلته عن دوافعها صحيح ام لا، المهم من هذه الناحية أن خروجها لصالح هذه القضية ساهم في تعميق الوعي بها على مستوى الراي العام.

ص: بها، تقصد بالسيدة.

س: لا، أقصد بالقضية.

ص: بالقضية أم بعدالة هذه القضية؟

س: حسناً، أنا أفترض أن التعريف بالقضية مفيد للتعرف إلى عدالتها، وسوف تقول لي ليس بالضرورة، اذا سأختصر النقاش وأقول بعدالتها؟

ص: أشك بذلك.

س: هل ستشكك أنت أيضاً بأهمية الراي العام في العالم، أقصد في الغرب، وتأثيره على عملية صنع القرار لدى دولة أصحاب الحاجز، دولتنا؟

ص: لا أشك بأهمية الرأي العام إطلاقاً، فلست عدمياً مع أنكم تظنون ذلك أنت وبقية الزملاء من الجامعة، بل أشك في ما إذا احتوت كل مشهدية واستعراضية على تأثير.

س: لا يوجد في عصرنا سياسة من دون إعلام ولا يوجد إعلام من دون مشهد استعراضي.

ص: وهذا يصعّب ولا يسهّل في حالة أولئك من بلاد الحواجز الذين حجزتهم دولتنا.

س: كيف يصعّب؟ أنت تريد تصعيب كل شيء لأنك تريد أن تجلس في البيت.

ص: صدقني إن ازدياد اهتمام العالم بهم يعقد وضعهم أكثر مما يساهم في حله.

س: كيف؟

ص: مجرد أن نقول «حل»، هل هنالك قضية احتلال أخرى تحدثنا فيها عن عقدة وحل ما عدا هنا؟ كأن هنالك حالة مستعصية تحتاج إلى حل. وقد اعتدنا أن نسخر من المستفيدين من «صناعة القضية» و«الحل» من أصحابها الذين يلتقيهم بعضنا في مؤتمرات خارج البلاد، ولكني أبلغك احتفاليا أن عند المتضامنين هنالك أيضاً مستفيدين كما عند المتضامن معهم. هل تريد أمثلة اضافية من عندنا - بما في ذلك محبو صورة الأخلاقي المثابر في الإعلام؟

س: حسناً، ولكنك لم تقل لي لماذا الاهتمام الاعلامي ولنقل بالسيدة المتضامنة باعتبارها هي الخبر، وهي الحدث، يعقّد بدل أن يساهم بالحل، ولنستخدم كلمة حل، فكلنا يتحدث هكذا مع أننا لم نتحدث عن «الحل» بل عن التحرير عندما تعلق الامر بشعوب أخرى.

ص: لأنها اختارت الموضوع كموضوع للاستفزاز، ولا تقل لي أن الدافع هنا غير مهم. وظهورها الإعلامي يصَعِّب لأنه يؤكد على قدرة هذه القضية على إغضاب الناس وليس على استمالتهم، انها تؤكد على غرابة الموضوع وليس على إمكانية تفهمه. إنه موضوع صالح للتظاهر بالغرابة بالتمرد بالاستثناء، خلافاً للتعاطف مع قضايا أخرى تقع أيضاً جنوب تلك البلاد. وهو يغضب بالضبط لأن له علاقة بالهوية، هوية المتضامنين وهوية شعوبهم لا هوية المتضامن معهم. من يحمله تظاهرياً يؤكد أنه تحرر من عقدها، ومن يعارضه من الناس الذين يتضامنون عادة مع المظلومين في العالم يؤكد أن لديه تأنيب ضمير تجاهنا نحن أصحاب الحاجز، واننا ضحايا مثلما ضحايانا ضحايا، ولذلك من الخطأ الانحياز إلى طرف

ضد آخر، وان الطريق هو الحوار بين الطرفين وتشجيعه وليس الاحتجاج على ما تقوم به دولتنا. ويبقى ذلك الشعب خلف الحواجز ضحية نقاش على الهوية بين الناس الذين يتضامنون عادة مع أمثال ضحايانا في العالم دون نقاش على هويتهم هم. والمهم أن زوج السيدة الصامت هو في الواقع موضوعيا مع الحاجز ولو كان مكان دولتنا لتصرف مثلها، في حين أن قضية ضحايا الحاجز هي مسرح ليس لحسمها هي بل لحسم مسألة هوية المتضامنين معهم.

س: يأستني! فعلا أشعر بالقنوط. ولكن نحن، أنا وانت، لا نعيش ونتناقش ونحتج في هذا السياق. نحن متحررون من عقدة التضامن مع أنفسنا، أقصد الشفقة الذاتية، فنحن نحن، ولا حاجة لذلك.

ص: أضحكتني! ومن الذي يحتكر دور الضحية؟ احتكار دور الضحية هو ايديولوجية رسمية عند أصحاب الحواجز الذين ننتمي إليهم، وانتماؤنا هذا هو المبرر الوحيد لعملنا في أوساطهم ضد سياستهم، ومن دونه كنا هاجرنا من زمان. بيننا من هم أوباش يعشقون دور صاحب الحاجز، ولكن بيننا يعيش أيضاً متوبشنون، يعتقدون اننا ضحايا، وان الحاجز ضرورة للدفاع عن النفس. هل تريدني أن اعدد لك مواقف من يرون اننا حركة تحرر فهمت خطأ من قبل السكان الأصليين على أنها مشروع استعماري؟ وهي غاضبة لأنها أتتهم بالشورت والعلم الأحمر مندهشة من رفض الفلاحين لها بدلا من رفض قيادتهم الرجعية ومندهشة من تحالف الفلاحين مع اقطاعهم ضدها كوافد غريب بدل التحالف معها ضد اقطاعهم. ام تريدني أن أعدد لك كيف فهمنا في الماضي كل تطور عندهم كأنه تهديد لوجودنا والآن أصبحنا نفهم كل صلاة لديهم على أنها مؤامرة علينا، وانهم عندما يتزوجون وينجبون أطفالا إنما يتآمرون علينا ديموغرافيا؟

س: ولكن أنا وانت لسنا منهم. أنا أقصد أنا وانت منهم خلافا للمتضامنين من بلاد أخرى، ولكننا منهم وضدهم هنا... لا تضيعني مرة أخرى!!

ص: أرأيت بعد أن سخرت مني، وأصبت بالثقة الزائدة بالنفس، أنت الآن تستعطفني لكي لا أضيعك.

س: لا تصبْ بالغرور. فأنا أريد الذهاب إلى المظاهرة فوراً، وأنت وكثرة كلامك وتنظيراتك العدمية حول ما بعد الحداثة وضياع دور الذات في الموضوع لستم إلا موضوع سخرية وتنكيت ولا أريد أن ازعجك بما يرويه الأصدقاء عنك، ولكنني صبرت عليك لانه حتى المجانين عندما تنهار عندهم الحواجز، وربما بسبب من ذلك تتحرر التداعيات تماماً، ويقولون هنا وهناك جملاً فيها حكمة نظرية كما جرى لك الآن، ولكنها حكمة نظرية ممن أطلق لنفسه العنان فجادت ضمن الترهات والتخريف بشذرات من جمل حكيمة.

ص: أنت تريد حكماً عملية إذاً؟

س: في هذه الحالة معك حق أن تسخر من حاجزي النفسي ومن شخصنة معاناة الشعب المضطهِد من آثار اضطهاده، وفعلا كانت ملاحظاتي عن الحاجز الداخلي مثير للسخرية أتذكرها ويحمر وجهي.

ص: لا أرى أي احمرار، ولكن على أية حال، ما هذا الاعتراف العظيم؟ ما هذا التواضع الفخم؟ ولكن نقدي لدوافع الذهاب إلى هناك والتظاهر ضد الحاجز هناك محق أيضاً.

س: . . .

ص: لا تتعجل، دعني أكمل... ولكن الحكمة العملية تقول إنه طالما لم يكن الحاجز داخليا فرديا سيكولوجيا، وانما هو حاجز أمام تطور المجتمع المضطهِد نفسه فهذا يعني أن مهمة التضامن مع المظلومين تكون على مستوى العمل في أوساط الشعب المضطهِد، لا في البيت ولا على الحاجز هناك.

س: ولكن الذهاب إلى هناك قد يكون ذا فائدة عملية، لناس عينيين.

ص: أنت تحول العمل السياسي اليساري الذي عرفناه إلى صليب أحمر وجمعيات إغاثة.

س: وما السيئ في ذلك؟ لماذا لديك تصور أن اليسار هو هوية يترتب عليها أن تتصرف هكذا وليس هكذا، وكأن أدوات العمل هي جزء من الهوية اليسارية التي تتحدث عنها؟

ص: لم أقل شيئا. ولكن أيها العملي، المهمة السياسية وليس الإغاثة الإنسانية هي التي تبقى أساس العمل السياسي، وتتشعب عنها مهمات إنسانية عبر الحاجة إليها وليس عبر نفسية الأفراد أي حاجتهم إليها لغسل الضمائر والأيدي والعودة ممزقي الثياب من المدافعة المؤقتة مع الجنود الذين يبقون في النهاية مع الناس هناك على الحاجز، نفس الناس الذين حولتموهم إلى متفرجين على مدافعاتكم مع الجنود هذه المدافعة التي لا يقوون عليها لأن النار تطلق عليهم فورا. هذه ليست توجهات عملية ولا ممارسة، هذه لعبة أمام الكاميرات.

س: وأنا اعتقدت أنني مناضل، في حين تنظّر أنت للجلوس في البيت.

ص: أنا فعلا أجلس في البيت. وانت قدمت لزيارتي، وقد ورثت هذه الشقة من أبي الذي اشتراها لي أثناء دراستنا الجامعية... وقد سخرتم جميعا مني في حينه إلى أن تبيّن أنكم جميعا أصحاب شقق من أيام الدراسة، ولكنكم خجلتم من البوح بذلك، مثلما رفضتم زيارة الأهل في الفصح وقراءة الأسطورة معا حول الطاولة العائلية، واعتبرتم هذا الرفض رمز التمرد مثل تخريب عشاء الـ«ثانكس جيفنج» في كل فيلم هوليوودي. لا أذكر عشاء واحدا في فيلم لا ينتهي بمشادة عائلية.

س: صحيح، لماذا أسمعك أصلاً؟ كل ما قلته أنا منذ البداية صحيح، وكل ما قلته أنت خطأ ما دام قد قادك للجلوس في البيت. المهم هو النتيجة.

ص: وهل هذه هي الحكمة العملية؟

س: نعم.

ص: ما قلته أنا صحيح، ولا تحكم عليه من سلوكي. فسلوكي غير نابع ولم أستنتجه منطقيا مما قلته. هذان أمران مختلفان. سلوكي نابع من الخوف، لأن المهمة التي أطرحها تحتاج إلى شجاعة غير متوفرة لدي. مهمتك التظاهر أمام الحاجز في نهايات الأسبوع أو أكثر من ذلك تتوقف على الالتزام والتضحية بنهاية أسبوع، والعودة إلى البيت. المهمة التي أطرحها هي هنا في الحي، بين جيران العمارة الذين أرسلوا أولادهم إلى هناك جنوداً، وفي الشارع الرئيسي، وفي مكان العمل وبدون معجبين متفرجين على المدافعة بيننا وبين الجنود أمام الحاجز من أبناء الشعب المحجوز. وهي مهمة لا تنتهي بعد ساعة محددة، ولا تستطيع العودة منها إلى البيت. وبصراحة استطيع أن ابدأ، ولكني غير متأكد من توفر الشجاعة الكافية لدي للاستمرار.

س: فهمت. ما رأيك الآن: ستذهب أم لا؟

- وبهذا السؤال ينتهي الكراس؟

- لا أذكر، هذا ما أذكره.

- هذا الكراس وين بلاقوه؟ بدي أشوفه

- ما بعرف.

مكتبة
t.me/t_pdf

[23]

طبيعي هذا هيك؟

المصيبة الكبرى في ظل الحاجز هي المرض، والصحة أهم شيء فعلاً. «ما في أهم من الصحة». ومرض الأطفال مصيبة بشكل خاص، لأن العجز وخَوار القوى الذي يرافقه مضاعف تجاه الذات وتجاه الآخر. الأهل عاجزون عن مساعدة ذاتهم ومساعدة أطفالهم العاجزين. ويضيف الحاجز عجزاً عن المحاولة ومنع التجول منعاً عنها مجبولاً بالغضب. والمرض المزمن أصعب من المرض المفاجئ لأنه مرتبط بعادة المساعدة وتكريس الذات. ومن يعرف أهلا لأبناء مرضى بأمراض مزمنة يعرف العبودية للأمومة والاستسلام للأبوة بدون شروط، الحاجبين المتدنيين المتعودين على الالتفاف على العوائق الحياتية باستدرار التفهم وبالاستعطاف. لأن هنالك دائما قضية أهم تشغلهم عن اعتبارات الكرامة والايجو (الأنا) فإنهم يخضعون لها كل شيء بما في ذلك الكرامة الذاتية من أجل الطفل. كل شيء، كل موضوع، كل نقاش يجب أن ينتهي بسرعة ولو بالمسايرة والاستعطاف للوصول إلى الموضوع: المال اللازم، الهيئات المساعدة، التأمين الطبي، وسيلة السفر إلى المستشفى، العلاج الروتيني، نوع الدواء الذي يجب أن يتوفر في البيت. من يعرفهم يعرف معرفتهم للتفاصيل عن صحة الطفل وأسماء الأطباء وأنواع الأدوية التي يكررونها عند الإجابة عن الأسئلة الدائمة الموجهة لهم حول صحة الطفل والتي تحكم علاقاتهم الاجتماعية المجبولة بتقدير وشفقة الآخرين وهزة الرأس المتأملة بعد أن يديروا ظهورهم.

يأتيك الحاجز وسط هذا كله فيكسر روتين معيشة الأهل المعاقة، يكسر روتين عبوديتهم واستسلامهم للطفل، يعطل نفوسهم المتعكزة على الروتين. وإذا لم يتوفر العلاج في البلد المحاصر، ناهيك عن التأمين الطبي، يصبح ارتفاع حرارة الطفل موضوع الفزع العاجز وعندما يغيب يحل مكانه الفزع من حلوله. عندما ينسحب الخوف مع انسحاب الحرارة بعد تغيير الدم مثلاً، يحل فورا محله الخوف من الخوف، فوبوفوبيا.

لم يعد بإمكانها أن تفعل شيئاً، أي شيء. يجب أن تجتاز الحاجز يوميا من أجل العمل في بيوت الناس لأن زوجها يرفض العمل على حد قولها، ويمنن عليها، «محملها جميلة»، لانه يسمح لها أصلاً بإعالته لأنها لم تلد له سوى بنات ومنهن أجملهنّ وَجْد المريضة. مسؤوليتها الكاملة إعالتهن وإعالتها. ولكن الحاجز عطل كل شيء لأنها مضطرة لاجتيازه نحو المدينة من دون إذن وضمن عملية استعطاف يومي للجنود ومن دون أي رغبة بأي مواجهة وبقرار مسبق لتمرير أية اهانة ومن دون ملاحظة. ليس لديها وقت للكرامة الشخصية، ووطنيتها الوحيدة التي تعرفها هي الوصول إلى الموضوع، إلى وسائل إعالتهن، بل وتمرر الإهانة مع ابتسامة أصبحت ترافقها في البيوت. وأصحاب البيوت يستحقون الابتسامة بنظرها أكثر من الجنود لأنهم على الاقل يعيلونها ويتعاطفون مع أخبار ابنتها، ويجمعون الملابس والتبرعات من أجلها، ومؤخراً من أجل جيرانها أيضاً. ولكنها لا تستطيع أن تعبر الحاجز مرتين في اليوم مرة للعلاج ومرة للعمل انها مضطرة للتوقف عن العمل أيام العلاج. وعندما لا ينفع الاستعطاف مع الجندي أو الجندية ولا تنفع الابتسامة من أجل وجد فإنها لا تتوقف عن الابتسام غضبا بل ترجع متظاهرة بالعودة لتتبع طريقا التفافية بين ساحات البيوت لا تتبعها النساء غالبا ولا حتى بسروال لأنها تتضمن تسلق عدة أسوار في الطريق وتجاوز نظرات الناس المستغربة. ليس لديها وقت للسياسة أو للنضال من أجل أحد. إنها مستهلكة بالكامل. ولكنها تبحث في التلفزيون عن مسلسل مبك وعن الأخبار التي تتبعها شهقة وإمكانية للتنفيس بذرف الدموع على مصائب الآخرين علها تقلل من حصة مصيبتها من كمية الدموع اليومية الثابتة:

- هيه، يا حرام. شو هدا حرام هيك. حرام امهم.
- شفتي صاحبة البيت المهدوم يا حرام
- هيهم قتلوا ثلاثة اليوم، تعالي تعالي وشوفو شو عملو بجنين، إيه إيه إيه يا حرام يا حرام.

وتبدو هذه الشهقات صادقة أكثر بكثير من كلام السياسيين في التلفزيون الذي تكثر من مشاهدته مع أطفال الناس الذين ترعاهم. وأطفالها ينتظرونها في البيت تهتم بهن أكبرهن. تتضمن الشهقة المتجاوبة مع الصور المبثوثة مواساة للذات بمصائب الآخرين المفاجئة الغادرة المغادرة إزاء المصيبة المقيمة عندها لا تغادرها، نصيبها هي. نصيبها في الحياة أن تكون هذه مجرد صراع بقاء تخضع له كل المعاني. لا يوجد هنا صراع من أجل المعنى، أي معنى سوى الحياة ذاتها، حياة معاقة لأم متضمنة لحياة الطفل المريض. كل الأمهات أمهات ولكن ام الطفل المصاب بمرض مزمن هي ام أكثر. ولأنها أم أكثر فإن صفاتها الأخرى، غير المهمة، أقلّ. وأمومتها تجعل الحاجز حاجزا آخر من حواجز الحياة لا يحمل معنى سياسيا خاصا. ولذلك فإن اهتمامها بالسياسيين لحظي تلفزيوني أي أثناء ظهورهم على الشاشة.

- ما فهمت، بتصدقهم ام لا ؟
- لا اعتقد انها مهتمة أن تصدقهم أم لا تصدقهم، لا تفكر بالموضوع.
- يعني عمليا بتصدقهم.
- لا، بتعرف معك حق، يعني بتصدقهم طالما ما بتفكر بالموضوع، واذا بتفكر فيه عندها ميل انها ما تصدق.
- حكيت معها عالموضوع؟
- لا بس حكيت معها عن ديانا.
- اي ديانا؟ شو ديانا؟
- الاميرة ديانا.
- شو؟ ليش؟ من امتى بهمك هالموضوع؟ شو صابك يا رجل آخر فترة منحكيك بالغرب بتجاوب بالشرق؟

- والله حكيت معها عن الاميرة ديانا. ما بمزح معك. شفتها بتتفرج بالتلفزيون على صور جنازتها الاستعراضية اللي قعَّدت الناس عندنا في بيوتها منع تجول، في الذكرى الثانية، وحالتها بالويل جاي لاقّه ألف لفة عن الحاجز. ما بتتذكر كيف بعض أصدقائنا وصديقاتنا برروا قعدتهم في البيت يوم الجنازة بمشاهدة ومراقبة خلق اسطورة كأنهم باحثين في عملية صناعة الاسطورة. وتبين إنه بعضهم فعلا معجب بهالأساطير مش عن بحث وحب إستطلاع، عن اعجاب. وبعضهم اعتبرها ضيق أفق منا اننا انتقدناه، وانه الواحد لازم يكون عنده اهتمام بما يشغل الجماهير، وبوست مودرنيزم، وانها هاي الست عبارة عن استراتيجية نقدية لتفريغ نظام الملكة من محتواه وانسنته، على اساس يظهر قريب من الشعب؟ مالك صافن فيي؟ شو ما بتذكر؟ ما بتذكر النقاش عن مادونا انها بتحرر المرأة بالضبط لانها بتتبنى نظرة الرجال للمرأة وبتخلي غرائزهم تستعبدهم، بتقلبها ضدهم، وبتقلب دونيتها لسلاح في مواجهة تعاليهم وفوقيتهم، يعني بتحاربهم من تحت بكل المعاني؟ مش متذكر هالحكي الفاضي؟
- لا صافن معجب بقدرتك على إنك تنرفز حالك من أشياء صارت قبل سنتين والكل اليوم مستسخف حاله إنه حكى هالحكي. بعدين الدنيا وين وانت وين؟
- أولا مش صحيح إنه الكل مستسخف حاله بس في أوهام مناوبة اخرى، وثانيا ما هو التاريخ البشري سلسلة أعمال حمقاء بستسخفها فاعلوها ولكن بعد فوات الأوان.
- وفي بموتو قبل ما يلحقوا يستسخفوها وبورتوها لغيرهم وبتعصبلها.
- ايوا معك حق. بعدين كيف الدنيا وين وانا وين؟ هاي بريطانيا كلها مشغولة بأثر تراجعي بخيانات الست وانحرافاتها، أو انحرافات خادمها كاتب المذكرات، اذا تبين إنه كلامه كذب وبفنطز. يا سيدي مستحوذ عليهم موضع البصبصة اللي فتحلهم

اياه الخادم بكتاب من ثقب الباب والمجتمع كله واقف بالدور بدو يبص، منهبل. بكفي إنه مجتمع معجب بخادم بعقلية خادم مخلص، بتلر. ما سمعت عن مذكرات الخادم اللي كان بالليل يجبلها عشيقها عالقصر بباغاج السيارة؟ ومرة يا سيدي حسب مذكراته اخذها عند عشيقها الطبيب الباكستاني بمعطف فرو ما في تحته شي غير حضرتها. مرة صورة مع الام تيريزا في الهند، ومرة مع معطف فرو من دون شي تحته. لَيْكون صورتها مع الام تيريزا كمان بمعطف ما في شي تحته؟ وخد خيالات منحرفة عند امة رايحة على حرب ضد بلد عربي، الكل مشغول بفيلم البورنوغرافيا الملكي. ليكون كل مرة بجيبولنا عاشق من عندنا من هون من الشرق قبل كل حرب تيراضونا إنه هيك لندن مع ذلك مربط خيولنا!

- لا ما قريت عنه.
- الحمد لله، يعني موجة ديانا التانية ما وصلتنا. على كلٍّ شفتها بتتفرج عالتلفزيون اعادة للجنازة المسخرة، بارروديا، مع صوت السير ايلتون جون بميلودرامية مرضية، هاي زي الفريق محمد عبد الوهاب، بمناسبة الذكرى الثانية. . . .
- على مهلك، ما فهمت شو يعني اميرة عاهرة؟ مش عيب هالحكي؟ ما فهمت يعني قبل ما تيجي ما كان قصص خيانة في القصور؟ هي اهميتها انها كشفتهم وكشفت زيفهم.
- آه اعملي اياها ثورية! هذا كان هدفها من الأول، تزوجت بخطة ثورية لفضح القصور الملكية؟ إيه هي الزيف بحاله لانها هي تقليد وتقليد للتقليد. لا، كان في خيانات قبلها. وكتب عنها شكسبير قبل ما تخلق حضرتها لما كان جدودها ممنوع ينظروا بإتجاه الملوك. وهاي المشكلة، مش الخيانات. الفرق بين شكسبير ومذكرات الخادم والصحف اللي بتروجها.
- هذا هو الفرق؟
- ايوه هذا هو. ولا مرة كان القصر رمز الاخلاق وكان دايما في

نقاد مفكرين وغيرهم ضد القصر ويكشفون فضائحه، بس الحالة اللي منحكي عنها هي حالة استعراض رخيص وجماهيري لاستهلاك الخيانة، بيعها كبضاعة للناس. عاهرة وصارت اميرة. يعني اعطاء الحق لـ«ابنة الجماهير»، ابنة نصابين في الواقع، أن تصل إلى درجة الخيانة في القصر، يعني خيانة مثل كل الخيانات بس في القصر، أن تصل إلى درجة الخيانة الملكية، أن تشارك بالسر والفرصة للجماهير أن تشاهد لأنه ما عاد في سر. وهذا هو.

- شو؟ يبدو صاير محافظ ضد الاختلاط بين الطبقات!
- ايه المحافظة أفضل من الاستعراض الكامن في التقليد الكامن بالاختلاط بين الطبقات مع الحفاظ عليها.. وجماليا لا شك إنه المحافظة أرقى من الرخص، ومن ظواهر تبدو تعبيراً عن اختلاط الطبقات ولكنها تكريس الفروق الطبقية بتقليد الطبقة الواحدة للاخرى أو بواسطة عملية البصبصة المنحرفة. أنا ضد الفوارق الطبقية ولكن أيضاً ضد التظاهر بازالتها عبر إنه يوهموا النساء كلهن أن الطريق لتصبح أميرة هي الزواج من أمير، واللي ما بتقدر بتكتفي بالتمتع بالتفرج على اللي قدرت والاعجاب بمواهبها اللي أهّلتها وأهّلتها لتضحك عليهم كمان.
- وكل هالحكي قلتلها اياه لما شفتها بتتفرج عالتلفزيون مع الأولاد باهتمام؟ ما في وصاية بهالطريقة؟
- لا أنا بحكي معك. أصلاً عيب احكي معها هيك المفروض ما اتدخل، يعني باختصار مش شغلي. بس يعني علقت على الجنازة مش عليها انها بتتفرج، وبصراحة كنت مفكر انها بالنسبة للي مثلها يعني هيك سندريلا مثلاً.
- هي هيك بالنسبة للفقراء.
- لا مش هيك، سندريلا اسطورة.
- ايه وهاي اسطورة.
- لا مش أسطورة، هاي حقيقة تفصيلية من أبسط نوع، هاي اللي

سماها الفيلسوف الوقائع الدنيا مقابل الحقائق السامية، واقعة عارية بمعطف فرو وخادم وعشيق يهرب في باغاج سيارة. كيف اسطورة؟ واقعة أنا متأكد إنه فيها ناس أغبياء وطماعين، وغرائز السلطة والتقرب منها، وناس لهم رائحة ويأكلون ويعرقون ويبدون بشكل مختلف عن صورتهم في التلفزيون عند الاستيقاظ. واقعة أخطر ما فيها انها قابلة للأسطرة والبيع والاستهلاك.

- ايه، طيب، المهم طلعت بالنسبة الها ساندريلا اللي دخلت بيت الامير ومتعاطفة معها؟
- لا، أنا استغربت. بتتفرج بلا ما تفكر بالموضوع بتاتا. يعني هيك الناس بتحكي عن الموضوع وبتتفرج وهي بتتفرج زي هالناس. يعني الفرجة بتنتج المتفرجين والحكي بنتج المستمعين، والتلفزيون بنتج المشاهدين، وشي هيك بلا معنى إلا الفرجة ذاتها، لا بتفكر بسندريلا ولا غيرها.
- يعني هيك بكل طبيعية.
- طبيعي هدا هيك؟
- والله أنا شايْفُه طبيعي من وصفك أنت.
- مش عارف شو اقلك؟ على كل حال بدنا شوية تبرعات للبنت، بنتها، بدنا نلاقي طريقة نعملها عملية، وما في هون. أنت عارف بعد كل هالسنين ما عندنا مستشفى زي الناس. هدول اللي عندنا هم ونسوانهم زباين اخبار ديانا. حكمونا قبل الحاجز ثمان سنين سمان وما بنوا مستشفى واحد زي البشر، وهلأ بعد الحاجز ما عاد في امل. على كل حال هاي هي ونسوانهم بتفرجوا على ديانا في عملية ازالة للفروق الطبقية، بس هم بعالجوا ولادهم في بلاد برا واحنا نجمعلها تبرعات.
- إيه منتبرع لهيك شي ولو! بس والله كثير بتبالغ وبتخلط قصص ببعضها. شوي شوي على حالك مش عشان شي عشان صحتك، إذا أنت مرضت مين بدو يجمعلك تبرعات؟

[24]

مطار

تجسدت الحداثة في تفاصيل عمارة مطار ميونيخ، من كراسي الانتظار والاسترخاء وحتى نقاط الاضاءة مثل النجوم التي تحوّل السقف إلى سماء في بداية العودة إلى الحداثة وأفول البوستموديرنزم، الحديد والنيكل والزجاج عناصر باردة تشكل مركبات الجمال البسيط الوظيفي المتجه بك نحو الموضوع مباشرة. وعندما عممه اليابانيون كالعادة أوصلوه في مطاعم السوشي مثلاً، إلى بساطة متكلفة مزعجة تعتبر الفراغ هو القاعدة والخطوط المستقيمة أدوات لإيلام الظهر والمؤخرات عند الجلوس.

في داخل مطار ميونخ يختبئ مطار بلاد الحواجز، تيرمينال خاص بسكان بلاد الحاجز والمسافرين اليها... كما هو الحال في كافة المطارات. كان ذلك قبل أن تصبح كل المطارات مؤدية إلى بلاد الحواجز في مرحلة لاحقة من التاريخ، عممت فيه العولمة الحواجز وآلات الفحص الشعاعية كما عممت الرأسمالية الأولى البضاعة مزيلة الحواجز . ولكن في مطار ميونيخ لا يتجسد هذا التخصيص في تيرمينال عادي يقوم على حراسته حرس، وانما يقع حرفياً خارج المطار. فبعد مشي لا ينتهي وبعد الوقوف على عدة أحزمة متحركة تقلك من نقطة إلى اخرى يصل المسافر إلى حزام أخير متحرك. ولكن لدهشة من يقف على الحزام فإنه يقود إلى خارج البناية. والمسافر يجد نفسه فجأة مظللاً بمظلة زجاجية على حزام متحرك يسير داخل بيت من زجاج على مرعى أخضر خارج البناية التي دخلها، وهو يرى أبقاراً بافارية ترعى، إنه يمر بها وهي

ترمقه بغير اكتراث. إنه يرى أجراسها الكبيرة على أعناقها، ولكنه لا يسمع الجرس كأنه وصل بكاتم صوت، ثم يذكر أن البيت الزجاجي الذي يتحرك في داخله يجعل الطبيعة صماء ومنظره سوريالياً. في نهاية السبيل الزجاجي «هانجر» كبير تقف على جانبيه مدرعتان، وعلى المدخل شرطيون يستقبلون المسافرين بتأدب بالغ.

والتأدب في عرف تلك الديار مسافة يأخذها الشخص من الشخص لتسمح له بالتأدب - انها المسافة الأدبية المفقودة من مفهوم التأدب الحشري في بلاد الحواجز.

تمر الحقيبة اليدوية بفحص الأشعة، ثم يطلب من المسافر أن يقف منتظراً دوره لفحص الجواز - واضح أن بعد هذا الفحص هنالك فحص آخر ولكن لا يمكن رؤية ما يجري في نقطة الفحص والتفتيش القادمة من نقطة الوقوف - يتحرك الدور ببطء (بطيء ولكن أكيد، يقول الالمان للتأكيد على حتمية وقوع الشيء أو انجازه). وفجأة تظهر قاعة التفتيش الواسعة النظيفة المضاءة من كل جانب بضوء الشمس «في القاعة اربع طاولات طويلة يخدم عليها ثلاثة موظفون المان» ولسبب ما لم يستأجروا هنا رجال الأمن السابقين واللاحقين من بلاد الحواجز الذين أسسوا شركات تجارية تصّدر إلى العالم علم ومعارف وتجربة الحواجز مقابل العملة الصعبة - فالبضاعة الاكثر رواجاً والاثمن في عالمنا هي بضاعة المعرفة - وعلم الحواجز مصدره بلاد الحواجز. تحاول السلطات هنا أن تثبت كما يبدو باسلوبها أن لديها مدرستها الحاجزية الخاصة. ولكن غياب رجال الأمن من بلاد الحواجز يعني راحة للنفس من التأهب المتوتر لأسئلة مزعجة تفتش في نفس الانسان ومعارفه وأقاربه وأصدقائه وأسباب اختياره لمهنته مثلاً بدلاً من التفتيش في حاجياته. وغالباً ما تعكس الاسئلة رغبة رجل الأمن أن يظهر لضحيته خبرة في مهنته وليس رغبة بالمعرفة.

يطلب الموظفون الألمان من المسافر أن يجد حقيبته التي سلمها عند الوزن وظن أنه لن يراها حتى قاعة الاستقبال في بلده، ولكن ها هو يلتقيها مجدداً قبل السفر في هذه القاعة. عليه أن يشير إليها الآن، أن يتعرف إليها، ثم عليه أن يضع الحقيبة على الطاولة.

الموظفون يفتحون الحقيبة، وفجأة يرتدون قفازات بيضاء طويلة تغطي القميص حتى كوع اليد. ويبدأون بتفريغ كافة محتويات الحقيبة. واحد يفرغ المحتويات والثاني يفحصها يقلبها يفتحها يضغطها بين أصابعه ثم يضعها على الطاولة، ويعيدها الأول من جديد إلى الحقيبة محاولاً أن يرتبها كما كانت - الأغراض الصلبة أو المغلقة صعبة الفتح تفحص من جديد في آلة الأشعة ثم تعاد. ترتب الحاجات في الحقيبة تغلق وتوضع تحت الطاولة. يشار إلى المسافر أن عليه الآن أن يدخل إلى حجرات التفتيش الجسدي حيث تفتش أيضاً حقيبته التي يحملها إلى الطائرة. مرة أخرى يطلب من المسافر أن يضع حقيبته على طاولة صغيرة داخل الحجرة، ولكن هذه المرة يقوم هو بالتفريغ وإعادة الترتيب ويكتفي الموظف الموجود معه بفحص الحاجيات.

المسافرون من بلاد الحواجز لا يشعرون بأي ضيق ولا تنتابهم عصبية نفاذ الصبر، بالعكس تماماً يحس الانسان بمتعة غريبة عند انتظار دوره للتفتيش. انهم سعداء بأن الألمان قد فهموا أن عليهم أن يحتاطوا ضد الارهاب وان يجروا تفتيشاً دقيقاً، ولو كان ذلك تفتيشاً لهم. الألمان يتصرفون كأن هدفهم إرضاء المسافر الذين يفتشونه بالمزيد من التفتيش، إنه يشعر بالأمان كلما فتشوه أكثر. العالم كله أصبح بلاد الحواجز. من ناحية أخرى لا يستطيع العربي الواقف في الدور أن يدعي أن ثمة تمييزا - فالجميع يتفتش بنفس الأدب البادي. المسافرون من بلاد الحواجز راضون لأن العالم يشعر أخيراً انهم في خطر ويتصرف على هذا الأساس، انهم يُفصلون وحدهم ويُفتَّشون بدقة لأنهم في خطر.

بعد أن ينتهي التفتيش ويخرج المسافر إلى القاعة لانتظار الحافلة التي تقله إلى الطيارة يكتشف المسافر المفاجأة. لقد أعدوا لهم «ديوتي فري» مصغراً خاصاً بهم يبيع البضائع المطلوبة بشكل خاص لسكان بلاد الحواجز.

إنه تعويض عن ضياع وقت التسويق في التفتيش. هنالك من اهتم أن يعرف ماذا يشتري المسافرون من بلاد الحواجز في المطارات عادة.

[25]

طائرة

اعتاد المسافرون عندما تهبط الطائرة على ارض مطار تل ابيب أن يباشروا فوراً بالتصفيق حالما تلامس عجلات الطائرة أرض المطار في نوع من الوطنية إذا صح التعبير، شعور بالانتماء، فرحة بالعودة إلى الوطن، تهنئة بالسلامة. وعندما صفقوا انكمش هو بمقعده كأنهم ينشدون «هتكفا» على خرائب بلده، أو كما ينكمش الخجول من سماجة مبالغ فيها حتى لو كانت سماجة غيره، كأنه يخجل عنهم. يتذكر كيف يجعله مشهد مخزٍ في السينما أن يشيح بنظره عن الشاشة كأن الممثلين أبناء عمه وهو يخجل بهم أمام الغرباء. وقد انقرضت عادة التصفيق المرافق لملامسة العجلات ارض الميعاد مؤخراً. تلاشت، اضمحلت، لم يعد لها ذكر، اما لأن الناس قد اعتادت على الطيران أو لأنها لم تعد تفرح للعودة إلى ارض الوطن - ولكن اختفاء العادة لا يشكل مؤشرا أكيدا على هبوط بمعدلات الوطنية العامة.

تغيرت عادة التصفيق، وما لم يتغير هو عادة الوقوف فور وصول الطائرة ارض المطار ورغم التحذيرات المستمرة التي تطالب المسافرين بالجلوس.

وأصلاً يتجول المسافرون طيلة فترة الطيران بين المقاعد ويمارسون اختلاس النظر بل توجيهه بشكل مركز ووقح نحو هذا وذاك في نوع غريب من حب الاستطلاع المطل على الجالسين برأسه من الاعلى. ويتجمع المسافرون بين الحمامات وفي الممرات. لا احد يدري لماذا؟

يتداولون الانطباعات عن السياحة، أو عن السياسة المحلية، أو الاسعار في تلك البلد مقارنة باسعار بلدهم - والشيطان وحده يعلم لماذا لا يستطيعون الجلوس.

يجلسون قبل الهبوط كما أمروا، ولكن ما أن تلامس عجلات الطائرة أرض المطار حتى يقفوا من جديد كأن الاحزمة شدتهم إلى الكرسي بالقوة - وبعد المناشدة ثم توبيخ المضيفات المندفعات لإجلاس المسافرين ونهيهم عن الوقوف الذي يذكر باقتحام معلمة الابتدائية فوضى التلاميذ بين المقاعد بعد أن عيل صبرها من تأنيبهم من مكانها قرب اللوح يعودون إلى الجلوس.

ومهما حاول أن يحلل فهو لن يفهم لماذا يسترق احد المسافرين النظر نحو المضيفة، فإذا ادارت ظهرها يقفز ليتناول حقيبته من الاعلى ويضعها إلى جانبه ثم ينظر إلى المضيفة نظرة تلميذ يحاول أن يتصرف وكأنه لم يسرق قلم جاره في المقعد. غير مفهوم، غير واضح وغير مفهوم. هذا يعني أنه سيوفر ربع دقيقة من الوقت عندما يتاح لهم الوقوف دون أن يضطر لسحب حقيبته من الخزانة العلوية، ولكنه سيقف من جديد في الدور للخروج ثم في الباص ثم على الجوازات. فماذا يعني ذلك؟ لا يدري معنى لهذا السلوك سوى تحسين الموقع، هل هذا نوع من خلق الحقائق على الأرض بالمحاشرة مثل الاستيطان؟ لا يوجد تحليل لهذا الجهد المبذول. ربما كان مجرد عصبية، يعني عصابية، سمه ما شئت ولكن بالتأكيد لا يدل على هدوء.

- مش قاعدين مزبوط الجماعة، يعني بتروح على مصر بتحس بلد، دولة قاعدة مزبوط، مش زي هدول ما بنتموا لهالمنطقة.
- ايه صحيح. هو احنا قاعدين فعلا، لكن هدا تفسيرك للعصبية عندهم وللحالة القاعدة عندنا؟ ايه منيح، لكن هيهم واقفين عالحاجز، ما تقلي إنه هدا دليل عصبية مفرطة. هاي احنا القاعدين مننتظر الدور واحنا العصبيين. السؤال مش اذا قاعد واللا واقف، السؤال وين قاعد وعلى شو؟
- على فكرة من وين جاي انو «احنا اللي خايفين عليه قاعدين

عليه»؟

- يعني احنا مش ممكن نكون خايفين على الخازوق اللي قاعدين عليه. وبالتالي ما عندنا شيء نخسره، يعني مش فارق معنا وهادئين، غير عصبيين.
- هاي يعني زي «ليس لدى البروليتاريا ما تخسره سوى حقوقها لتربح بعدها عالما بأسره» ؟
- بالضبط.
- ايه، بس هاي طلعت حكي فاضي، أو كلام فارغ.
- ايه صحيح والآن صار الشعار بدل «يا عمال العالم اتحدوا»، «يا عمال العالم استروا على ما شفتوا منا». تبين إنه ما في حد ما عنده شي يخسره، ولا الشهيد ولا الاستشهادي. كل انسان عنده شيء يخسره. يمكن القدرة على الاحتمال والمخاطرة مرتبطة بقديش عنده أو ما عنده. بس شو وصَّلنا لهون، شو دخل هالحكي بالطيارة، كيف دخلتنا بهالموضوع؟
- أنا ما قلت طيارة.
- لكان مين حكى عن الطيارة، وواقفين ومعبيين الممرات وما قدرت تروح عالحمام، من وين أنا جبت كل هالحكي؟
- أنت ليش هيك عصبي؟ هاي الدور خلص وما بقي غير سيارتين امامنا.

[26]

زفة

هذا الصباح
رن الضوء
ليرة الفضة...
التي أضعتها في الصغر

هالا محمد، ديوان «قليل من الحياة»

غبار الحاجز وما حوله من غبار، والانتظار الطويل، وانتظار تقصير طول الانتظار، وزجاج السيارة الأسود الذي يخفيه، وصمت السائق العصبي يقوده إلى الصفنة الطويلة آملا أن تتحول إلى نعاس يتبعه نوم. لقد طلب منه السائق أن يبلغهم بوجود نائب علهم يحركون له الدور اذ لا يحق لهم تفتيشه على أية حال، وصحيح أن ذلك يجعل الحنق يحتقن في حلوقهم، ولكنهم يسمحون له بالمرور خارج الدور في النهاية، فرفض. والسائق المرافق المخلص لا يفهمه، إنه يناقشه اذا اقتضى الأمر، ولكنه يعرف متى لا يفعل ذلك وكيف يمكن لكلمة «لا» أن تكون واثقة وهادئة وغاضبة ترافقها نظرة ازدراء باتجاه الجنود، لا يريد أن يطلب منهم شيئا. وكلمة مازوخية وصفنة ومعنى اختلاطهما ليست في قاموس المرافق لذلك يكظم السائق غيظه. ولكن الغيظ لا يكظم في سيارة واحدة واقفة في مكانها لا تتحرك من دون أن يحس راكبها الآخر بالعصبية. ولذلك يهرب هو إلى الصفنة العدمية الغمامية عله يغفو وتزول الغمة، بل يستغل الوقت لكسب ساعة نوم أو ساعتين بعد أشهر من الاكتئاب المنشغل، أو

الانشغال المكتئب بلا شيء، وبعد اشهر من القلق من قلة النوم.

يحمّر لون الغبار، انها ساعة غروب جميلة والغبار يتحول إلى غمامة ما تلبث أن تتحول إلى سحابة صفراء وحمراء مموجة، كأنها أوراق السحاب الخريفية سقطت من السماء، تنقشع تدريجياً ويظهر خلفها رجال متلاصقو المناكب يسحجون بصفق الأيدي بقوة عند حني الظهر نحو الأمام، ونحو الخلف بفتحها. رائحة عرق مختلطة برائحة العرق الذي يديره على السحجة بالزجاجات شباب يحمسون الصف الطويل الذي يخرج من ساحة الكنيسة في القرية ولا ينتهي إلا عند العريس والعروس اللذين صارا زوجين للتو، من دون القبلة التي يرونها في الأفلام والتي يأذن بها الكاهن نفسه هناك.

يمشي العريس جذلاً. شخص ما قد تطوع ووضع منديلاً بين ياقة قميص العريس وبين رقبته حفاظاً على الياقة من العرق، فعليها أن تخدم ما تبقى من اليوم، وليس لدى العريس ألف قميص. والبدلة ستبقى وحيدة في الخزانة لفترة طويلة حتى بعد أن يكبر كرش العريس ولا يعود هنالك أمل أن يدسه في سروالها أو «يدلعه» فوق إزاره.

ولكن «بهجة» القميص الجديد ولت بمنديل يتدلى فوق ياقتها. وقد احتفظ بالبهجة في عرف الجليليين لموقعين، بهجة العيد، وهي ذاتها بهجة الملابس الجديدة، ومن الصعب التقدير أي المعنيين هو الاسبق، واسم حديقة البهائيين في عكا. وتحافظ اخوات العروس على فستانها بغيرة من أي لمسة ويرشدنها أين تمشي وتموضع رجلها لكي لا يذهب كعب الحذاء العالي. وما زالت نساء القرية يتندرن عن آخر كعب حذاء خلع وتناولته ام العروس عن الارض ودسته في جزدانها متظاهرة أن لا احد يراها، واضطرت العروس أن تتظاهر كأنه ما زال قائما فاكملت السحجة على رؤوس الاصابع في باليه الغبار والعريس العصبي الذي انتظر سحجة الشباب من اجله أكثر مما انتظر العروس ذاتها. فهو يعرف السحجة قبل أن يعرف اسم عروسه بفترة طويلة.

«جليلنا مالك مثيل،

وترابك أغلى من الذهب،

ما منرضى بالعيش الذليل،
لو صرنا لجهنم حطب»

هتف أهل العريس من ورائه، وإنطلقت الهتافات في العرس، وحالاً ترك بعض الشباب الصف، وتظاهروا بالتعب. الجميع ينظر بريبة بحثاً عن الفسادين الوشاة رجالات الحكم العسكري. العروس عصبية، أهلها ليسوا عملاء ولكن والدها «خوّيف». علا صوت الحدائين بسرعة على صوت الشباب في محاولة لفرض النبرة، والهتاف. وعندما لم تنفع المبارزات بين الليل والنهار وبين الجاه أو العلم والمال أو بين السيف والقلم، إنتقل شاب إلى «يا عدرا عليكي السلام» تيمناً بالعذراء مريم. ولكي لا يحرج المدعوين من الطوائف الأخرى انطلق آخر في محاولة لانقاذ الموقف بهتاف «وحدة وحدة وطنية، اسلام ومسيحية». فجأة بدأ غمز خبيث بين مجموعة شباب يريدون أن يسيطروا على الصف من مجموعة مواقع «مرحى مرحى غاغارين، بالسفينة الكونية، وإحنا رجالك يا لينين منكسر راس الرجعية»؟

- منين جابوها الشيوعية هاي؟

صاح أبو سليم أصفر الشاربين على لون «القنباز»، ما زال يلبس «عربي»، كما يقال، وما بدخن غير عربي و«بفرم دخاناتو بإيدو» ومن أرضه قبل أن تسيطر شركة «دوبك» على شراء التبغ من الفلاحين وتحدد الاسعار.

- واحنا شو دخلنا بغنغرين؟ مين هو هاد؟ في حدا بغني بعرس لسفينة كونية يا الله؟ ناقص تهتف للمواسير والتراكتورات اللي بالمجلات تبعتكو عن هديك البلاد. وبعدين معكو ومع لينيم تبعكو؟ مين احسن هو واللا العدرا؟ شو هاللماضة يا شيوعية؟

استيقظ نصفياً، بنصف عين، ما زالت السيارة تبعد عن الحاجز سبع سيارات، وما زال الغبار بلون الفوضى. عاد وأغمض عينيه.

[27]

منصور

بعد مقارعة «شد وإرخي» مع الجنود الذين أبدوا تجاهه وقاحة غير مبررة سوى برفضه التواقح عليه. وهذا بحد ذاته يغضبهم فيتواقحون، يشتمون بصمت بحيث يسمع ولكن بنبرة منخفضة لا يسمعها غيره فيصبح إنكارها إذا أحرجوا ممكناً. وقف خارج سيارته لينتظر جواب الضابط على إذنه بالمرور.

وقف هو وأختاه اللتان تكبرانه قليلاً يحملون مناشف (بشاكير كما اسماها والده الذي اصر على ألا يرطن باللهجة المحلية، كمن أُجبر أن يسكن في هذه البلدة طيلة حياته) وأذرعهم ممدودة إلى الأمام بانتظار ثقل قالب الثلج الكبير الذي سيضعه على أيديهم منصور النحيف النحيل الصارم التعابير الذي لا يضحك أبداً. لم يحب هذه المهمة إطلاقاً، أولاً لأن منصور لا ينبس ببنت شفة وينظر دائماً بعينيين زرقاوين مخيفتين مثل لون عيني الممثل الذي اختارته «متروغولدوين ماير» ليقوم بدور أتيلا الهوني في أفلام تلك المرحلة. يضرب منصور المخرز في قالب الثلج ويجره برشاقة نحوه. يحزه بالمخرز ذاته ويضربة بإزميل يقطعه إلى ثلاث قطع متساوية طول كل منها 40 سم، ينوء بها جسمه النحيل الذي ينحني إلى الامام لاستلام البضاعة.

نحيف كالمخرز، نظراته كالمخرز، يخرج منصور من السيارة «التندر» الخضراء والتي يشبه بابها باب الثلاجة.

سوف يرمي بثقل قالب الثلج على يديه، وسوف يركض به نحو

المنزل وركبتاه تصطكان كأسنانه بعد كل نقطة ماء بارد تسقط عليهما من المنشفة - منذ تلك الأيام يكره الشورت والصندل ويرغب بتغطية ركبتيه. لقد حسب هذا الموقف ردة فعل على ثقافة الوافدين والكيبوتسات التي انتشرت في الريف العربي الذي بات عمالياً رغم أنفه بعد مصادرة الأراضي، فأصبح إبن الفلاح يلبس الشورت في القرية نفسها - صحيح أن رفض الشورت كان ردة فعل على هذه الظواهر التي نفر منها. . شورت وصندل وعقلية رجولية محافظة، كل هذا سوية لم يركب على بعضه و«لم يركب على عقله» - ولكن الواقع أن الشورت يذكره بتلك الرجفة الطفولية بعد أن يسح الماء البارد من قالب الثلج على ذراعيه ونحو البطن عندما يرفعهما، أو مباشرة من قالب الثلج نحو ركبتيه لتطرأ رجفة غير مريحة في عز الصيف.

منصور النحيل غاضب دائماً، ربما لأنه قد كتب عليه أن يتعامل مع هؤلاء الزبائن الصغار الذين ينتظرون على أبواب منازلهم ثلاث مرات في الاسبوع، فالكبار لا يقومون بمثل هذه المهام.

ويُعرَف منصور في البلدة بعلامة مميزة مثل سيارته التندر الخضراء وثلجه: إنه الرجل الوحيد الذي لم يغادر البلدة منذ قامت الدولة عام ثمانية واربعين، ومنذ أن غنى أطفال المدارس أمام مفتش المعارف العربية: «عيد استقلال بلادي غرد الطير الشادي!!» التي كتبها عربي أيضاً كما كتب قصيدة درست في كتاب «سنابل من حقول الأدب» مطلعها:

من يزر تل أبيب ليلاً
يرى الأطوموبيل فيها. .

وتوفي منصور دون أن يغادر البلدة ودون أن يزور تل أبيب ليلاً أو نهاراً، ولم يتعلم منصور العبرية، ولم يصادف حاجزاً في حياته.

منذ تلك الأيام إشترى الناس ثلاجات كهربائية نقداً وثلاجات كهربائية بالتقسيط، واستعملوا مكعبات الثلج للويسكي، بعد أن فهموا إنه لا يوضع مع الكونياك، مع أن بعضهم ما زال يصر «إنه هو ما بغير مشروبه». وعندما كانت الناس تخطط عامين أو ثلاثة لشراء ثلاجة،

وشهرين لشراء سروال العيد، وشهر لشراء سروال افتتاح السنة الدراسية. توفي منصور من دون أن يسمع به أحد لأنه توفي بعد انتهاء سريان مفعول مهنته بفترة طويلة. وتورط بعضهم بقروض إسكان صرفوها على شراء ثلاجة كهربائية وغسالة وغيرها. وقد بدّلوا عدة ثلاجات ولكنهم ما زالوا يسددون قرض الإسكان إياه. كما أنهم غادروا البلدة عدداً غير معدود من المرات وصادفوا حواجز وعبروا حواجز وعادوا إلى البلدة للنوم فقط وغادروها عند الاستيقاظ. وتذمروا من البلدة عندما تصادف وجودهم فيها في ساعة يقظة.

[28]

زفاف آخر..

في الجهة الأخرى من الانتفاضة، قبل سنوات، وفي الجهة الأخرى من المدينة على حاجز بيت لحم، وقف جندي شاب، يبدو في مرحلة التجنيد الإلزامي، يفحص هويات المسافرين. إصبعه على الزناد لم تتحرك إلا لإراحة المفصل، ويده الثانية تحمل ماسورة البندقية، لا يستطيع أن يتناول بطاقات الهوية بيده، ولذلك يومئ برأسه للناس لتفتح له بطاقة الهوية وتقرّب منه بإخراج الأيدي من النوافذ.

على المسار الثاني بنفس الإتجاه يقف جندي من أنماط بشر الشواطئ الذين يجعلهم قيظ الصيف يتباهون بفتحة القميص عند الصدر ونوع النظارات الشمسية،

- ويا عيني على هالشكال
- واسحب وضَمِّن

كما يقال في لعب الورق في الجليل في أيام رأس السنة الميلادية. إنه من النوع الذي يبدو مختلفاً، له جدّولة شعر شقراء مرخية إلى أول ظهره بين الكتفين، ونظارة شمسية بيضوية العدسات السود. يقف مباعداً بين رجليه ويحمل البندقية الإم 16 كأنه على باب بار في فيلم ويسترن. في سنوات الستينيات كان الشعر الطويل المجدول مظهر إحتجاج، فبات في نهاية القرن مظهر فظاظة استعراضية. الجندي الـ«ماتشو» يصرخ ويشتم بكل اتجاه، جاء ليربي العرب. صرخ على عجوز حاولت أن تمر مشياً على الأقدام بعربية مكسرة، ولسبب ما ترن العربية المكسرة في الأذن مثل إهانة.

السيارات تتزاحم. وعلى كل فسحة ضيقة تفرغ بعد مرور سيارة تتنافس ثلاث سيارات من اتجاهات مختلفة للدخول والاصطفاف: تحسين مواقع أمام الحاجز. تكاد السيارات تحتك ببعضها. وعندما تحتك السيارات يسمع طرق الأبواب العصبي بعد القفز من السيارة لرؤية أثر الاحتكاك. ويختلط الصراخ المتبادل مع أبواق السيارات. لا يوجد على الحاجز هدف إلا المرور. مثلما لا توجد في المطار غاية إلا السفر. ولا توَجد درجة أقل من التضامن والأشياء المشتركة مما على المحطات والمطارات والحدود والمعابر والحواجز والترانزيت. يرى الجندي السيارات تغير مسارها ذات اليمين وذات اليسار بحثاً عن موقع أسهل وأقرب للإنطلاق. فيبدأ بدوره بالصراخ. يشعر أن واجبه ليس فقط حماية أمن دولته بل زرع النظام في الرعاع الذين يتحدون الحدود بين المسارات المؤدية إلى الحاجز، فإنعدام النظام ولو عفوياً يؤدي إلى فقدان السيطرة. وفقدان السيطرة يهدده.

أبطأ قبل الحاجز ببضع عشرات من الامتار. تعلم منذ فترة أن يتحكم ليس بسلوكه مقابل الجنود فحسب، بل بأفكاره أيضاً. قبل أمتار من الحواجز الفارغة يتظاهر بالكلام مع الجالس إلى جانبه أو ينظر إلى الحاجز بغير اكتراث، مظاهر ثقة بالنفس لا يتميز بها الواقعون تحت الاحتلال، ولا تميز أصحاب البلاد عن أصحاب الحاجز، بل تميز أصحاب الحاجز عند مرورهم به عن غيرهم من المنتظرين. يدخل الحاجز مسرعاً نسبياً ويمر دون أن يوقفه أحد.

ولكن الحاجز الذي أتاه من الجنوب مزدحم الآن، الهويات تدقق، والسيارات تفحص. لقد أصبح يعرف كيف يميز بين ابتسامة مرتبكة ومجرد ابتسامة ثقة بالنفس، ولكن كل هذا التركيب والتمييز بين دقائق الأمور والنفسيات لا ينفع الآن. فالشر يعلن عن حضوره وإدراكه لا يحتاج إلى ذكاء. إنه يُضَيِّق على الذكاء أو التذاكي هامش المناورة لمجرد أنه يملأ كل الحيز البشري الزيتي بالوضعية العامودية قبل الحاجز في هذه اللحظات. لا ينفع إلا الصبر والجلد في غياب إمكانية التدبير والتدبر.

لقد زين سيارته بالورود في رام الله بذوق بادٍ يعوض عن الحرج

الماثل في الزينة ذاتها. أقرباؤه في بيت لحم يحتاجون إلى سيارة ذات لوحة صفراء، «نمرة قدس»، كما تسمى في الضفة الغربية ليكون بإمكانها قطع الطريق بإبنتهم العروس من بيت لحم إلى رام الله حيث يعقد قرانها.

- هويات إذا سمحتم؟

قالها بالعبرية

- تفضل!

- الجميع، بما في ذلك السيدة إلى جانبك.

- تفضل!

- الجميع بما في ذلك العروس في الخلف!

- تريد أن تفحص هوية العروس؟

- نعم!

استدار وقال مخاطباً العروس بالعربية

- الحيوان يريد أن يفحص هويتك.

قالها بلهجة اعتذارية كأنه مسؤول عما يجري أثناء السفر لمجرد إنه تبرع بالسيارة.

- فيي أعمل طوشه ولكن ما تخليه يخرب يومك، مش مهم. ما تزعلي! المهم يكون معك هوية.

فطن أنه لا يعقل أن تحمل العروس بطاقة هوية على فستان العرس الأبيض، أين ستضعها أصلاً؟

- على كل حال إذا نسيت لا تهتمي رَح ألعن أبوه...

وبدا بعصبيته إنه هو الذي سيخرب يومها. ولحسن الحظ فطنت أمها الهادئة المؤدبة المجربة أن تحمل هوية ابنتها، فهي لا تثق بالظروف، مثل سيدة إنكليزية لا تثق بالطقس ولا بد أن تحمل شمسية حتى يوم عرس إبنتها.

- تفضل

العروس جميلة بالطبع، مع كل التوابع، التي لم يصادرها المشهد الحاجزي القبيح بعد، ولم تتغلب عليها ثقافة القباحة بعد: مكياج معقول

وطرحة وغيره. والجندي ينتظر المناسبة لـ«يصنع يومه» كما يقول من يقلدهم على شاشة هوليوود، ويخرب يومها، سيكون لديه ما يحدث به أصدقاءه. قال موجهاً كلامه إليه:

- هل أنت متأكد انها هي؟

إنه يستفز الفرق بين الصورة في الهوية وبين واقع العروس يوم عرسها. جف حلقه فجأة وعرقت يداه على المقود. في هذه اللحظة أصبح هو الآخر «ماتشو» رجولي مست كرامته، فمن هو هذا الـ. . .؟ ولكنه عاجله بالجواب:

- نعم متأكد.

- امشي!

فكر وهو يقود السيارة نحو الزفاف وجميع من معه يتحدثون فيما بينهم كلاماً لا يصغى له لأنه أي كلام يكسر توتر الصمت: «كان الإحتمال وارداً أن تشعر العروس ليوم واحد أنها إنسان مهم، ليس كما في السحجة في الضيعة، ولكن على الأقل بحق أولوية المرور، أو على الأقل حق المرور، إلى عريسها الذي ينتظر في رام الله مع بقية المدعوين». استمر بالابتسام في محاولة لإتمام «الفرح»، هكذا يسمى العرس في بلادنا «فرح».

- كان عنا فرح اليوم.

- وانشالله مر الحاجز بسلام؟

فكر أن الفاعل هو الحاجز، والقصد بـ«مر الحاجز» هو أن «موضوع الحاجز مر بسلام» أو أنهم قد مرّوا على الحاجز بسلام، يا لها من فكرة سخيفة.

[29]

زفة 3

وصل باصان وبضع سيارات إلى الحاجز. توقفوا وخرج من كل سيارة رجل أو اثنان وتوجهوا إلى الحاجز، «مستهمين» كما يقال، للحديث مع الجنود وكلما اقتربوا منهم أبطأوا سرعتهم، لأن السرعة قد تفسر خطأ، يريدون الاستئذان للعرس بالمرور إلى الجهة المقابلة حيث ينتظر أهل العريس، لقد وفروا عليهم واجباً متفقاً عليه من قديم الزمان أن يأتي أهل العريس بـ«الفاردة» لـ«يأخذوها» لإبنهم.

- إنتو عارفين ما كنا منقصر، بس نقطع الحاجز رايحين وراجعين مش مضمونه هاي وغلبة للناس، وانتُ ما رح تعرفو متى منصل.

وانتهى الموضوع على:

- ولو مش بينا هاي بكفي الحاجز اللي بيننا.

الحاجز بين البلدتين، حاجز ناءٍ بلا طعم، حاجز في لامكان، ليس هدفه أن يفصل بينهما بل أن يفصل رام الله عن قراها، فصارت بعض القرى مفصولة عن بعضها، كأنها ظاهرة عارضة سلبية مرافقة، «ساید إيفيكت»، لدواء، دوار يرافق أخذ الدواء، لا هو المرض ولا هو الدواء. ولكن بالنسبة إلى الزواج الذي حدد قبل وضع الحاجز أصبح الحاجز هو الموضوع، وكل التصريحات على التلفزيون عن الصراع العربي الإسرائيلي هي «الساید إيفيكت». «الأولاد تعرفوا على بعضهم في جامعة بير زيت»، ولكن عبور الحاجز خمسة أيام في الاسبوع يحول الآن دون

الزفاف الرسمي الذي يعوض الأهل عن عيب الحب غير الرسمي.

- مجبورين تعملوا كل التفاصيل والتوابع واللوازم عشان أرضي أهلي. قنع أهلك بعرفش كيف.

الرجال المتوجهون بهمة نحو الحاجز يريدون أن يتكلموا مع الجنود. في «التنسيق» قالوا إنهم وفروا تصريحاً للعروس ومعها خمسون مدعواً. ويرافقها الآن تسعون مدعواً. فبما إنه لم تذكر أسماء على ورقة التصريح قرر البعض أن يرافق العروس وأن يقضي بعض الأمور في رام الله، إذا الله يسّر.

ويا ميسر! يريدون أن يتكلموا مع الجنود.

- لو سمحتو يعني عنا عرس إنشاء الله، عقبال عندكو، ويعني زي ما انتو شايفين، يعني بدنا نوصل العروس إن شاء الله نفرح فيها، وهايكو شايفين أهل العريس بينتظرو عالجهة التانية يمكن سألتوهم ليش بنتظروا وقالولكو.

وفوراً، كأن الجنود توقعوا سؤالاً بهذه اللهجة المستعطفة جاء رد أحدهم دون أن ينظر بإتجاه المتكلم:

- لا ممنوع!

هذه الممنوع يعرفها ابن المنطقة، ويعرف «إنو لازم تعرف من وين تيجيلها» لأنه إذا هاجمتها مثلاً صدامياً، وجهاً لوجه، يصبح موضوع مبدأ، ومعاندة، وكسر إرادات. وإذا تهاونت يمر الموضوع كأنه مراهنة بين الجنود كسبها أحدهم، كما تراهنوا، على ذمة رئيس بلدية عزون، من يصيب الفلاح إبن الخامسة والخمسين «إللي طلع عالزتون» وأصابوا رأسه بطلقة من الحاجز الموجود في أعلى البلد حيث يشرف على البلد وعلى «زتوناتها»، إستشهد المسكين وما زالوا يحققون، وهكذا حصل في عقربة في الموسم الذي تلاه قبل أن يشَرِّع أحد رجال الدين عندهم لسرقة الزيتون والزيت في بلاد الحواجز لأنه نبت على أرضهم بغير علمهم وأثناء غيابهم ألفي عام.

- ولكن في تصريح معنا.

- وينُه؟ فرجونا إياه!

- تفضل!
- وين أسامي وأركام هوية؟
- ما في، قالولنا خمسين.
- شو خمسين؟ بلكي خمسين مطلوب، خمسين مخرب.
- إفحص هوياتهم لو سمحت بتعرف مطلوبين واللا ما مطلوبين!
- إنت بدك تعلمني شغلي؟
- هاي من وين جابها؟ صار يحكي زي العرب لما ما في عند المسؤول جواب.
- أنا عرب أنا؟ طيب ياللا. يللا!!

والآن بدأت المفاوضات

- طيب خلوا العروس واهلها يعني قرايبها اللَّزَم يمروا.
- بدكو تضحكوا علي؟ كل ساعة واحد فيكو بنط، شو قرايبها؟ إنتو عندكو القرايب اللزم ألف واحد.

هنا تبرع أحدهم ليشرح للجندي كأنه دليل سياحة ما الفرق بين «قرابة لزم» وبقية القرابات؟

- خلص! بلا سماجتك هلأ بدك تتشاطر يعني وتشرحلو عنا، شايف الجو يعني جو فصاحة بالإنكليزي المكسرة كمان، ليش هو بعرف إنكليزي؟ أي هو أنوَر منك.

ولم تتمخض المفاوضات عن شيء.

وبعد كل جولة كان الرجال يتجمعون ويتشاورون ثم سمعت أصوات احتجاج من السيارات

- شو بدكو تقررو لحالكو؟ بتشاوروش حدا. إحنا مش راجعين، باقيين هون.
- آه، يلاّ إعملها تفرد في صنع القرار، مشكلتكم مع القرار مش القرار بس إنه ما كنت جزء منه قرروا ياخي! أنا رايح، هاي ما فيها مزاودات.
- طيب شو رايكو نقترح عليهم مراحل، أول شي يفوتو العروس وأهلها وبعدين إحنا؟

- كيف يعني؟ شو هالعبقرية يعني شو راح يصير بعدين، ما إحنا نفسنا هينا موجودين، وهم نفسهم هيهم موجودين.
- يعني فترة لبناء الثقة.
- هلأ سكتوه هذا يا بخنقه بإيدي هلأ ! أسيق عليك الله ترجع عالباص ياخي، يا عالبيت، شو رأيك كمان نعبر «الحاجز النفسي» زي ما قال السادات، يا رجل هذا عرس، عرس يا الله مش مناسبة تفرجي حالك. هي، يعني العروس، الموضوع هلأ، مش أنت وفصاحتك، وكيف حكيت، وحكيت منيح، وهو حكى أحسن، ومين حكى أحسن.
- أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا، أنا بعتقد في الحقيقة. . .
- قيقة، قيقة

نهقت من ورائه جوقة الشباب التي التمت حولهم.

رد الجنود:

- بس العروس وأبوها وأمها
- أمها أغمي عليها، صفرنت يعني من هاللي شافته بعد سنين انتظار الفرح، بهمش أختها تروخ مخل أمها، الشبينة يعني؟

هكذا تظاهر أحدهم بفهم عقلية الجنود بتحويل الحاء إلى خاء، ولم يكن يهزأ كما اعتقدوا، بل يساير، يجامل يعني، مثلما يتكلم الإنسان لهجة مصرية مكسرة في مصر معتقداً إنه يجامل.

- منيخ يالله! وين العروس؟

خرجت العروس من السيارة، وأمسكت بيد والدها واليد الثانية «إنججت» بالشبينة.

- قومي قومي ودعي بنتك علقليلة، ما تخليها هيك تروح، الله يغضب عليهم اليهود.
- والعرب يختي والعرب، تنسيش العرب.
- طيب يا ستي والعرب والعرب. فيقي!
- ديري بالك الفستان من الوحل يا حبيبتي، ارفعي، ارفعولها إياه يا ناس، شو أعمل؟

سمعت العروس صوت أمها. عادت إلى نفسها ورفعت الفستان بيديها وأمسك الأب والأخت ذراعيها وهكذا ساروا الهوينا إلى الجهة الأخرى حيث ينتظر العريس وأهله.

وجثمت على النفوس فترة صمت متوترة جمد خلالها الهواء ثقيلاً ناءت بحمله الصدور، وتخثرت الدموع في المآقي، ثم انطلقت وراءها الزغاريد بعد أن غصت بها الحلوق. وأفلتت من الزغاريد عصافير سنونو ودوري حلقت فوق الحاجز، ومن إحدى الزغاريد هبط على الأرض ولد مثل حمامة رفرافة إلى أعلى التل فوق الحاجز وأخذ يغني وكأنه يهتف ضد الجنود. ولم تردد التلال رجع غنائه الملائكي، بقيت التلال صماء، كأنه لم يكن للغناء صوت ولا لغة. لم يسمع مثل هذا الغناء احد من قبل، ولم يذكر أي منهم لا ملامح كلماته ولا عذوبة وجهه. ولكنهم لم يخجلوا من البوح بما رأوا واتفقوا على وصفه، لأنهم لم يذكروا ما يمكن أن يوصف.

[30]

نجوم الظهر

فُرض الحاجز ومنع التجول تحديداً على الحرية الأولى البسيطة التي تشتق منها كل الحريات، حرية الحركة في المكان. الحرية المادية الجسمانية الفيزيائية المعروفة هي شرط الزواج كما أنها أساس كل حدث من صنع البشر، وإذا لم توجد حرية حركة فلن يوجد زواج. ليس من المفروض أن تخطر هذه الحقائق البسيطة ببال الناس وإلا فإنهم سيتعثرون بكل خطوة، كما يتعثر المرتبك «الملخوم» الذي تأتيه من حيث لا يدري الفكرة اللعينة: «كيف امشي؟» وهو يسير على المسرح لتسلم الشهادة أو الجائزة، أو أمام الكاميرات في طريقه لتحية مقدم البرنامج، أو قبل أن تعيقه سقطة ناتجة عن الضغط على يد المستقبلين في المطار بحرارة كما كان يجري لذلك الرئيس الأمريكي الذي كان يتعثر عندما يمشي أمام الكاميرات، بالضبط كالملتحي الذي لا ينام في الليل إذا فكر أنه عند النوم أين يضع لحيته تحت اللحاف أو فوقه. وهذه الاحتمالات صحيحة ولا يوجد غيرها ولكن يتولد الاحتمال الثالث وهو عدم النوم ويصبح وارداً لأن التفكير في أي الخيارين يختار قد يسبب الأرق.

ولكن تقييد حرية حركة الناس يجعلهم يفكرون بها وبقيمتها. ويروي السجناء لزائريهم عن تراجع إدارة مصلحة السجون عن إنجازات سابقة عندما قلصت «الفورة» بعشر دقائق، أي الخروج اليومي إلى ساحة السجن لتحريك ومط أعضاء الجسم، أو عن إنجاز ترك ابواب الغرف في نفس القسم مفتوحة أثناء الفورة لكي يتمكن السجناء من زيارة بعضهم

البعض. ويتحدثون بمنتهى الجدية، كما لو كان الموضوع مصيرياً، عن الفرق بين زيارة الأهل بشبك (حواجز حديدية مشبكة) أو بدون شبك، وعن كبر الثقوب في الشبك وهل تسمح، أم لا تسمح بإدخال إصبع للمس إصبع القريب أو الحبيب؟

في بلاد الحواجز كلها أحسوا فجأة بعلاقة مركبة جداً بين حرية الحركة وإمكانية الدعوة إلى عرس، على سبيل المثال لا الحصر، وللاختصار نقول: على سبيل الحصار. قد يفكر بحرية الحركة عندما يحتاج إلى طبيب لإبنه، فلذة كبده، ولا يستطيع الخروج، وكذلك عندما ينفذ من البيت ماء أو زاد أو دواء. ولكن لا أحد يحسب حرية الحركة قبل الموافقة على تعيين موعد الزفاف. ولذلك فقد ابتكر أصحاب الفرح في تلك الديار، وعقبال عند العايزين، «كرت العزومة»، بطاقة الدعوة، الذي يحمل كل التفاصيل عن كريمتهم، بخيلتهم، وعن نجلهم، كريمهم، وأسماء الأهل وخبر عقد القران الذي تقترن به هذا الدعوة والزفاف السعيد الذي تزفه البطاقة، والقرنة التي سيعقد فيها القران، إلا تفاصيل الموعد السعيد، بدءاً باليوم فالتاريخ فالساعة، هذه كلها تعبّأ باليد وتوضع بالمظروف حسب الظرف. وما أدراك بقراءة الطالع والنازل قراءة ملية في كف اليد وفي فناجين القهوة وفك مكنون الغيب والنفخ بالرمل وبالرماد وضرب المندل ضرباً مبرحاً وحساب موعد رفع منع التجول؟ عندها فقط تعبَّأ بطاقات الدعوة وترسل بسرعة البرق. ومن أغرب مسالك أهل تلك الديار عادة مستحدثة لم يرها من قبل إنس ولا وقعت عليها عينا جن، وللجن عيون، في بلاد الحواجز. وتتمثل العادة الجديدة بكتابة ثلاثة أو أربعة تواريخ متتالية بحيث يدرك المدعو النبيه أنه إذا صادف اليوم الأول منع تجول، ورب صدفة أسوأ من ألف ميعاد، فهذا يعني أن التاريخ التالي هو المقصود... هذا، ويأمل أصحاب الدعوة أن الموضوع برمته صدفة وسوء طالع، وألا يصادف منع التجول كل الأيام المقترحة، وإلا فإن الاستنتاج المفروض أن أصحاب الحاجز يستهدفونهم شخصياً أو أنهم غير راضين عن هذه الزيجة، ولم يبق إلا طلب شرف رفقتهم في «الجاهة» لـ«قطع الحكي»

وطلب يد العروس، أو أخذ رأيهم على الأقل علّ هذا يقطع دابر منع التجول.

لم يتنازل «أهالي بيت لحم»، وهذا تعميم مرفوض، عن سهرة العرس رغم منع التجول ولذلك فإنهم يدعون الناس في بطاقة الدعوة إلى حضور «حفلة السهرة» تمام الساعة الواحدة ظهراً. ولكن حفل الساعة الواحدة ظهراً هو بالضبط ما يسمى في تلك الديار وغيرها من ديار الله الواسعة حفل الغداء والذي تثقل الهمم بعده، ويعرف إنه بتحالف مع نوع الطعام والطقس قد فرض على شعوب الشرق القيلولة و«السييستا» وانخفاض معدلات الإنتاج والمقدرات العقلية بعده. وربما، لا أحد يعلم لأنه لم يجر إحصاء من هذا النوع، ترتفع معدلات الانتحار في هذه الساعات التي تفقد فيها التخمة والنعاس واشتداد الأحزمة على البطون المنتفخة الرغبة في الحياة، إذا لم تكن هنالك فرشة قريبة لموت مؤقت بالتقسيط، وحمام يبدأ بعده نهار جديد. من الصعب تصور حفلة بعد الغداء، ولكن في بيت لحم قرروا أن يحتالوا على الدنيا وعلى الأوقات وعلى تقسيم الليل والنهار بفرض السهرة وما يرافقها على وضح النهار.

تعقد السهرة الساعة الواحدة بعد الظهر وتستمر حتى الخامسة بعد منتصف النهار، أي قبل منع التجول بساعة. ولا يتم الاحتيال على التقسيم الطبيعي لليل والنهار بالتسميات فقط، بل بتعتيم القاعة بالستائر السميكة وإضاءة المصابيح الكهربائية ليشعر الجميع أن «الدنيا ليل»، ولا يبقى إلا الرقص والأغاني لكي يتحول موعد منع التجول في الأفئدة المتعطشة للاحتفال من السادسة مساء إلى السادسة صباحاً.

وكما تندروا على كثرة استخدام الكلمات الفرنسية من قبل أبناء طبقة التجار في بيت الحم فيما بينهم، يتندر أهل بيت جالا على «أهل بيت لحم»، القريبة جغرافياً حتى لتحسبهما بلداً واحداً، والبعيدة باللهجة حتى لتحسبهما دولتين، أنهم لا يستطيعون التخلي عن السهرات، وأنهم صامدون في السهرة لا شيء يزحزحهم عنها، لا المؤامرات ولا المفاوضات ولا ما شابه، وأن الموضوع ليس «بيت لحم وغزة أولاً» كما

درجت تسمية اتفاقيات التسويات المرحلية في هذه الديار، بل السهرة أولاً، ولو في وضح النهار.

منذ تلك الأيام لم تعد الفنادق التي تعقد فيها هذه الحفلات تدعى على عادة أهل تلك الديار فنادق أربع نجوم أو خمسة عشر ألف نجمة وأصبحت تسمى فنادق نجوم الظهر.

مكتبة
t.me/t_pdf

[31]

أفرست

تقصر المسافة بين البلدات الثلاث عن المسافة بين لهجاتها. وقد اختلطت في حياتها صناعة النسيج بصناعة الحجيج، وارتبكت ألوان أقمشتها المغزولة لكافة الأرجاء عبر ميناء يافا الواعد بألوان الحجاج القادمين لزيارة المهد عبر نفس الميناء، يتسلقون مرتفعات القيامة نحو المهد. وقد مر وقت كافٍ ليصبح الحجاج سياحاً، وليتظاهر المحتلون أنهم سياح، وليتظاهر تجار البلد أنهم أصبحوا تجار قطع فنية، يبيعون قديم الأثاث للمحتلين الذين أتوا البلد من حالة تقشف ووضع «مأنتك» إقتصادياً، فباتوا يفهمون بـ«الأنتيكا» المرممة عند نجاري تلك النواحي.

وكانوا قد لوَّنوا أميركا اللاتينية بألوان أقمشتهم، بعد أن هاجروا إليها وعبروا المحيطات هرباً من التجنيد والجوع والكوليرا في عهد الوالي العثماني، ولأنهم أتوها رعايا عثمانيين فقد أسموهم هناك من دون إحاطة بتفاصيل هذه الأرجاء «تورخوس»، أي أتراك. وهكذا وصفهم قصاصو تلك الحضارة البعيدة كتجار أقمشة أتراك. وما ذنبهم أنها بلاد هجرة تقوم على نسيان ما كان والاهتمام بما سوف يكون. وذلك خلافاً لقواعد بلادنا المرعية لبلادنا التي يبقى ابن الدامون فيها يسمى «داموني»، وابن الرينة «ريناوي»، وابن حمص «حمصي»، وابن صفورية «صفوري»، ككنية للعائلة حتى بعد عشرين جيلاً في قرية أخرى في نفس البلد، وهو يسمى «غريب» و«لاجئ»... إلى أن أفرزتهم تلك النواحي بموجب معايير غير اللهجة والأصل فمن نسلهم من ناضل في الساندينستا، ومنهم

من أصبح وزيراً في حكومة بينوشيه في تشيلي، ومنهم من خدم البطريرك في خريفه ومنهم من أصبح قائد فرابندو مارتي.

وحده الحاجز نجح في حجزهم، وحده الحاجز امتص ألوانهم في الرمادي القاتم، ولم يبق إلا ألوان الشتائم من إبداعاتهم. وأجلت إلى أجل غير مسمى تجارة تماثيل الرعاة والمجوس والمذاود الصغيرة، والأواني الخزفية الملونة والزجاج المنفوخ من الخليل وقوارير الماء المقدس والتراب من الـ«هولي لاند»، وهي خدعتهم المعروفة لهم وللسائح الذي قد يكون متديناً على نمط التبارك بمياه زمزم ولكن بموجب دين آخر وعقلية واحدة، وقد يقتنيها تندراً لذكرى عن خدع التجار للسياح في تلك البلاد فيقع مع ذلك في الخدعة عندما يشتري، ولا يهم التاجر إن كان السائح يشتريها تندراً أو تديناً.

وفي غياب الحجاج السياح غاب أيضاً دير الكريميزان. فقد فصل عن باقي بيت جالا بحواجز إسمنتية. ولأنه قد بنيت في أعلى بيت جالا مستوطنة بإسم «هار جيلو» (جبل جيلو)، وكيف لا؟، فقد تحولت كل الشوارع التي تقود إلى المستوطنة إلى منطقة (ج) التابعة لدولة أصحاب الحواجز. هكذا أصبح جزء من بيوت بيت جالا في منطقة (ج) غير التابعة للحاجز، أي الواقعة خارجه. ولا يمكن أن تحاذي المنطقة (ج) إلا المنطقة (ب) خلف حاجز، فهنالك منطق في الدنيا. ويفصل (ب) عن أسفل بيت جالا المحاذي لبيت لحم حاجز آخر. المنطقة (ج) تابعة لدولة الحاجز أمنياً ومدنياً، وأما المنطقة (ب) فتابعة لدولة الحاجز أمنياً وللذين يعيشون في ظله مدنياً، والمنطقة (أ) كان من المفترض كما نص في اتفاق أبرم في إحدى دول إسكندينافيا التي اشتهر أهلها بعدم الوقوع في حيل وأحابيل تجار السوفينير ذكاءً أو بخلاً، أن تتبع أمنياً ومدنياً لمن يتبعون للحاجز، وليس لدولة الحاجز.

- معقدة؟

- هي هيك. الحياة في هالنواحي صايرة معقدة، وصار الإنسان بدو خارطة ويسمع أخبار كل يوم تيعرف وين مسموحلو يمشي اليوم ووين لأ في داخل بيت جالا، وبينها وبين بيت لحم وبينها

وبين بيت ساحور، أما عن رام الله فلا حول ولا قوة إلا بالله، أفضل الإنسان ما يغلّب حاله الواحد. . . يعني بأكم محل في العالم بدك تسمع الأخبار لتعرف كيف تمشي مثل نشرة الأحوال الجوية لتعرف شو تلبس؟

عاد موسى لزيارة والده، تذرع بنوبة القلب التي أصابته ليعود بعد طول غياب في البيرو ليجرب حظه عند أحد أخوال أمه الذي لا تتقن بناته سوى الإسبانية، واستقبلوه لعل إحداهن تكون من نصيبه. وعاد يشتم أخوال أمه لأنهم عنصريون ضد الهنود الحمر ويتهمونهم بالسكر وعدم الرغبة في العمل وحب التسول:

- وبتصدق يا بابا إنهم مش سامعين بالزاباتسيتا في المكسيك؟
- زابا شو؟ مين هدول؟ ليش من سامع فيهم غيرك هون عنا في البلد؟ من وين بتستهدي على هالأسماء؟ وبتختلف مع قرايبنا عشان ناس أغراب لا أبوك ولا خوالك سامعين فيهم؟
- كيفك يابا اليوم؟
- منيح والله، بس ما مشيت كم خطوة للمنطقة (أ)، هناك وين بيت عمك، حسيت بتعب وشوية وجع بصدري.
- معقول يابا بتسمي الإفرست منطقة (أ)؟ هاي لحالها لازم تعمل وجع صدر.
- يعني هو أول حرف بأفرست كناية عن (أ).
- يعني يابا على هالسمعة أحسنلي أروِّح على (ب) كناية عن بيرو، خاصة إنو إحنا العرب منبقى نلفظ الـ P باء إلى الجيل الثاني.

هكذا يسمى المرتفع الذي يقع عليه أعلى الأحياء في بيت جالا «المطل واللي كاشف الدنيا كلها». وفي الأفرست يوجد بالطبع مطعم وفندق وبار الأفرست، الذي «مضاله عز» كما يقال دائماً عن أجياله من المطاعم المنقرضة في الضفة الغربية مثل «مدام عودة»، و«نعوم» في رام الله. وموقع مطعم الأفرست خارج المدن وكل المناطق الحرام أهَّله أن يكون ملجأ لكل من يريد أن يشرب كأساً بحيث يرى ولا يُرى، حتى لو كان من الخليل. وأمَّه لاعبو الورق في موسم الأعياد حتى من الجليل. من

«الخليل للجليل شعب واحد لا شعبين» هتف طلاب الجامعة ذات مرة في المظاهرات. والأفرست «رخيص وكويس وابن ناس»، والناس «ماكله شاربه لاعبة ومش نايمه» كما يقال، أصحابه أصحاب محل وأولاد بلد وقبضايات، ولكن النفسية ليست نفسية «جرسونات»، والطلب بأدب أفضل، لأن صاحب المحل بشنب طويل وقد يقول للضيف فجأة:

- إحنا مش خدامين هون عندك.
- مين يعني قال خدامين؟ بدك تفتح مطعم وما بدك تخدم الزباين؟
- بس خدمة مش معناها خدامين، ولذلك إحكي بأدب، وما تركبنا لتفرجي حالك قدام الست اللي معك، ما رح تصاحب على حسابنا.

وعندما مر أبو موسى من هناك ورأى عدد السيارات المصفوفة بازدحام فرح كثيراً:

- هاي في محل واحد شغال بهالبلد، إيه أكيد لأنو الأفرست خارج الحاجز يعني أهل القدس بيجو من دون ما يتفتشوا، وأكيد أهل بيت لحم بعملو هون أعراس مع معازيم من خارج بيت لحم.
- والله شفت هالمحل عامر بأهله قلت لأمر وأهنيكو، بس وين الناس وين العالم؟
- لا يا أبو موسى، هاي سيارات أهل بيت جالا. لأننا خارج الحاجز بفضلو يصفوا عنا ويكملوا مشي عالبيت، والصبح بيجوا يوخدوا سياراتهم وعالشغل، وبما إنو ما عنا شغل حولنا المحل موقف سيارات بأجرة شهرية، واحد من الولاد بيحرس السيارات بالليل.

يعني الأفرست صار بدل المَصيف مَصَفّ. موقف سيارات أأ في المنطقة (أ).

[32]

درس في السلوك

إنه مهاجر عائد يعرف الدنيا والمطارات وقاعات الانتظار وحتى الحواجز، وبما أنه يعتبر الدنيا مسرح حريته ونشاطه كمواطن أميركي فإنه يحاول أن يتصرف بثقة بالنفس على الحاجز قرب بلده الأصلي الذي عاد لزيارته، كعادته كل صيف لعيادة أمه التي لم يبق غيرها، وابنتها المزوَّجة والتي تسكن عندها في طابق «التسوية» الأرضي، والذي وهبها إياه إخوانها لتبقى قرب أمهم مع أنها لم تذكر في الوصية خشية أن يذهب الملك لعائلة أخرى وهذا أسوأ من البيع لليهود. وهي تقسم والناس يصدقونها، إلا أخوتها، على أنها لم تكن لتترك الوالدة لو منحت ولو لم تمنح هذه الشقة، «والأهل ما إلهم غير بنتهم بتحن عليهم عكبر». ويا للعجب، منذ أن احترق السوبر ماركت في أميركا ازداد كرم الأخوة، وتبرم الجيران غيظاً. وقد سمع حنا صاحب دكان البقالة، الأديب الذي لا يهتم بمثل هذا الكلام عادة، والمنشغل بأدب أدباء المهجر أكثر مما بالبيع ناهيك عن تنظيف دكانه، سمع الأم تقول:

- كل الناس مشي حالهم يا حنا بس ولادنا لأ، حتى لما حرقوا السوبرماركت ليقبضوا من التأمين مسكوهم وتورطوا، مش زي جيرانك اللي فوق هيهم رايحين جايين ومصرياتهم كترانين.

على كل حال شيءٌ ما في داخله يحذره أنه على الحاجز يصبح عربياً وليس مواطناً أميركياً، وإذا اعتقلوه، لا سمح الله، فلن تفزع له القنصلية الامريكية.

- يعني دولة الحواجز كلها عبارة عن مواطن أميركي صاحب امتيازات مقارنة بالمواطن الأميركي العربي الأصل... أو يعني هيك شي. يقول لنفسه في كل مرة.

ويتذكر صديقهم المثقف المحامي العربي الأميركي الفلسطيني الأصل الذي اعتقد إنه يخيف الناس بلغة المحامين المكروهة أميركيا، لأنه لا أحد هناك يرغب في التورط مع محام، اللغة التي تخيف المسؤولين في الدوائر الرسمية الأميركية وتخيف الأطباء وشركات السجائر من محاكمات التعويض: «سأحاكمك، سأحاكم مؤخرتك، سأحاكمك حتى تجن... وهكذا»، وقد طلب المحامي المتحمس للغة المحاماة، باعتبارها آخر إنجازات الحداثة الأميركية الذي يزور البلاد مع وفد أميركي متعاطف «معنا»، تفاصيل عن جندي إسرائيلي على الحاجز بعد أن أخّرهم فترة طويلة وأمرهم بعدها بالعودة إلى القدس وأهان إحدى الفتيات الأميركيات باعتبارها محبة للعرب ولكن بلغة سوقية للغاية، وعندما سأله «لماذا تريد تفاصيلي؟» أجابه بالإنكليزية «لكي أحاكمك». تبهدلت صحة المحامي فعلاً على الحاجز، وأخّروه بتهمة مهاجمة جندي أثناء أداء الوظيفة، ونقبوا في أسماء أقاربه في فلسطين علهم يجدون علاقة له مع أحدهم تترجم إلى «تمويل الإرهاب»، يعني باختصار كادوا يقضون على مستقبله في أميركا ذاتها. ولذلك فهو يحافظ على أعصابه عند الحاجز، ويحفظ عن ظهر قلب توصية كافة الزوجات إلى أزواجهن، والأهل إلى أبنائهم، قبل الحاجز والمطار والمعبر:

- لا تخليهم يستفزوك!

حتى المسنون الذين يعانون من نقص بالمفردات يعرفون هذه الكلمة مع أنها قلما تستخدم بالعامية.

وهو يرى كيف لا يترك جوازه الأميركي أي انطباع على الجندي الذي لا يعرف الإنكليزية، ويعيده له قائلاً:

- شو هاد وين الهوية؟

- ما معي هوية. هذا هويتي

- يعني ما جددت هويتك، أنت سايح يعني، فيزا سياحة، فرجيني كمان مرة أشوف باسبورت!
- أنا سايح؟ أنا من القدس. شايف بيت الحجر اللي مبني من هون من عندك ثلاث طبقات وقرميد أخضر «فاغودا» ستايل صيني، إي هذا بيتي.
- سايح يعني إقامتك مؤقتة، يعني ممكن ما نجددلك إياها إذا بتكتر حكي وطوابق ستايل صيني.

وهو يصمت أمام شاب لم يكن ليشغِّله في السوبرماركت الجديد الذي اشتراه ولا حتى في محطة البنزين والكاندي ستور، و«لا حتى بواسطة... ابن الـ...». فكر، وهو يكظم غيظه، ويمرر لحظات الإحراج، أمام شاب مراهق ينظر إلى عينيه مباشرة بتحد، ويعامله بأستاذية ويؤشر نحوه بالسبابة. ولكن هذه المرة لا يدري لماذا أحس أنهم تجاوزوا كل الحدود مع أنه كلما حدّث الناس على الإفطار يقولون له «بسيطة»، و«ما بتحمل كل هالزعل».

كان متجهاً إلى البيت من رام الله بعد أن زار الصراف مستغلاً رفع منع التجول، وقد أصر ألا يغير صرّافَه في فترات الإغلاق بصرّاف من القدس.

- ليش قربت، أنا ناديتلك شي؟
- لا، متأسف، شفتك خلصت من السيارة أمامي فقرَّبت أعطيك الهوية.
- ممنوع بدون ما أناديك.

في كل أماكن الانتظار في كل مطارات ودوائر الدنيا يفرغون من واحد فيأتي الذي يليه في الدور، إلا هنا، هذا الشاب يصر أن ينادي السيارة بحركة من إصبعه دون أن ينظر نحوها في نوع من الاهانة.

- طيب، متأسف.

قالها رغم اعتقاده أنه لم يخطئ، وسوف يحاسب نفسه طويلاً على هذه الـ«متأسف».

- لا، أنا ما عندي قلب... وإذا بدي برجعك لآخر الصف وبتستنالك كمان ثلاث ساعات.

والتفاخر بالقسوة، قسوة من نوع خاص فيه استعراضية وتفتيل عضلات في نوع من الستربتيز الرجولي، ولكن فيها أيضاً افتراض أن الطرف المقابل يولول ويطلب الرحمة، وللسبب التالي وحده، أي مجرد الافتراض إنه يطلب الرحمة زاد من نقمته. وخرجت من بين أسنانه عبارة تحدي:

- اعمل اللي بتلاقيه مناسب!
- ارجع وين كنت واستنى أناديك!

نظر بالمرآه إلى الخلف، لوى عنقه وقاد السيارة إلى الخلف 30 متراً إلى حيث كان، انتظر الجندي دقائق معدودة: فكر في أثنائها:

- كان لازم أرجع مش لآخر الصف، لرام الله أشرف، كيف عملت بحالي هيك؟ أرجع وأستنى أوامره. أعيد من جديد زي طالب في المدرسة، لمّا الأستاذ كان يأمرنا: ارجع ودق عالباب قبل ما تفوت! بكفيش جيت متأخر؟ كمان بتفتح الباب وبتفوت؟ ارجع!

أَشار له الجندي فتقدم وهو يغلي على حافة الانفجار، وانتظر الإهانة المقبلة لكي يرتكب كل الحماقات التي كبتها ووفرها طيلة أسبوعي الزيارة، ولكن يبدو أن الجندي المراهق عديم القلب، كما يدعي، فهمها من تعابير وجهه ونظرته ولم يرغب بأن يضطر إلى قتل مواطن أمريكي حاول ضربه، أو شيء من هذا القبيل، فنظر إلى الباسبورت وقال:

- مع السلامة.

ومن يومها لم يعرف طعم النوم من دون منوم ولا حتى بالطيارة، حتى وصل أميركا.

[33]

بين الحواجز حاجز

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن الناس يعلمون عن الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده»

رواه **البخاري**

يزول الحد الفاصل بين الجنائي والكفاحي وبين الزعرنة والنضال ويصبح كل شيء رمادياً يصعب التمييز بين الألوان، حين يفقد النضال انطلاقته الزاهية والمتفائلة وألوانه في رمادية الصبر والانكفاء على ذات المجتمع التي تنقبض مثل سلوك أي جسم حي قبل تلقّي الضربة. عندما يتحصن المجتمع وراء خنادق الجلد والصبر والاستعاذة بالله، وتنكفئ الحركة على ذاتها، من توثب إلى سكون ريفي بلون محافظ واحد لا يميز بين أبناء البلدة والعائلة والحمولة، جميعهم ضحايا وجميعهم مناضلون، وجميعهم جميعهم، وجميعهم مجموعهم، حين ذاك يعاقب الناس أنفسهم بعدم الخروج من البيت، يفرضون على أنفسهم منع التجول، وتعود عناقيد النساء حاميات الشباب في المظاهرة من الجنود إلى البيت، وتحجب الشابات عن النضال خوفاً من اختلاط المناضلين بالزعران وخوفاً من «الإسقاط» الذي يدعي الناس إنه عبارة عن إسقاط الفتاة أخلاقياً في شبكة الاحتلال ثم تجنيدها كعميلة للاحتلال وذلك بابتزازها بإيصال المعلومات إلى الأهل، وقد صادف الناس مثل هذه الحالات وسمعوا عنها قصصاً غريبة تشابه الخيال، ولكن الخيال الشرقي الرجولي بالغ في حجم الظاهرة وتفاصيلها إلى درجة تحولها إلى كابوس يقض

مضاجع العاديين من الناس الذين يحكم الخوف من المجهول ومن الغريب حياتهم في مثل هذه المراحل.

وفي عصر العقاب الذاتي يعتبر الخروج من البيت نوعاً من الترفيه إذا لم يتم لغرض عملي، وإذا خرج رجل «للتمشي» مع زوجته مساء في غياب منع التجول بلا غرض فإن ذلك يعتبر نوعاً من الترفيه الممنوع عن النفس.

- مش عيب طالعين تتمشوا والدنيا انتفاضة، والناس في بيوتها.
- طيب ما في منع اليوم، لازم يعني نمنع حالنا فوق منع التجول، إحنا شعب نكد، شو فيها إذا بمشي مع مرتي؟ خيانة؟

يحدث أن يقيم شباب ملثمون ليلاً حواجز تحاكي الحواجز الأصلية، عمر الحاجز كعمر وصول الشكوى من أول مواطن من دولة أصحاب الحواجز الأصلية مرَّ بالحاجز وأُمِرَ بإبراز هويته فأطلق النار وفرّ، أو اقتحم الحاجز وحاول دهس الملثمين، أو فقد أعصابه وترك السيارة، وعاد يركض من حيث أتى. عمر الحاجز كسرعة وصول سيارة حرس الحدود الأولى، أو كسرعة وصول صوت صفارتها قبل أن تصل.

وعندما تقطع الحواجز الطريق بين قرى عربية على طول خط التماس المسمى خطأ بالخط الأخضر ويتذمر أهل القرى العربية منها، يطول بقدرة قادر عمر الحاجز الذي اعتدى أفراده على المارة وجمعوا «التبرعات» وسرقوا السيارة.

- هالو، أرسل لي سيارة أخدوا سيارتي.
- مين أخد سيارتك؟
- هون الحاجز، أخدوا سيارتي الحاجز، حاجز شباب عرب عالشارع، لا فهمت أصلهم ولا فصلهم.
- ما قلت إنك عربي؟ ليكونوا مستعربين؟
- شو قلت، طبعاً قلت. وقلت إني وطني ومناضل واعتقلت خمسة عشر ألف مرة، فقالوا لي: منيح يعني بتفهم عربي، أترك سيارتك ويلا ارجع مشي من وين جيت! شتمتهم وهددتهم مش عارف من وين اجتني الشجاعة، يمكن من الزعل، فأشبعوني

ضرباً ولكماً. شو مستعربين؟ بقلك عرب، شو ما بعرف أميز بين عربي ومستعرب؟

رجعت على باقة هيك مش عارف كيف مكسور هيك مهزوم ومنرفز، لحالي هيك راجع بالليل جنب الإسفلت بأشر للسيارات اللي خافت توقف، بفكر إني بكيت من قهري وأنا ماشي، كيف هيك زعران بستولوا على... على...

- عسيارتك
- لا مش عسيارتي، هيك بستولوا عالموضوع، هيك بصادروه، اتصلنا بالشباب في طولكرم فقالوا هذه عصابة فلان.

في اليوم التالي توجهت مجموعة من الشباب إلى مقر إقامة عصابة السيارات في القرية المجاورة. توجه نفس الشباب الذين يجمعون تبرعات الإغاثة للقرية.

- «إنتو عارفين السيارة هاي بتكلفكو 30 ألف.
- ومن وين نجيبلك 30 ألف هلأ.
- إيه ماشي، إذا مش قادرين تشتروا سيارتكم، شو رأيكم توخدوا شي أرخص، يعني ضروري تركب هيك سيارة؟ على قد فراشك مد رجليك!!»
- هاي نكتة لبنانية أنا سامعها من أيام الحرب الأهلية.
- والله هيك صار. يمكن كمان هم سامعين فيها مش بس أنت.
- كانوا ينكتوا يعني؟
- لا، والله لا.
- طيب شو يعني؟
- ما بعرف.
- لوين رايحين؟
- قصدك هلأ؟
- لا، بشكل عام.
- كمان ما بعرف، اسألهم!
- اسأل مين؟
- ما بعرف.

[34]

تشييع جثمان

أعادت الحواجز عدداً لا يحصى من الجنازات، وأحبطت عدداً لا يحصى من محاولات الناس تشييع جثامين موتاهم. وكان الشهيد قبل «العمليات الاستشهادية» غالباً ما يستشهد في مكان سكناه أو قريباً منه. كان القاتل بعيداً عن مكان سكناه، أما المقتول ففي مكان سكناه.

وغالباً ما منعت دولة الحواجز تشييع جثمان من قتل برصاصها حتى لو كان مدنياً، وحتى لو كان طفلاً، وحتى لو اعترفت هي ذاتها بالجرم، إلا ليلاً وبعد منتصف الليل، بمشاركة الأهل وحدهم، هذا إذا كان الاحتلال موجوداً بجسمه في المكان، ولكي لا تتحول الجنازة إلى مظاهرة. واذا لم يكن الاحتلال المباشر قائماً تتحول جنازات الشهداء إلى مظاهرات جماهيرية تطورت عفوياً إلى طقس جديد يلتزم الناس به وبقواعده الجديدة، من الشباب الذين يحملون الجثمان المغطى بوسائد الأسرة والأغطية الشتوية، البطانيات، إلى الشباب الذين يهتفون وراءه ويرون صورتهم فيه، إلى حملة السلاح الذين يطلقون النار في الهواء عشوائياً، إكراماً أو غضباً أو تعبيراً عن الرغبة في الانتقام. وحول الشباب أطفال يصغرونهم بسبع أو ثماني سنوات يركضون حولهم إعجاباً بوقفتهم وبحمل «الكلاشن» بيد واحدة وإسناده إلى الخصر عند إطلاق النار في الهواء، ويتفاخرون: «هذا أخي»، «هذا ابن عمي»، «فلان جارنا المطلوب اللي حكيتلك عنه، هيو ملثم مش رح تشوف وجو، بس هيو عرفني شايف؟». النساء على الشرفات إما يزغردن أو يطلقن نواحاً...

أصبح تشييع جثمان الشهيد من مظاهر الانتفاضة التعبوية الأساسية.

- مش عارف ليش جنازات الجنود الإسرائيليين بتبين إنسانية واحنا جنازاتنا بتبين عنيفة في التلفزيونات وهيك طخ بالهوا، لو طخوا لمَّا دخلت إسرائيل قد ما طخو بالهوا. هيك جو مش مؤثر إلا إذا بتكون فيه جوا، من برا ما بعمل تضامن، بالعكس بخوّف الناس منا.
- بس يمكن خيار الفلسطيني الفقير مرات بكون هو بين إنه يثير التعاطف والتأثر وبين إنه يحمس ويعبئ، يعني هاي هموم ما بتلتقي مع الحس الجمالي المهذب المشذب الشفاف، أو مع الحس الجمالي عموماً. هو الضعيف، وهو بحاجة للمعنويات ليكمل. هو الضحية وما بقدر إنو يلعب دور الضحية، لأنه مضطر يحشد ويعبئ. ما عنده الرفاهية اللازمة للعب دور الضحية. والإسرائيلي هو المحتل وكقوي بقدر يسمح لنفسه يلعب دور الضحية. وبيختار الفلسطيني أن يعبئ، وهذه ظروفه وهذي جمالياته، ومش ممكن إنو يخرج الجنازة إخراج للرأي العام كأنها فيلم. هيك نحنا كما يبدو. ويمكن حتى لما نخرجها بتطلع هيك، فكرك المخرج بيمون على بقية المخرجين ساعتها. مهو كل الناس بتصير مخرجين، ما لاحظت اجتماعاتنا الجماهيرية الشعبية المنظمة، مش أحلى ولا أرتب من هيك، مش متذكر الجنازة اللي نظموها وصارت ثلاث جنازات، واحدة ورا النعش وتنين لا حتى يكون في ثلاث صفوف أمامية.
- هي الدنيا إما حس جمالي شفاف ومهذب أو هيك؟ ممنوع التمييز بين القبيح وغير القبيح؟ بعدين، لا أنا رأيي إنه إحنا أفضل من الأفلام اللي عملناها عن حالنا. هديك أصلاً مش إحنا موضوعها، موضوعها القضية، إما القضية هيك حاف، أو قضية الشخص اللي من دونها ما صار لا فنان ولا مهم. أو إحنا كرموز للقضية كتصوير لها.
- شو أعملك هاي إحنا هيك، إذا مش عاجبك الوضع ليش بتقول

إنه نحنا أحسن من هيك وأحسن من الأفلام عنا؟ فرجيني وينها الـ«نحنا» اللي بتحكي عنها.

- نحنا الممكن نكون. وممكن نكون أحسن من هيك. وإذا لا، لشو كل هالحكي؟
- كيف لشو؟ الناس بتستحق تعيش أفضل من هيك، حتى وهي هيك.
- موافق، بس الناس كمان بتستحق تكون أحسن من هيك.
- هاي سفسطائية!
- سفسطائية، بس صح.
- السفسطائية ما بتعني شي حتى لما تكون صح.

وتكاد الحواجز لا تلعب دوراً مباشراً في هذا كله إلا من ناحية تحديدها للمكان الذي تتم فيه هذه الطقوس وراء الحاجز.

أما إذا استشهد مقاتل خارج مكان سكناه فتبدأ عملية طويلة من التفاوض لإخراجه من «أبو كبير» بأسرع وقت ممكن وبدون تشريح إذا أمكن، فـ«إكرام الميت دفنه»، وكل يوم إضافي يمضي من دون ذلك يعتبر عذاباً للعائلة والأصدقاء الذين لم يعد بإمكانهم الخروج لمحاولة اختطاف الجثة في عهد الحواجز، وقد شهد الماضي عمليات جريئة من هذا النوع هدفت إلى إكرام الشهيد. ولم يعد هذا ممكناً في عصر الحواجز.

وتنصب الخيمة، خيمة التعازي: التي كان يقال في زيارتها في الماضي: «عندي عزا» أو «رايح على عزا». وكان المقصود قطعة القماش الخيش التي كانت تشد بين البيوت وتحاكي خيمة الشعر البدوية، والموت كما يبدو يعيد الناس عشائر، وكدليل على أن البيت لا يتسع للمعزين لكثرتهم. وللجلوس في الخيمة أصول مع إنه بات يتم على كراسي من البلاستيك من شتى الألوان. وهو بالتأكيد للرجال وحدهم، يجلس الأهل في الصدر، الأب والأخوة وإلى جانبهم كبار العائلة سناً بغض النظر عن درجة قرابتهم، وفي الخارج تماماً شباب العائلة الذين يقومون للترحيب بالضيوف، أو الوقوف باستمرار من دون جلوس صفاً

واحداً إذا كثر الزوار وتولى المعزون، ولم يعد هنالك متسع زمني للجلوس.

ومن «عظم الله أجركم» إلى «الله يرحمه» و«طولة العمر الكو» لا تترك قراءة القرآن المستمرة مكاناً للحديث، ولكن على رأس الوفود الكبيرة التي تأتي للتعزية هنالك دائماً من يرتفع صوته كعلامة على ثقة زائدة بالنفس في هذه الأجواء، وتنم أيضاً عن علاقة تطبيع مع الموت، أو عن انعدام حساسية من نوع خاص يصبح شيمة محبذة في هذه المواقف لأنه يسلي ويواسي ويكسر الصمت. الكلام المعهود عن تقبل قدر الله، ونقول الحمد لله، ثم الأحاديث النبوية. الطقوس معروفة وتكرر، تصبح أكثر حميمية في الصباح حين لا يوجد الأغراب وأقل حميمية مساء. وفي كل ذلك عزاء للعائلة التي تحظى بكل المواساة الممكنة، والمنشغلة إذا كان المتوفى كبيراً في السن، ولديها متسع من الوقت والأعصاب للتدقيق في من حضر ومن لم يحضر، وفيه جميعاً مواساة من نوع «العلاج بالانشغال».

خيمة الشهيد مختلفة، إنها حيز عام يديره الفصيل الذي ينتمي إليه، أو «المحسوب» عليه والقوى الوطنية. وعائلة الشهيد تعامل بكل الأحترام والتقدير من الشباب والحي، ولا يقتصر الاحترام على فترة العزاء. ولكن العائلة وأحزانها ليست في مركز العزاء في خيمة الشهيد، فالمركز تحتله من دون منافس «القضية»، وليس بالضبط القضية الفلسطينية كما كان يتم تصويرها في الماضي ، وإنما قضية الشهادة. وقد تتحول الخيمة أيضاً إلى موقع للخطابة تلقي فيه الوفود كلمات سياسية تعبوية وتضامنية.

عائلة الشهيد التي زغردت واستقبلت «المهنئين» تعوض عن فوات الحزن فيما بعد عندما تعود إليها خصوصيتها وألمها الفردي والخاص و«حزنها الصغير» قياساً بالقضية، إذا تبقى في النفوس مكان له ، إذا لم يتم تأميم النفوس بعد أن أمم الحزن.

وهكذا يبدأ الخبر: «في أجواء من الحزن والغضب شيعت جماهير...» أو «في أجواء من التصميم على مواصلة الكفاح شيع جمهور كبير من أهالي... جثمان الشهيد... إلى مثواه الأخير».

عندما يفتح بيت تقبل العزاء للشهيد في بلاد الحواجز فغالباً ما يوازيه بيت آخر لآل كذا في بلاد اخرى. شعب الحواجز كان شعب اللاجئين، وأقارب أبناء بلاد الحواجز أحياء يرزقون في جهات الأرض الأربع. وكأن البيت الثاني صدى البيت الأول. ويعلن في صحف تلك البلاد أن آل فلان ينعون شهيدهم الذي سقط دفاعاً عن تراب الوطن، أو الذي اغتالته أيدي الغدر والعدوان والاحتلال الغاشم وقد يكون بيت العزاء في مخيم اللاجئين يذكر بالتواصل بين مأساة اللجوء ومأساة الاحتلال. وقد يكون بيت العزاء من فيلا ضخمة تعمل فيها خمس سيرلنكيات أو أكثر، لكل طفل سيريلنكية كما يقال.

- فلانة جبلها جوزها لكل ولد سيريلنكية.

والشهيد في هذه الحالة رأس مال رمزي جديد، إستثمار جديد، وسام على الصمود، بريستيج، هوية ولا يعلم الشهيد أنه إضافة لكل وظائفه الأخرى تشعبت له وظيفة، فُتح له فرع في دولة أخرى يوظفه اجتماعياً أو على مستوى الهوية العائلية والوطنية لهذه العائلة أو تلك.

وطبيعي أن يشعر أبناء البلد المغتربون في أرجاء الأرض بالفخر أن إسم البلد برز أو ورد في الإعلام وأنها تقدم الشهداء للإنتفاضة. الزوج يتباهى ببلده أمام أهل زوجته، والزوجة أمام زوجها، وكلاهما أمام الناس والمسؤولين: «نحن من جنين!!»، «نحن من نابلس»، «نحن من طوباس»، «نحن من عرابة، شو ما سمعت فيها؟ مهاي اللي حكو مبارح في الاخبار إنه كشفوا فيها الخلية التي فجرت كذا»، «نحن من بيت.. دير... كفر.. عين... طيرة... طيبة... خربة... سيلة.. شو اسمها، نسيت، يمكن لأنها ما بتطلع بالأخبار. صحيح ما عم تسمعوا عنها كثير هالأيام بس في الإنتفاضة الأولى كانت تطلع كثير في الأخبار وقدمت شهداء، بس اليوم مش عارف شو صار، منع التجول والإغلاق مانع الصحافيين يوصلوها».

ويعتذر من يعتذر عن بلده، لأنه لم يسقط منها شهداء، يعتذر بالأصالة عن نفسه والنيابة عمن كان من المفترض أن يموتوا ليوفروا عليه الاعتذار والحرج أمام الناس الذين لا يرحمون إلا أنفسهم.

[35]

جنازة 1

في تلك الأيام الصغيرة حين تلخصت القدس الغربية بشارعين: يافا وكينغ جورج، تضاف إليهما أحياء القطمون والطالبية التي شرد سكانها إلى شرقي القدس غالباً، وجاء الناس لإلقاء نظرة على العرب من فوق سطح كنيسة نوتردام، عاش في القدس الغربية شاب جاءها من قرية في أقصى الجليل، أفرزها سايكس بيكو تحت الإنتداب البريطاني فأصبحت فلسطينية كما أصبح غيرها لبنانياً أو سورياً، أرسله والداه من أقصى الشمال إلى القدس ليتعلم، على عادة الناس قبل عام النكبة عندما أرسل المقتدرون أبناءهم إلى الكلية العربية والتراسانطة، فأقام في القدس باراً أسماه باخوس. ثم أخذ يقيم البارات، الواحد تلو الآخر دون أن يمتلك أياً منها، أقامها لغيره وأدارها. وأقام غيرها وهكذا ، وتحول تجواله المستمر وهدوؤه الفلاحي إلى رمز البوهيميا المقدسية.

بوهيمي فلاح في روحه، بدون وعي وطني من النوع المصوغ في جمل، وإنما حنين مستمر إلى القرية التي «دبر أبناؤها حالهم» بشكل ما مع الحكم الجديد، لم يبق غير هذه القرية في شرقي الجليل في منطقة صفد، هدم كل ما سواها. وسمعت عن المجازر في سواها بقربها. وحدها اضطرت أن تعيش وتبقى بعيداً عن أي تجمع عربي آخر. ورغم الحنين إليها إلا إنه لا ينجح بالمكوث فيها أكثر من يومين في أية زيارة.

حررته البوهيميا من الخوف فقد أصبح مركز السهرات واهتمام الفتيات المتمردات عبره على أهلهن في الستينيات، وما تبقى منهن في

السبعينيات. وكل من أراد أن يبقى «إن» يمينياً كان أم يسارياً (في داخل الامور) في هذه الأجواء لم يجازف بإغضابه. ولكنه بقي غريباً. كما بقي كائناً عجيباً مثيراً لحب الاستطلاع. تعامل معه أقطاب المشروع الجديد كأنه بدوي، حالة شرقية مثيرة، موضع للتظاهر بالتسامح، تسامح المنتصرين.

في عام النكسة، اكتشف الرجل ذاته. لم يصدم لأنه لم يكن قومياً ولا كان مهتماً بالسياسة، ولا تابع خطاب الزعماء العرب. انتصرت هويته على الكائن المثير لحب الاستطلاع الموجود في داخله والذي استخدمه لجذب الفتيات عندما هزم العرب. تعرف إلى عروبته عن كثب لأول مرة، كان يمشي في الجزء الشرقي من القدس الذي احتله الجزء الغربي في ذلك العام. يجول ببصره بذهول باحثاً عن عرب أصليين مدنيين غير فلاحين يتحدث معهم. لطالما حدثه أهله عن الشام وبيروت، ولكنه لم ير في حياته سوى مدينة يهودية وقرى عربية.

ورغم اكتشاف أهل القدس العربية، إلا إنه فات الأوان، وبقي بيته الحقيقي البارات وكأس الكونياك مع القهوة حين يستيقظ بعد الظهر ليبدأ يومه.

لم يعد في القدس الموحدة العاصمة الأبدية حيز للبوهيميا، ولا مجال لحب الاستطلاع. توفي وحده في سان فرانسيسكو بعد أن كان قد اكتشف أن آخر معاقل البوهيميا الإسرائيلية في سان فرانسيسكو، حيث تبعها ليعمل كجرسون في مطعم.

جلب إلى البلاد ليدفن. لم يدفن في القدس وإنما في قريته الجليلية إياها كما أوصى.

وكانت المقبرة كعادة أهل تلك النواحي بعيدة عن القرية، وليس فقط عن مركز القرية كما في القرى التي توسعت في النواحي الأخرى فباتت تضم المقابر في داخلها. وبينما إلتوت مسيرة الجنازة مع منعطفات ترابية خارج البلد، اختفت القرية فجأة خلف أحد المنعطفات قبل أن تظهر المقبرة المسماة تربة في عرف تلك الديار. ولم يبق في مجال النظر إلا الجبل بربيعه الأخضر والأصفر والأحمر والجنازة. وهكذا ما زالت

ترتسم في ذهنه بعد خمسة عشر عاماً: على جبل في الخلاء تمشي مجموعة من الكهنة خلف نعش يحمله شبان يتناوبون عليه، من ورائهم يسير أبناء جيل الفقيد من شيوخ القرية، وكان الفقيد المسجى ابن جيلهم يبدو في حياته بنصف أعمارهم نحيفاً قصير القامة بجينز وشعر طويل، ووراءهم رجال ذوو ماض بوهيمي باد أو غير باد من تل أبيب والقدس، ووراءهم خليط بشري من عدة قرى، يجمعهم أنهم مرّوا في القدس في حياتهم وأمضوا فيها زمناً كطلاب أو غيره.

وكان هنالك فتاة توثق الجنازة بكاميرا تلفزيونية، ولكنها لم تصور تمثيلاً بل واقعاً: جنازة وحيدة من لا مكان إلى لا مكان تضم كهنة وكوفيات عربية وبوهيمياً رجالاً ونساء على جبال الجليل الشمالية الشرقية، والدنيا ربيع. كأنه صممها أو أوصى عليها، مع إنه لو كان حياً لما استيقظ ليحضرها.

[36]

جنازة 2

في تشييع الجثمان تزاحم على الصف الأول مجموعة من الوجهاء أو «المتوجهنين»، بعضهم من كارهي الفقيد المعروفين وبعضهم من خصومه المضمرين، وبعضهم يقدرونه ويحترمونه مع أنه «يا أخي عندو سلبيات كثير...» أو «شخصيته ضعيفه...» وبعضهم من أصدقائه الفعليين الذين انزووا في آخر المسيرة بعد أن يئسوا من تصدرها، أو تخلوا عن المحاولة مسبقاً. وبما أن أهل الفقيد وجماعته حريصون أن يحظى الفقيد بالتشييع الذي يليق به، لا بد من «الشخصيات» في الصف الأول مثل الأكاليل والكشافة وحملة الطبول في المقدمة. ولكن المنظمين، إذا توفروا، غالباً ما لا يحسنون التقدير، إذ يعتقدون أن الشخصيات ستوزع نفسها على أول صفين. وعندما يقف شخص أو شخصية في الصف الأول بسرعة حال إنهاء الصلاة فإنه يدعو غيره للوقوف معه، تواضعاً. إنه يكرم بأماكن ليست له لكي يظهر بمظهر المهتم بغيره وليس بنفسه فقط، يعني نوع من اللطافة وخفة الدم وإحترام الآخرين. ولكنه لا يتابع موضوع الدعوات والمجاملات طويلاً، فحالما يزدحم الصف الأول عليه أن ينتبه فهنالك من يفقد مكانه من أول خطوة فيجد نفسه في الصف الثاني، ولا علاقة لهذا الترتيب بوقوفه مبكراً، قد يأتي من يتقن تصدر الجنازات متأخراً ولكنه يعرف «أين تحشر الكتف»، ثم تبدأ بعد ذلك عملية عصر للعناصر الضعيفة خارج الصف.

ولشدة الضغط يصغر ويتقلص صدر البعض بشكل لافت للنظر.

ويرد الجميع على ضغط الازدحام الناجم عن تعارض عرض الشارع مع طول الصف بتشابك الأذرع بحيث يبقى الجميع معاً أو لا أحد. المصير المشترك هو دافع وغاية تشابك الأذرع. ولكن مصير مشترك، أم مصير غير مشترك، هنالك حقائق فيزيائية رغم ربطات العنق ورباطة الجأش، ورغم زعم المتظاهرين أنهم «سبور» عبر التغلب على الحرج بالتنكيت في جنازة، ورغم الأهمية المندلعة فوق الاحزمة، ورغم الرشاقة والأهمية غير المتناقضتين عند المحافظين على شبابهم بفعل أدرنالين السلطة المتغلب على الشيخوخة، والدايت المتغلب على دناءة النفس، والتستوسترين المتدفق من عشق المكانة والمنزلة و«البريستيج»: لك يا منازل في القلوب منازل.

والحقائق الفيزيائية تبقي الأذرع التي تتحداها متشابكة ولكن الازدحام يدفع بمؤخرة هنا ومؤخرة هناك خارج الصف، فإذا أصر صاحبها على الإستمرار بالتشبث محبطاً كل محاولات إخراجه خارج الصف على صخرة تمسحة جلده، فسوف يضطر إلى السير هكذا بحيث تشاهد من الأمام قامته العلوية فقط، أما ما تبقى من خاصرته حتى الأقدام ففي الصف الثاني. والبعض الآخر يدفع تماماً خارج الصف فتبقى الأيدي كلها متشابكة في الصف الأول أما هو فيظهر كله ما عدا اليدين كأنه نتوءة أو ورم على قفا الصف متعلق به بشكل لا فكاك منه وتسمع منه حشرجة من حين لآخر:

- بس يا عمي ، شو هذا؟ شو هالعلقة؟ ياخي وين المنظمين؟ وبعدين. بدنا نظل إحنا العرب هيك؟ طب شوي بس عشان كرامة الميت، إحترموا الميت يا ناس.
- آخ، أخ! بدكو ديموقراطية؟ بدكو خرا على راسكو. هلأ لو النظام عسكري كان الجثمان على عربية مدفع، وكان الدور عالمليمتر مرتب بالعصا.

لا يسمع الحشرجة إلا الصف الأول فتبدأ الدعوات من جديد:

- فوت فوت يللا فوت يا أخي، خليه يفوت يا جماعة، كان ديموقراطي صار بدو انقلاب عسكري بس انحشر برا.

ولكن الرجل يحشرج والقافلة تسير. وتأتي ساعة الانتقام عندما يضيق الشارع فجأة، فيصنع الصف بطناً يتصدره هو فجأة أما الذي عصروه فينجرون وراءه، ثم يضيق الشارع أكثر فيضطر الصف الأول أن يصنع أكثر من بطن، ثم يتحول إلى شكل أس بالإنكليزية، وهنا عليك أن تراقب المثابرين الذين يتمسكون بمكانهم رغم تقلب الظروف ويدافعون عنه بشراسة، راقبهم جيداً فلهؤلاء مستقبل زاهر في الظروف الرديئة، إنهم يزدهرون كلما ساءت الأحوال، وكلما انسدت الآفاق انفتحت في وجوههم.

عند الحاجز يتبين أمر جديد لم يحسبوا حسابه: اعتقدوا أن الجنازة لن تمر وسوف يسلم الجثمان إلى الجنازة القادمة من خلف الحاجز للاستمرار، فإذا بالتعليمات تزيل الحاجز تماماً. وهنا تبدأ فوضى لها أول وليس لها آخر: إلى السيارات وإلى تجمع جديد في البلد الواقع خلف الحاجز.

هذه المرة تخرج ثلاث جنازات متوالية بعد انتهاء الخطابات الطويلة، لكل منها صف أول، فقد ثبت بالتجربة أن عدد الزعماء لا يكفيه جنازة واحدة، بعد أن أنجب الواقع تفسيراً جديداً لساعة الحشر.

[37]

قناع

أحاط الناس المدينة بأحزمة من الأحياء مؤلفة من بنايات تحشر نفسها وتكتظ لكي لا تقع خلف الحاجز، فأجاب أصحاب الحاجز بإقامة حواجز أخرى تقطع تواصل الأحياء الجديدة مع المدينة. هكذا ولد مخلوق جديد لم يكن معروفاً في السابق هو الحي الواقع بين حاجزين.

- لا هو ضفة ولا هو قدس.
- وين يعني؟
- في وسط اللا مكان.
- ما فهمتها.
- هاي ترجمة عن الأفلام الأمريكية يعني «إن ذا ميدل أف نو وير».
- يعني بالألماني «المكان الذي غادره الإله» يعني نسيه.
- لا ما تغلط لم يغادره. ما تغلط، كل شيء غادره إلا الله. بعدين إحنا ما نحكي عن مكان قاحل زي في الأفلام، لا هذا حي في مدينة، أو يدعي أنه جزء من المدينة.

تعاني الأحياء الواقعة بين حاجزين ليس فقط من أزمة هوية في تحديد موقعها في المكان «هل هي ضفة أم قدس؟» هل هي «خلف الحاجز أم أمامه؟»، بل أيضاً من أزمة إبراز بطاقة الهوية بكل اتجاه.

لا يتحرك سكان هذه الأحياء إلى أي اتجاه من دون أن يصادفوا حاجزاً. وهم خليط ممن لم يوفقوا بسكن ذي سعر معقول في المدينة

(أمام الحاجز) مع أصحاب أراض وبنايات لا يطاوعهم قلبهم أن يغادروها آملين أن يتغير هذا الواقع التعيس فيزال حاجز واحد على الأقل ليصبحوا إما هنا أو هناك.

واقعهم الانتقالي في الأحياء العشوائية لا يسمح بالتعود ولا بالأمل. فوقعوا بين التكيّف والعادة وبين الأمل. لا التكيف أقام عندهم في مؤسسات تقدم لهم خدمات ثابتة فاستمروا يقتنصون من يجمع النفايات ويحرقونها إذا عز الطلب ويحصلون على الماء من مدينة وعلى الكهرباء من مدينة أخرى ولا مكث الأمل.

تعب الأمل من مراوغة السياسة ومن التعلق بحبالها التلفزيونية التي ثبت لهم أنها ليست أوثق من الإشاعات. ولم يبق من الأمل إلا عبارات رتيبة تردد عند وداع أحد أفراد العائلة قبل نهاية العطلة الصيفية بإتجاه الرزق والعمل ومدارس الأطفال خارج بلاد الحواجز إلى حيث يحمل معه مسألة الهوية والجواز وتجديده والإقامة وحيث لا حواجز بعد عبور الحدود إلا حواجز الطبقة الاجتماعية وحواجز الجنسية.

وعندما حلت في بلاد الحواجز دراما الأقنعة الواقية من الغاز والأسلحة الكيماوية وذلك لغرض تأكيد هوية الناس، هوية الضحية، ولتقنيع الفاعل بقناع الضحية، ما كان بالإمكان إلا أن تفرز التعددية وسيرك الاعلام والديموقراطية نقاشاً حول فضيحة غياب المساواة في القناع بين أصحاب بلاد الحواجز ومن يسكنون تلك البلاد من غير أصحاب الحواجز، إن كان ذلك من سكانها الأصليين أو العمال الأجانب أو غيرهم. وأقرت ليبرالية دولة الحواجز حق كل قاطن مقيم أن يحصل على القناع.

وقسم من المقيمين الدائمين حملة هوية بلاد الحواجز يسكنون خلف الحاجز أو بين حاجزين حيث لا يحق لغير المقيم أن يحصل على قناع. هنا سنحت وسيلة جديدة لتأكيد الهوية، بطاقة الهوية الزرقاء، ولاحت الإمكانية عبر الحصول على أقنعة واقية خلافاً للجيران الذين لا يحملون حق الإقامة الدائمة في دولة الحاجز وإنما خلف حواجزها في بلاد الحواجز.

وهكذا توجهت أم سمير، أم خمسة أطفال ووالدهم، إلى بلاد الحواجز عابرة حاجزين إلى مركز إقامة «جيش الدفاع الحواجزي» لتوزيع أقنعة الغاز على المواطنين. وكانت تجربة مثيرة إذ فوجئت أنها واحدة من حشد كبير ينتظر دوره ويسمع شرحاً مفصلاً عن استخدام القناع الواقي من قبل من يوزعه بلغتها الأم، وتواجدت في المكان كاميرتا تصوير تلفزيونيتان واحدة للجيش يحملها جندي بالزي العسكري يوثق ما يجري، وأخرى لمحطة تلفزيونية تصور للأخبار نتيجة النقاش الذي دار في دولة الحواجز بين الليبراليين والجمهوريين حول منح الأقنعة للقاطنين أم لا، وتهليل ديموقراطية دولة الحاجز لذاتها.

وأخذت أم سمير من فائض دولة الحواجز الأخلاقي سبعة علب كرتونية حزمتها سوية مثل علب الأحذية الجديدة. وتوجهت من جديد إلى الحواجز وهي تحملها والناس تنظر حاملة الأقنعة الواقية من الغازات السامة، حاملة الهوية الزرقاء، وهم يهمسون: أكيد لديها أيضاً تأمين صحي.

[38]

«قناع ملائم يضمن دفاعا كاملا»

من دعاية الجيش الإسرائيلي في التلفزيون لتجديد وملاءمة الأقنعة الواقية من الغاز

في الأيام العبثية من الحرب التلفزيونية الأولى ارتدى شعب بأكمله أقنعة الغاز في حركة واحدة موحدة، ونزعها كذلك في نفس اللحظة، عندما قيل له إن الخطر قد زال بعد أن سقطت الصواريخ التي لم تحمل رؤوساً كيماوية وسجلت حالتا وفاة بفعلها بالسكتة القلبية. في تلك الأيام ازدادت أمراض التخمة والسمنة والدهنيات والسكري لأن الناس خزنوا الأغذية المعلبة والحلويات والمكسرات في الغرفة محكمة الإغلاق عدة مرات تحسباً ومبالغة في تفسير التعليمات التلفزيونية والإشاعات عن التعليمات التلفزيونية، وأكلوا ما خزنوا عدة مرات قبل أن تنشب الحرب. وتحول القناع إلى زي رسمي لشعب بأسره، وضعه ونزعه في نفس اللحظة.

طيلة العام الذي يلي هذه اللحظات التي حبس فيها الشعب في غرف محكمة الإغلاق إلى حين سماع صفارات الإنذار، دارت نقاشات حول صلاحية الأقنعة وملاءمتها وعددها، وهل تكفي أم لا تكفي، وحول موعد ملاءمتها من جديد، موضوع يغطي برامج الثرثرة الإذاعية والتلفزيونية التي لا تنتهي. وحول الأقنعة تنشأ معارضة حزبية برلمانية تأخذ هذه المواضيع بجدية في مطالبة الحكومة أن توضح لماذا لم توزع الأقنعة في الوقت الملائم، ولماذا لم تفحص صلاحيتها؟ وحول جدارة

«قيادة المؤخرة» في التعامل مع الوضع في الجبهة الداخلية، وقيادة المؤخرة، أي قيادة الجبهة الداخلية، هو الترجمة الحرفية لـ«بيكود هعورف» وتعني «عورف» في العربية قفا الرقبة، وتستخدم لها بالعربية كلمة مؤخرة أيضاً، أما المعنى الدارج لمؤخرة في العربية فهو بالعبرية «تاحت» أي قاع بالعربية، ويفسر أيضاً على الوجه ذاته، أو على المؤخرة ذاتها للدقة. وتزيد النقاشات الحادة من جدية لعبة الأقنعة، جدية بدون أي روح فكاهة. فالقناع غير الملائم قد يكون قاتلاً برأي السياسيين، ومن زاوية نظر أخرى يبدو اكتراثهم بالنقاط السياسية المسجلة في هذا التنافس هو القاتل.

أحب المواطنون من سكان البلاد الأصليين من غير أصحاب دولة الحاجز لعبة الأقنعة هذه - أخيراً توجد في خزانة في البيت قطعة عسكرية واحدة على الاقل. والقناع هو القناع، يبدو به المرء أنه من أصحاب دولة الحاجز.

وفي الجليل، كما في الضفة الغربية وغزة في فترة حرب الخليج، ازدادت الكلاب السائبة عدداً في شوارع القرية لغياب جسد الناس وروحهم ونفسهم عن الشارع، والحرب التلفزيونية تعني أيضاً أن الناس على التلفزيون والشوارع للكلاب السائبة. وفي يوم من أيام صفارة الإنذار، دقائق قبل سقوط الصواريخ المسماة صواريخ سكاد والتي ذكرت الناس بأحاديث «القاهر» و«الظافر» عشية النكسة، أحب أصحاب البيوت أن يخرجوا ليجلسوا في الغرفة المغلقة مع جيرانهم، وما أكثر الذكريات والمشاعر الدافئة في القرى والحارات في أيام الأزمات والحروب التي تصلهم عبر تجمعهم في بيوتهم للتسامر والتآلف. وبعد أن وضعوا أقنعة الغاز اقترحت الزوجة:

- ليش ما نروح عند دار اخوك؟ شدّوا علينا كتير نيجي، شكلها بدها تطول الحكاية هالمرة.

قالت ذلك كأنها خبيرة بشؤون الصواريخ وبنفس لهجة: «شكلها بدها تشتي بكرا»

وتذكّر زوجها

- أنت عارفة على هالعدّال شو راح تِشتي علينا؟

وخرجوا من البيت أربعة أقنعة غاز في ليل القرية. أربعة أشباح تقطع الزقاق إلى البيت المجاور، اثنان كبيران بينهما خطوتان تميز منها الذكر من الأنثى لأنه يتقدمها، ولأن الصدر بارز في حالتها، ولأنها تحمل كرات من خيوط الصوف في كيس بلاستيك وقضيبين معدنيين للحياكة. ما عدا ذلك الاثنان يرتديان جينز، وعلى أثرهما سار قناعان صغيران ولكنهما كبيران بشكل مخيف بالنسبة إلى الجسدين اللذين يحملانهما.

الكلاب السائبة العنيدة، والجعارية التي لا تخاف شيئاً، نظرت بذهول نحو الكائنات المخيفة التي مرت فجأة في شارع القرية. انسلّت بعد أن أصدرت نواحاً أو نحيباً خافتاً خائفاً متكرراً بإيقاع متسارع، انسلت لا تلوي على شيء، ولت الأدبار ولم تتوقف حتى لتلقي نظرة إلى الخلف للتأكد.

[39]

مطارحة الشعوب الغرام عوض
أخوة الشعوب

وفي أحد أيام «الإغلاق المفروض على المناطق» بعد حرب الخليج الثانية، المسماة أيضاً حرب الكويت، والتي ادعي بودريار أنها لم تقع إلا في مخيلتنا التلفزيونية، والتي أضافت إلى واقع ومخيلة عمان دوّاراً أو دوّارين من الفلسطينيين، وأضافت دُوَار وواقع الإغلاق المستمر وغير المحدود إلى حياة سكان الضفة والقطاع، نشرت «الصحيفة العبرية الأولى»، «صحيفة الدولة» كما تسمي ذاتها، أن نائب البرلمان اليساري الذي هدد العرب الراقصين على السطوح شماتة بمدينة مصابة بصواريخ قادمة من الشرق عندما أدارت وجهها للغرب وظهرها للشرق، صواريخ لم تصب أحداً: «ابحثوا عني» بالعبرية، على وزن «لن تجدوني عندما تريدونني» بالعربية، قام بعمل إنساني شديد الإنسانية إلى درجة لافتة، أو شديد اللفتان إلى درجة غير إنسانية، فقد توجه إليه أحد ناخبيه من تل أبيب الذي ارتبط بعلاقة عاطفية مع شاب من جيله ومن جنسه من غزة بشكوى مفادها أن الشاب اللوطيّ الخيار، الجنسي سراً في الشرق وبوحاً في الغرب، (أو المستلوط لكي يصل إلى تل ابيب كما يستعرب سكان تل أبيب لكي يصلوا بلده) قد عاد لزيارة أهله في غزة، ولم يستطع العودة إلى صديقه في تل أبيب بسبب الإغلاق.

تأثر النائب الإسرائيلي عظيم التأثر بالقصة وشارك الدولة كلها عبر

«صحيفة الدولة» بتأثره، وقد خاطب الجهات المسؤولة التي سمحت عبر إذن مرور للمحب بالتواصل مع حبيبه رغم الإغلاق.

جاءت الفكرة بصيغة خطاب من النوع الذي كان المسؤول الحزبي «يرقعه» كلما بدت بوادر «انحراف» أو «ارتداد» لدى اعضاء الحزب:

وكما أن النضال لتحرير المرأة والعامل يلتقي مع النضال الوطني منذ مراحله الأولى، فإن النضال ضد الإغلاق والحواجز قد يكون أيضاً نضالاً لتحرير اللوطيين، وإياك أن تنبس ببنت شفة، خصوصاً إذا كانت ابتسامة، عن هذا الموضوع، وحتى لو كنت مؤيداً لحق الناس باختيار توجههم الجنسي، حرية الخيار الجنسي كما يسمى. في مثل هذه الحالة ترتبط عروبتك بالرجعية، وبكل أولئك الذين لا يوجد لديهم صديق من هذا النوع. ولكن بوسع الإنسان أن يكون ديموقراطياً وتقدمياً ويتعاطف معهم، لا بأس!!

- ولكن معقول يكون عندهم امتياز المرور؟
- وشو افرقت يعني؟ في ناس كثير بتوخذ إذن بدون ما تكون هومو. شو اللي مزعلك، والتضامن معهم مفهوم ومبرر لأنهم ضحايا دوبل، أولاً لأنهم محتلين وثانياً لأن الناس عندنا أيضاً تقمعهم، مثل حالة المرأة.
- والله ما زعلان، بس هلأ يمكن إحنا صرنا مقموعين مرتين، دوبل على قولك. مرة لأننا محتلين ومرة لأننا مش لوطيين، وبالتالي ما في يسار يساعدنا. يعني في دايما حد مقموع مرتين من اليمين، وحد مقموع مرتين من اليسار، كله بحسب زاوية النظر.

عليه الآن بعد هذه الهلوسة، أن يحارب انزعاجه، وأن يحارب محاولته أن يخفي انزعاجه، وأن يبدو غير منزعج، وأن يحاول أن يتعامل فعلاً مع الموضوع كأنه طبيعي وأن يتظاهر في الوقت ذاته أنه طبيعي، وأن يتظاهر أنه لا يتظاهر... المهم، خلينا بالمهم!!

- كلها حالة واحدة، لماذا ازعجته إذاً؟ ما المشكلة، ها؟! ها؟! ما المشكلة؟ كلها حالة واحدة؟

ربما هو منزعج أنها حالة واحدة. فماذا يعني هذا؟ هل يريد أن تزداد هذه الحالات؟ المهم، المهم، خلينا بالمهم!! ربما المشكلة هي الخبر الدراما الإعلامية، ولو لم ينشر الخبر لما كان هنالك موضوع، ولكن لا مخبّرين بدون خبر، والحاضر يعلم الغايب.

[40]

شبح

شبح يخيم على بلاد الحواجز ، شبح حقيقي لا يشبه شبح البيان الشيوعي ولا مدينة الأشباح، ولا الشبح الظريف كاسبر، ولم يشتق هذا الشبح أو يتولد من عملية «شبح» السجناء في السجون الإسرائيلية كحالة من «الضغط الجسدي المعتدل» كما يسمى التعذيب الرسمي في دولة الحاجز. شبح هي اختصار للكلمات العبرية الثلاث: «شوهيه بلتي حوكي»، وتعني متواجد بشكل غير قانوني. ولكن الكلمة المستخدمة في دولة الحاجز هي شبح لأنهم هناك مغرمون بالاختصارات العسكرية اللازمة للأوامر السريعة، على وزن «تساهل» تسفا هجناه ليسرائيل: جيش الدفاع الإسرائيلي، ناهيك عن الـ«منكال»، مناهيل كلالي، المدير العام، والـ«مطكال»، مطي كللي، هيئة الأركان العامة. وشبح هو التسمية التي تطلق للسرعة والنجاعة على العامل الموجود في دولة الحواجز للعمل رغم الحاجز وبدون ترخيص، إنه شبح. «وشبح» العبرية تلتقي بشكل مفارق مع لفظ شبح بالعربية، وليس بفعل الاشتقاق. فلا وجود للفظ كهذا بالعبرية، إنه مجرد اختصار لوصف العامل العربي غير القانوني بنجاعة واختصار.

والـ«شبح» وحيد وتائه ومحاصر وقلق، إنه القلق ذاته متجولاً على رجلين. وهو لا يذكر متى التف عن الحاجز أو متى عبره وبقي ولم يعد إلى ما خلفه وراءه. وهو لا يعرف متى سيعود، أو سيعاد، لأنه لا يعرف متى سيتم الإمساك به. إنه رجل يعيش كل يوم بيومه، مياومة، بالضبط

كما يعمل ويحاسب ويقبض اليومية، إنه عبارة عن حالة يومية. يبيت في القرى والضيع والخرب، في عرش المزارعين في الحقول مثل الفزاعات المقلوبة الدور، الفزاعة، وفي مخازن ورشات البناء. وقبل مرحلة الأحزمة المتفجرة، كانوا ينامون في المخازن وفي الساحات الخلفية للمطاعم وفي ورش البناء التي عملوا فيها عند أصحاب الحواجز، ولكن منذ الأحزمة المتفجرة لم يعد بوسعهم سوى المبيت في القرى العربية. والقرية ليست مدينة ترحب بالغرباء، ولا هي متكأ للشخص المجهول الهوية، فهي تخاف من المجهول خوفها من الخوف ذاته. وكرم الريفيين ليس كرم بداوة موجهاً نحو الغريب. وليس هنالك أبرز ولا ألفت للنظر من غريب في قرية، مثل الثور الأبلق، ويبقى ابن القرية ذاتها غريباً فيها بعد سنوات طويلة من إقامته فيها، فكم بالحري عند الحديث عن عامل رجل «شبح» في مجتمع محافظ.

يعيش الأشباح في أقبية المنازل، ويستفيدون من تزايد الوعي الوطني والتضامني عند الشباب ويعانون من شكوك البالغين بهم وبنشاطاتهم الممكنة وتوريطهم القرية في مشاكل، هذا عدا الشك في أن يكونوا عملاء، على النمط العربي في الشك وتدعيم الشك بالأدلة الظرفية.

- واللا كيف مخليينهم؟ لولا إنه مرضي عنهم ما بخلوهم.

ولا يمكن التعامل مع هذا النوع من الشك، فإذا نفيته أكدت أن دولة الحاجز ديموقراطية ومتسامحة وبذلك أثرت الشك بذاتك، أما إذا اكدته فقد قمت بتملق من أثاره. وأنت تعلم، وهو يعلم أنه يثير الشكوك حول الآخرين كنوع رخيص من إدعاء الوطنية، أو كتهوين لما قام هو به في حياته من خدمات لدولة الحاجز ما دام الشك يمس كل الناس ما أن تقع عليهم نظرته المتبرمة المتذمرة الشاكية من وجود الغرباء.

إنهم أيضاً أول المشكوك بهم في حالة السرقة، ومجتمع القرية مثل مجتمع المدينة في كل مكان يميل إلى تحميل المسؤولية للغرباء عن كل ما يزعج ويكدِّر بغض النظر عن جوده قبل قدومهم، ومنه ما يبات مزعجاً بعد قدومهم ولو مارسه غيرهم لما بدا مستفزاً.

من الأشباح من ينام في المسجد، ومنهم من يفترش التراب

ويلتحف السقوف، ومنهم من يحاول أن يبحث عن زوجة تمنحه هويتها سقفاً وإقامة شرعية في البلد وتضفي عليه من هوية أصحاب الحاجز. ولكن «الشبح» المتوسط هو الشبح الخائف ونموذجه في السلوك أن يَرَى ولا يُرَى. وآدميته تفرض عليه أماني تتجاوز قبعة الخفاء أن يرى وألا يرى، إنه يريد أن يقبل أيضاً - كان هذا هم الشبح كاسبر الذي تحقق في المسلسل التلفزيوني. ولكن كاسبر يظهر مثل قطرة حليب طويلة طفولية من النوع الذي يتمنى الأطفال ضمه وتقبيله كما يحسون عند رؤية الباندا أو الدب الذي لا يعرفون عن شراسته شيئاً في التلفزيون، ولذلك بعد صرخة المفاجأة والاستغراب يُقبَل وجود الشبح في المسلسل التلفزيوني.

أما شبحنا فيبحث عن عمل وهو أبعد ما يكون عن شكل قطر حليب، وهو يظهر كما يظهر، رجل شرقي الملامح إما عصبي أو هادئ، مستقيم أو غير مستقيم، صادق أو كاذب، مشتاق لأهله أو هارب منهم، جامح الغرائز أو مكبوت الغرائز مهذب، ولكنه خائف أبداً مما تحمله اللحظة القادمة. وسرعان ما يتجلى هذا الخوف في حركة بؤبؤ العينين والتلفت. وهو لا يحسب أو يوازن بين المخاطرة التي تتضمن الاعتقال والإهانة عدا التعاسة اليومية وبين البطالة خلف الحاجز - إنه ببساطة يريد أن يعمل، يريد معاشاً، أجراً، يرسله إلى العائلة. وهو يقارن اللحظة بسابقتها، والوضع يزداد سوءًا كلما أجرى مثل هذه المقارنة، فقد أصبح يعاد إلى ما وراء الحاجز بعد أن كان يعود. وهو «شبح» بلغة الاسياد لأنه يتجنب العودة، ويهرب ممن يريد أن يعيده، ويفقد الشبح ذاته هذه عندما لا ينجو بالافلات من قبضة من يريد الامساك به.

ويدفع حتى أصحاب الحواجز غرامة مادية عن احتفاظهم بـ«الشبح»، ثم ما لبثت أن تطورت إلى احكام بالسجن. وأغرب ما في الأمر أن المتدينين من أبناء أصحاب الحاجز قد انبروا للدفاع عن «الشبح» و«الاشباح» لأنهم لا يشكلون خطراً، فمنذ متى يتزوج الأشباح أو يتزاوجون؟ وهم لا يتزوجون من بنات شعب الله المختار خلافاً للعمال الأجانب الذين حلوا مكانهم والذين يحولون الإقامة إلى عائلة وهجرة تشكل خطراً على الهوية الدينية بنظر المتدينين خاصة أن الزواج يتم مع

بنات شعب الله المختار مما قد يؤدي إلى الإندماج . الشبح لا يتزوج ولا يقيم عائلة، فإما أن تنتظره عائلته وراء الحاجز أو يحلم بإقامة عائلة هناك. وبنات شعب الله المختار لا يتزوجن من أشباح العدو، أشباح تذكرهن بهؤلاء القاطنين وراء الحاجز.

يشعر «الشبح» بالوحدة بعيداً عن ربعه يفصل بينهما الحاجز والقانون ولقمة العيش، إنه وحيد وخائف وحزين. وكلما ازداد خوفه ازداد أيضاً خوف الناس منه، إنهم يخافون منه لأنهم يشكون بما سيفعل وهو يخاف مما سيفعلونه بسبب شكهم به. إنه مطارد وعندما يأتون لإعتقاله فهو لا يعلم هل سيحققون معه على كل ما جرى أثناء إقامته في البلد أم سيطرد شر طردة إلى ما وراء الحواجز، ولكنه يعلم علم اليقين أنه لن يخفّ أحد لنجدته حين يهان. وعندما سيحقق معه سيكتشف كم كان وحيداً لأنه لن يجد الشهود الذين كانوا معه عندما حصل ما حصل، فهو غالباً ما يقضي هذا الجزء من العمر وحده. إلى أين يذهب؟ فهو ليس بطلاً بل يريد أن يشتغل، هذا كل شيء، وهو لا يحاصر الحصار كما يطلب منه، إنما يحاصره الحصار، كما يجري عادة للناس العاديين الذي يريدون عملاً. لقد بات الناس العاديون «أشباحا» في بلاد الحواجز.

[41]

ماجد

عندما كلمه ماجد تلفونياً بعد انقطاع دام عشر سنوات لم يتردد، عرفه على الفور. فقد حافظ على لهجة بلده «معاوية» طيلة السنوات التي قضاها خارج البلاد منذ أن عرفه قبل عشرين عاماً. كان لماجد أيضاً صوت مميز، وإذا رأيته لن تخطئ أبداً، فعيناه واسعتان تحتلان نصف وجهه الأعلى بزرقة البحر أو خضرته المتغيرة حسب الفصل وزاوية النظر وعمق الماء. وتحار هل لماجد نظرة دافئة، أم للنظرة الدافئة ماجد، ووجه طفولي؟

قدم إلى مكتبه في اليوم التالي وتعانقا. كان مطلعاً على ما يدور ومتابعاً رغم انشغاله بموضوع اختصاصه. صوته هادئ وواثق. أخبره عن إنجازاته العلمية باختصار واقتضاب وتواضع، وعن اضطرار جامعة تل أبيب أن تتعامل معه باحترام منذ اللحظة الأولى، وعن معاناته مع المرض وتحديه له، وعن تجواله في العالم، ورغبته أن يساهم في تطوير موضوع «تحليل الأنظمة المعرفية» وعلوم الحاسوب بشكل عام في العالم العربي. سأله ماجد عن اتصالاته العربية وإذا كان هنالك من يحتاج إليه برأيه، فهو يعرفهم من المؤتمرات العلمية فحسب، والوضع لا يبدو له مشجعاً. ثم سأله عن «أوضاعنا» وكان بحاجة للاستماع عشرين دقيقة ليفهم بعض الاشياء ويحدد موقفه.

لم يلعب معه لعبة الدكتوراة والحياد أو الانتهازية المترقبة. لم يكن بحاجة لها، ولا للتمثيل. إنه شخص مهم علمياً. فقد كان مهماً فعلاً.

ولذلك لم يحتجْ للتظاهر بالأهمية بإدعاء الوقار، أو بالخلط بين الموضوعية العلمية وغياب الموقف.

وكأنهما لم ينقطعا قط، صار ماجد يتصل باستمرار لكي يسمع عن آخر التطورات ويعرض مساعدته حيث يستطيع، وعندما جرى التفكير بإقامة جامعة عربية كان مطمئناً لوجوده. كان يبني على وجود أمثاله ويتمناه، فلا يمكن إقامة جامعة على أصحاب شهادات لا تصرف ولا تستثمر إلا في مجال العلاقات العامة. كان الرجل عظيماً في إنجازاته العلمية، ولذلك لم يحاول أن يحول الشهادة الجامعية إلى منصب اجتماعي، ولم يتردد في تحديد موقف. ويذكر كيف حضر مرة جلسة لجنة شؤون متابعة التعليم العربي معه، وجلس صامتاً إلى جانبه. لم يعرفه احد. وقد تفاجأ، وخاب أملهما، عندما شاهدا بأم أعينهما تحضيراً حزبياً لانتخابات داخلية فيها، كأنهما في لجنة طلاب عرب قبل خمسة وعشرين عاماً. ونظر إليه بعينيه الكبيرتين بعد الاجتماع وقبل أن يغادر مع صديق مشترك: «لا تقلق، لم أيأس، أنا لست قادماً لأمنن عليكم، مثلي مثلكم».

كان ماجد أول طالب عربي التقاه في الجامعة، ثم كان أول طالب عربي يعمل في مكتب قبول الطلبة، ولذلك فقد هرّب له أول قائمة بأسماء الطلبة العرب واختصاصاتهم وعناوينهم لحصرهم قبل انتخابات لجنة الطلاب العرب في السبعينات من القرن الماضي. وحافظا على صداقة. عرف أن ماجد كان يحضر للحج في العام المقبل، لولا أن عاجله المرض، ولم يتغير رأيه: إنهما ينتميان لنفس عالم القيم.

عندما يحضر أستاذ جامعي بحجم ماجد إلى بلد من البلدان للعمل فإن الجامعة أو السلطات المختصة تهتم بحصول عائلته على إقامة، بل على جنسية. كان ماجد ابن هذا الوطن بالمعنى الذي يفهمه الابن وبالمعنى الذي يفهمه الوطن. وقد ولد وهو يحمل جنسية أصحاب الحاجز، لم يكن مهاجراً في البلد، استمدها من ولادته لأهله، وهم لأهلهم. كان مهاجراً خارج بلده مثل إنسان عادي. ولكن عندما عاد إلى بلده عاد كمهاجر. وكان متفوقاً في مجاله على المستوى العالمي، ومع

ذلك فشل حتى وفاته بتحصيل هوية إقامة، «لم شمل» كما يقال بالفلسطيني، لزوجته التي تحمل الجنسية الأردنية.. لم تعبر زوجته الحاجز، ولم تنفع الأنظمة المعلوماتية في تمريرها لتحضر تشييع جثمانه في بلده معاوية القائمة على أرض الروحة المطلة على وادي عارة الواصل بين شمال البلاد وجنوبها.

حجزت أرملته الشابة عن جنازته الواقعة في بلده. ووري التراب، و في هذه الأثناء، حولت عيونه الكبيرة الزرقاء - الخضراء التراب إلى زجاج شفاف.

[42]

شجرة اللوز

لا يعلم لماذا فكر فجأة أن «مندلباوم» تعني بالألمانية شجرة اللوز، وكيف كانت أنوار اللوز الملاك الأبيض الذي يبشر بقدوم الربيع في الجليل وبدء عملية التعلق لمدة شهر بخروف العيد قبل ذبحه في عيد الفصح. كان ذلك في أزمنة سحيقة سبقت عملية الأمركة التي حولت عيد الميلاد إلى أهم من «العيد الكبير»، ألا وهو عيد الفصح في عرف ذلك الشرق الذي تشابهت فيه أسماء الأعياد بين الطوائف. وانقسمت الى: العيد الكبير والعيد الصغير. وتطابق فيه مذاق حلويات العيد ذاتها التي يصنعها المسلمون والمسيحيون بنفس السميد ونفس العجوة المتوفرة في الأسواق في ذلك الموسم وتثير نقاشات لها أول وليس لها آخر ومقارنات بينها وبين جودة مواد العام الماضي وأسعارها. وتصنع الحلويات نفس نساء الحي المتعددات الطوائف اللاتي يجتمعن كل يوم عند واحدة لمساعدتها في صنع الكعك. وتتغير المذاقات بموجب العيارات، والعيارات بموجب الكرم والبخل، ولم تتوزع هذه الصفات طائفياً.

وفيما أثار فيه مشهد العربات لأول وهلة، وقبل أن يغبرّ شجون الأعياد القديمة، ذكرى أول إضراب عن الطعام. كانوا يركضون مع خروف العيد بعد أن نسوا أو تناسوا أنه للذبح، وبعد أن رفض والدهم أن يشتري كلباً بيتياً، ومن اشترى كلاباً في تلك الأيام التي ملأت فيها الكلاب الجبال والهضاب؟ بل رفض أن يحتفظوا بكلب لأن الوالد

مهووس بالصحة والنظافة والأمراض المعدية ولأن والدته تقرف من كل حيوان غير مذبوح وممعوط ومقطع - هكذا نسجوا الأوهام أن خروف العيد هو كلب ونسبوا اليه صورة كل حيوان حرموا منه، ونسجوا الأوهام أنهم أصبحوا رعياناً مثل جيرانهم الذين لم يذهبوا إلى المدرسة وأمضوا أيام الاسبوع يطوفون بالقطعان بالبراري ويتدربون على قذف الماعز السائبة أو الخارجة عن الصف بالحصى إلى أن لم يعد أحد في الحي يجرؤ على تحديهم لأنهم يصوبون بحجر إلى الراس مباشرة ولو عن بعد خمسين متراً، وباليد اليسرى أيضاً.

ركضوا مع الخروف وأخذوه ليرعى في الجبل الذي كانوا على سفحه، في أسفله بيوت الصفيح وفي أعلاه غابة مشجرة وكيبوتس وبينهما مرعى بدا لهما لا حدود له. ركضوا مع الخروف في الربيع الواقع بين بيوت الصفيح خارج المدرسة، بعد المدرسة. وركضوا معه يوم الإثنين يوم عطلتهم الذي كان يبقيهم وحدهم في الحارة لأن مدرستهم وحدها اختارت يومي الأحد والإثنين.

وكادوا يعتقدون أن بالإمكان تدريبه للتجاوب مع مناداته باسمه، وكادوا يعتقدون أن في عيونه تعابير فرح وحزن، أو هكذا على الأقل أحسوا بها. وأمضوا الأيام الثلاثة قبل العيد في بكاء وتضرع ألا يذبحه والدهم، وأن يشتري غيره، وأن يتركه لهم مربوطاً خلف المنزل وأنهم سينظفون يومياً من حوله، ولن يسمحوا له بأكل الزهور التي اعتنى بها والدهم في أحواض معلقة أثارت إعجاب كل من في الحي، وزرع فيها إبداعاته الفنية وإحباطاته المهنية من عمل لم يحبه وأمضى فيه ثلاثين عاماً.

وفي يوم العيد رفضا الطعام رغم إلحاح الوالد الذي لم يشتر خروفاً حياً منذ ذلك الحين، ولم يذبح ويعلق ذبيحة على السلم خلف المنزل، ولم يدع جارهم الراعي ليعد له الجلد الصوفي جاعداً يحمي أقدام أولاده من الاصطدام المباشر بالأرض الباردة عند الاستيقاظ في صباح الشتاء.

وقد يكون مندلباوم اسم عائلة كما تطلق أنواع الأشجار على عائلات روزنباوم ونوسباوم وكيرشينباوم في تلك البلاد التي عرفت معسكرات

الإبادة، كما عرفت الحواجز كحدود. «تشيك بوينت تشارلي». لا شك أنه اسم «شيك» وأنيق وخفيف بالنسبة لحاجز حدودي من نوعه وفي صرامته رسم الحد والمعبر بين معسكرين عالميين في برلين. الحواجز عندنا: حاجز «إيرز» أو «كارني» في غزة وحاجز بيتونيا وحاجز الرام وحاجز قلندية وحاجز سردا ودير بلوط وترقوميا وأبو ديس قبل أن يستبدلوه بحائط، جدار من ألواح الإسمنت قسم الشارع، ومعه أبو ديس، إلى قسمين، وحاجز «تبواح» على اسم المستوطنة. أسماء أماكن بدون تدليع ولا «أسماء دلع». وعلى الغالب تزال كلمة حاجز في تلك الديار فيقولون: «صار معه كذا في قلندية، أو عند قلندية، أو على إيرز»، بحيث طغى اسم الحاجز على اسم البلد، وعندما يلفظ اليوم أهل القدس أو رام الله كلمة قلندية يكون المقصود هو الحاجز وليس المخيم. في حالة المخيم عليك أن تقول: «مخيم قلندية». ولها أسماء عبرية غريبة عجيبة من مختصرات عسكرية وغيرها تسمع بالأذن كما تبدو الحواجز جدراناً إسمنتية على خيش وشوادر على غرف حديد وإسمنت جاهزة على صخور وأكوام تراب، حالة رثة باختصار.

تذكر فجأة مندلباوم. لماذا تذكرها؟ أزعجته الفكرة، وألح السؤال. وراح في صفنة من النوع المنشغل المزعج المستمر حتى وقت الحديث عندما تستحوذ على المرء فكرة تجعله يفكر بها وليس بكلامه حتى عندما يتكلم عن موضوع مختلف. آآآه أنها العربات، من أين أتت هذه العربات فجأة؟ خشبية زرقاء وخضراء، صندوق مستطيل عميق على ثلاث عجلات أو عجلتين. يدفعه إلى الأمام شاب يركض خمس خطوات ويتأرجح خمساً أخرى بعد أن ترفعه الأذرع الخشبية عن الأرض لثقل الحقائب في العربة، من أين أتت هذه العربات فجأة؟ لأول مرة يتزامن الحاجز المغلق تماماً أمام السيارات مع حضور أصحاب الحقائب من المصيفين في بلدهم من دول الخليج وغيرها، وبعد عبور الجسر لا يصلون إلى البلد، بلدهم، بل إلى الحاجز حيث ينقلون الحقائب من سيارة إلى أخرى.

والحاجة أم الاختراع، وفي حالتنا بالطبع أم التنقيب عن حل لها في

الماضي، في الجذور، هكذا عدنا إلى استخدام الحمير في النقل، وليس فقط داخل البلدات القديمة، بل على منحدرات خطرة تجنباً للشارع والحاجز. وهكذا سمعوا من أصدقائهم كيف ينقلون الماء على الحمير من نابلس إلى بيت فوريك وبيت دجن المرتفعتين عن نابلس بعد أن توقفت الصهاريج عن تزويدهم بالمياه أثناء الإغلاق. وهكذا عاد الحمار صديقنا القديم ليحتل موقعه الطبيعي المتصارع بين الحاجة إليه واحتقاره والشفقة عليه بعد ضربه في آن. والمأساة أن الجيل المحتاج حالياً للحمير لم يعد يعرف كيف يعامل الحمار، فالحمار لا ينقل الماء فحسب بل هو أيضاً بحاجة لمن ينقل إليه الماء. ولكن المحتاجين لخدمات وسيلة النقل الموثوقة المجربة هذه بدون لوحات صفر أو زرق وبدون ترخيص (تيست)، وبدون واسطة، يحقدون عليها وعلى من أعادهم إليها ولا يعرفون كيفية التعامل معها. والموضوع لم يعد مزحة وقضية نقل بضائع أو إسمنت إلى داخل القصبة في البلدة القديمة في نابلس، بل قضية ماء للشرب وطعام. لم تترك دولة الحاجز وراءها مياهاً جوفية. وقد منع الحفر الارتوازي بحثاً عنه منذ مدة، والصهاريج لا تصل من نابلس، لأن الحاجز الحمار لا يفرق بين الماء وبين المتفجرات.

- كله ممنوع، أنا ما بعرف مي وما بفهم عطشانين، ممنوع يعني ممنوع.

- أيوه، إحنا عليك لازم نحمل المي، لأنك أنت الحمار.

وأحياناً نعود إلى الجذور الحقيقية، يعني جذور النباتات الكثيرة الصالحة للأكل في جبال بلادنا، ولكن من المجنون الذي يخرج لـ«يتبقل» في هذه الأجواء، فحتى قطف الزيتون أصبح مهمة تحتاج إلى وحدات خاصة.

وجذر الحاجز «بوابة مندلباوم». ونقل الحقائب يتم بعربات من نوع تلك التي استخدمها الحمالون على «بوابة مندلباوم»، والتي استخدمت منذ ذاك الحين لتحمل أطباق الفستق والهريسة المتجولة، وبعض الخضراوات الموسمية لدى باعة الصنف الواحد. وهو صنف من الباعة يزداد في مواسم القطف، ومواسم الفقر والبطالة، ولا تناقض بينهما في

هذه الديار. والشباب يجرون الآن حقائب المسافرين إلى عرباتهم لدفعها، بأسعار مرتفعة نسبياً، إلى السيارات التي تبدو أكثر بؤساً. فعدد العربات المصرح لها بالتمكيك بين جهتي الحاجز محدود، وأصبح سائقوها الشباب نوعاً من الـ«في آي بي» الجدد يحسدهم سائقو السرفيس البائسون. فيوماً بعد يوم يزداد عدد الخيطان والحبال التي تستخدم لتربيط النوافذ والأبواب داخل السيارة وتزداد ألوان الأسلاك الكهربائية المستخدمة كوسيلة وصل غير كهربائية بين أجزائها المتداعية. وتزداد ألوان الكراسي، «إشي شكلنص» كما يقال.

- كيف يقال ؟ مين بقول؟
- صاحبي هيك بقول. شكلنص، إشي شكلنص ، يعني إشي هيك مزين وبائس وملون ومزركش ورثّ ومبهدل مع سوا. شكلنص. يعني شكل غير شكل بالفرنساوي.
- بالفرنسي؟
- بالفرنسي ما في منها وما بعرف أصلاً ، لأ بالفرنساوي!

[43]

مندلباوم

سافروا إلى مندلباوم من البلدة لزيارة أقاربهم في الأردن، وقد خاب أمله في حينه عندما سمع لأول مرة أنهم يسكنون في الزرقاء وليس في عمان. وحاولت أمه أن تفهمه أنه لا يوجد فرق لئلا يشعر لا سمح الله أنهم يعيشون في بلد أقل أهمية من عمان، تماماً كما عكفت على زيادة راتب زوج أختها الضابط من عندها لكي ترفع من قيمة أختها. وبالطبع كان هنالك أساس لهذا الكلام حول «العز اللي عايشين فيه هناك»، فـ«هنا» كان الخبز والسكر والحليب يشترى بالكوبونات في نظام تقشف اشتراكي نسي فيه الناس شكل البضائع المستوردة، وهربت فيه اللحوم وذبحت الذبائح في السر في سنوات التقنين، وأقنعت الأمهات أنفسهن وأولادهن أن «المرجرين صحي أكثر من الزبدة» لأنه لا يوجد زبدة، وأن أكل الجبن بدون رغيف من الخبز قبل وبعد كل لقمة يؤدي إلى أمراض غريبة لم يسمع عنها بعد ذلك. وزالت الأمراض التي لم تقع أصلاً، زالت بدون تطعيم بقدرة قادر مع ازدياد أنواع الجبن. وقد بدا له فعلاً كل شيء «عز بعز» في الأردن منذ أن وطئت رجله تراب القدس الشرقية. أولاً وضعت سيارة جيب عسكرية يقودها جندي تحت تصرفهم للتنقل، غير سيارة الأقارب الخاصة الروسية الموسكوفيتش، وكان لديه منها موقف ايديولوجي إيجابي أصلاً، تنقلوا فيها، وجندي شوفير، وأنواع مأكولات مفقودة والكثير الكثير من السجاد حيث تطأ قدمك، واشترت له خالته أول ساعة في حياته.

والأهم من كل شيء سمح للأطفال بالمبيت في المعسكر، وأخيراً رأى جيشاً عربياً ولمس معسكر جيش بيديه ورجليه وعينيه وأنفه، بعد أن كان المعسكر هو العالم الآخر هو الما ورائي المخيف، «العمارة» الإنكليزية مقابل بيتهم التي باتت «مركز قيادة منطقة الشمال لجيش الدفاع»، والتي كان الجنود يؤمونها ويتحدثون بلغة لا يعرفها في عصر لم يكتسح فيه التلفزيون البيوت، ولا يجرؤون على اللحاق بهم أو رمي الحجارة عليهم مثل بقية الغرباء خوفاً. خوف بدون حقد لأن نفسه الصغيرة لم تعرف الحقد في تلك الأيام إلا على المعلم الذي ضربه مرة ولم تتكرر.

على كل حال سافروا قبل طلوع الفجر. وكم كان فخوراً أن جارهم يملك واحدة من خمس سيارات ركاب في البلد، ومعه رخصة لقيادة السيارات من الثلاثينيات، وكان دائماً يفتخر: «ثلاثين سنة ولا مخالفة سير واحدة»، وكان هو يقول في نفسه:

- ليش هو كان في سيارات لتعمل معها مخالفة؟

لم يحس ببرد كانون بعد منتصف الليل لشدة الانفعال. ولم يغفر لأمه فترة طويلة لبس «البابيون» والحرج الذي حل به حتى يبين ابن ناس هناك عند أختها التي لم تتعرف إلى زوج أختها إلا في هذه الزيارة، لأنها تزوجت بعد الاحتلال. أبوه يحمل ظرفاً خاكي اللون طويلاً فيه التصاريح التي وصلت بواسطة رجال الدين الذين لم يعرفوا الحدود في تلك الفترة.

لا يدري كيف عبروا الحدود الإسرائيلية، ولكنه يذكر الحمالين من الجهة الأردنية التي كانت فلسطينية وأصبحت فلسطينية، الذين هجموا على الحقائب منذ تلك اللحظة بعرباتهم وتدافعوا وتشاجروا بالأيدي. ويذكر أباه يشعل السيجارة من الأخرى والضابط الاردني يتأمل أوراقه ويقول له بعد عشرين دقيقة كل واحدة منها بحجم السلحفاة:

- أنت مسجل شيوعي غير مرغوب فيك في المملكة.

كان والده قد ترك الحزب منذ أكثر من عقد، ولكنه مسجل شيوعي عندهم منذ موافقة الشيوعيين على قرار التقسيم إياه وتوزيعه المنشور

الذي يدعو الجيوش العربية للعودة من حيث أتت، والناس ألا تغادر، ويهاجم الرجعية العربية أكثر مما يهاجم الصهيونية. وعلى كل حال لم يظهر على الضابط أنه عالم بكل هذه الأمور، أما هو فاعتقد أنه التقى أخيراً مع «الرجعية العربية وعملاء الاستعمار» الذين طالما تحدث عنهم والده في البيت كالسبب من وراء نكبة فلسطين.

ساعات من الانتظار، لن ينساها. قمصانهم البيضاء بـ«البيون» بدأت تلوح إلى لون «الكريم». الضابط يحقق مع والده رغم التصريح، ولم يعرف في حينه أنه في البلدان العربية لا علاقة ضرورية بين الفيزا والتصريح وإمكانية عبور الحدود فعلاً، كأن دولة الحدود منفصلة عن دولة الوزارات، كما لم يعلم آنذاك أن والده الذي اعتبره في حينه قمة الوطنية قد عومل باحترام نسبي. ومع ذلك فإنه لن ينسى، ولن يقبل أن ينتظر على أية حدود فيما بعد إذا كان الغرض ذاتياً، وإذا لم يكن مرتبطاً بواجب تجاه الآخرين. وقد سحب جوازه من يد الجندي على عدة حدود:

- هاته، غيرت رأيي ما بدي ادخل بلادكو.

وعدة مرات دعي للمشاركة في مؤتمرات أكاديمية في الخارج قال للمسؤول الإسرائيلي الذي أكثر من الأسئلة في المطار:

- خلص ما بدي أسافر بلا هالمؤتمر.

وللسائق على الحاجز:

- لف وارجع ما بدي أنتظر ساعتين وما بدي أتوسل الجنود، وما بدي شي، بدي أستقيل خلص خلص، على كل حال مش مهم، منرجع بكرا منتهيها عالتلفون...

إلى أن ظهرت خالته التي لم تعرف زوج أختها ولم تره من قبل، ومعها مسؤول بلباس «سيفيل»، مخابرات كما يبدو، ومنذ تلك اللحظة مر كل شيء بسرعة إلى القدس الشرقية. دخلوها مزدحمة يوم الإسراء والمعراج والناس تصلي حتى في الشارع عند باب العمود، وكان في حينها يتحمس لمحمد علي كلاي لمجرد أن اسمه محمد، فكم بالحري عندما يرى هذه الأعداد من المصلين من كافة الألوان؟ ومنها إلى عمان في طريق بدت طويلة جداً.

وفي البيت الفسيح داخل المعسكر حيث سمح للأطفال وحدهم بالنوم عرف أنه يمنع ذكر عبدالناصر فأخذ يصرخ مادحاً عبد الناصر وشاتماً الملك. ولم يفهم لماذا تحلق أولاد خالته حوله وأخذوا يغلقون فمه بأيديهم؟ حسبهم يمزحون. لم يدرك مدى الإصرار والجدية إلا عندما أخذوا أيضاً بالتأكد من النوافذ والشرفات. وفي اليوم التالي عوضهم عن «ولدنته» وانتقامه لوالده، بأن وقف معهم في السينما عندما افتتح الفيلم بالسلام الملكي وصورة جلالة الملك، وقف دون أن ينبس ببنت شفة مخفياً استغرابه من تحول الفيلم إلى حدث رسمي.

أربعة أيام، منها يومان على الحدود. لم يدرك كم من البضائع اشتروا من الأردن إلى أن بادر أبوه السعيد رغم كل شيء بلقاء العرب اللاجئين من قرى الجليل، ومن ضمنهم أصدقاء الشباب من قوة حدود شرق الأردن، ومن الآي.بي.سي. ومن الثورة والمراهقة وأول قطعة سلاح وفرس في حفلات تذكر جماعي لأيام بيروت والشام وحيفا. بادر الوالد السعيد بهذه الأيام الثلاثة لطلب ثلاث عربات بحماليها، أو ثلاثة حمالين بعرباتهم. وعرف ماذا اشتروا عندما أوصاه والده لدى الخروج من مندلباوم أن يمسك كل منهم معه حقيبة أو صندوق جيداً لأن متديني حي «مائة شعاريم» قرب المصرارة على بوابة مندلباوم يحومون حولهم لاختطاف شمسية أو غيرها من الحاجات المستوردة والركض بها، وإذا كنت شاطر يا ابن الجليل الحق به إلى دهاليز حي «مائة شعريم» قبل العودة إلى البيت خائباً. لم يسرق شيء. وعاد إلى البيت مع ذخيرة مباهاة تكفيه أكثر من عام.

وتدفق المهنئون بالسلامة من كل الحي وصعقوا عندما اكتشفوا كم من الأكياس التي حملوها داخل هذه الحقائب كانت أمانات وهدايا من ناس لناس لا يعرفهم ولم يرهم من قبل، فغالباً ما كانوا يقومون بـ«زيارة رسمية» لاستلامها (والمقصود مبلغ عنها سلفاً) مع سائق السيارة الذي كان يشارك الناس مناسباتهم الاجتماعية ولم ينتظر في الخارج وذلك لأهميته، ولطول السفرة التي يخطط لها ولأجرتها، أو «بنزيناتها» على الأقل، الأسبوع بطوله، ولأنه يتحول فيها إلى رفيق طريق ومستمع جيد.

جاءوا ليتسلموا الأمانة وليسمعوا عن أحوال العرب وما يتوفر هناك في الأسواق مما لا يتوفر هنا:

- كيف الملك منيح ولا مش منيح ، بحبوه والا ما بينحب مثل ما إذاعة صوت العرب بتقول؟
- اتركنا هلأ من الملك، كيف جماعتنا عايشين هناك؟

انتبه أنهم لم يزوروا أي مخيم للاجئين هناك في حين تمتلئ حارتهم هنا بيوت الصفيح التنَك من لاجئي المجيدل ومعلول والشجرة وغيرها. فخالته ليست لاجئة لأنها تعيش مع زوجها الضابط إبن الجليل هناك منذ ما قبل عام 1948، والنكبة بالنسبة لهم لم تكن إلا نشوء الحدود بينهم وبين بلدهم الأصلي.

[44]

جسر

إذا الدنيا تأملها حكيم

تبين أن معناها عبور

بديع الزمان الهمذاني

إنهم شعب الحقائب والمعابر، ولكي تتم عليهم جاء وزير الأمن الشهير بعلامته المميزة ،الرقعة الجلدية على عينه اليسرى، والذي أسماه رئيس حكومته الأقل شهرة منه «أبو جلدة» تهكماً على ماركته المسجلة، باستعارة لقب قائد إحدى «العصابات» من ثورة 36 الذي يخيف بذكر إسمه أبناء «اليشوف» أطفالهم الذي يتخيلوه بصورة القرصان قاطع الطريق. جاء الوزير الرومانسي الذي عرف بحبه لملاحقة السيدات وسرقة الآثار، ويحير الناس بالعلاقة بين هاتين الصفتين وتقلد وزارات الامن في دول هذه المنطقة، بفكرة إبقاء الجسور مفتوحة كمعابر للفلسطينيين إلى الأردن، إلى الضفة الشرقية. ولولا هذا المتنفس لما كان بالإمكان، برأيه على ما يبدو، الاستمرار بحكم الفلسطينيين من دون ضمهم، أو منحهم المواطنة أو إقامة حكم من نوع نظام الأصدقاء الذين أثبتوا هم أيضاً إمكانية الجمع بين المغامر العسكري والرومانسية والعنصرية في جنوب القارة الأفريقية. منذ ذلك اليوم والناس تحت الاحتلال «لا هيك ولا هيك»، «لا هنا ولا هناك»، أو «هنا وهناك» في الوقت ذاته، يتوقف على زاوية النظر. منذ تلك اللحظة أصبح عبور الجسر لدى سكان الضفة الغربية هو نقطة البلوغ، هو التحول إلى حياة

الدراسة أو العمل في الخارج والعودة السنوية إلى «الضفة»، كأن هنالك ضفة واحدة، لزيارة الأهل وتجديد الهوية بكل المعاني الممكنة.

هذا الجسر، هذا المعبر، طبع حياة الناس على «الضفتين» بطابعه. «الجسر» ليس حاجزاً وإنما معبر. ما يميزه على طول خط الحدود المطلق الإغلاق، أنه بالإمكان العبور من هنا. ولكن لأن الجهة الثانية لا تعترف بهذه الحدود فإنه في الواقع حاجز من جهة واحدة، معبر وحاجز حدودي، من جهة الغرب يوجد حاجز إسرائيلي مركب بتصاريح ونقاط تفتيش للرجال والنساء. وباصات تنقل من هنا ومن هناك، وسيارات بتصاريح دخول لـ«عند الجسر جوا» وأخرى بدون تصاريح، وأماكن انتظار، وكل ما يسميه الناس «الجسر وقرفه» أو «قرف الجسر». وهنالك بالطبع موسم الجسر، ألا وهو فصل الصيف الذي يغمى فيه على بعض الناس وهم ينتظرون في الباص المغلق بدون تكييف حفاظاً على المحرك. والأطفال يذبلون فيه على أذرع الأمهات عندما لا تعود تنفع السقاية. فقوّة التفتيش الأمني الموجودة لا تكفي النهر البشري الجارف الذي يرغب بعبور الجسر في الصيف، ولم تكفهم عشرون، ولا ثلاثون سنه لحسابه وتوقعه، كأنهم يعتقدون في كل عام أنهم سيعيدون «المناطق»، كما تسمى المناطق المحتلة في كل دولة، لأصحابها، ومع ذلك يبنون مستوطنات كأنهم باقون إلى الأبد في «يهودا والسامرة».

وقبل الحقائب كانت الصرر القماشية الضخمة (البقج) التي تحملها النساء، وخصوصاً العجائز، وتحوي أغراض دكان كامل من نوع دكاكين «كل شيء» القديمة والتي كانت تحوي أزراراً من كافة الألوان والأحجام وأبر خياطة وفتلات بريموس، وزجاج قنديل ونيلة لتبييض الغسيل وبيضاً بلدياً وعسلاً. وفيما عدا الصرة، البقجة، كانت هنالك الشملة بدل الجزدان والتي تلف حول الخصر وفيها ما هو أثمن مما في الصرة وقد يكون ملفوفاً على مرتين أو ثلاث مرات، إما لصعق الجنديات المفتشات المتغامزات، أو للتهريب، على أمل أن تمل الجنديات من أول صرة وأول لفتين، ولكن هيهات، فكلما ازداد عدد اللفات ازداد حب الاستطلاع لدى الجنديات. وتتداول العجائز قصص سرقة صيغة وخواتم

أثناء التفتيش، كما تداول الشباب قصص كسر كاميرا، أو التظاهر بكسرها عند تفتيشها وإعطاء الشاب ورقة ليستلمها عن الجسر بعد عودته، ولكن نسوا أن يضعوا اسم الجندي أو التاريخ على الورقة: و«ياما» ضاع حق وراءه مطالب ملحاح.

وعن السرقة حدث ولا حرج، فقد اعترف راديو دولة الحواجز يوم 26 آب من العام الثاني للانتفاضة الثانية وعلى لسان الحريصين على «طهارة السلاح» و«أخلاقيات القتال» و«على ذكرى شهداء تساهل» من أعضاء لجنة الخارجية والأمن في برلمانها أن ما ادعاه أهالي رام الله وجنين عن حوادث سرقة في الدكاكين ومحلات الصياغة والصرافة وعن حالات نهب في نيسان، شهر «المنع»، بطوله كان ظاهرة حقيقة وليس مجرد حالات فردية. أما ما جرى مع العجائز على الجسر طيلة العقود فلا علاقة له بطهارة السلاح، مجرد زعرنة جنود وجنديات يتبعها تخريف عجائز ومبالغة عرب وخيال شرقيين.

وكان الجنود في الماضي يجمعون أحذية الناس في سلال «تذهب إلى الفحص بالأشعة» قبل اكتشاف الوسائل الأكثر عملية، أو قبل أن تستعد الإدارة الإسرائيلية أن تصرف أية ميزانية على هذا المعبر الـ عربي- عربي. حتى إنتاج الظل تحت سقف الـ«هانجرات» تتطلب سنوات وأعداد كبيرة من المغمى عليهم. وكانت الأحذية تذهب وتدخل أجسام أصحابها في أكشاك جانبية للتفتيش ثم يبحثون عن أحذيتهم:

- ضاعت كندرتي وين كندرتي؟
- وينها؟ وين رحتو فيها؟ يا ربي!

وبعد مرور نصف ساعة

- شو لقيتوها
- لا مفيش
- كيف مفيش لو بتتاكل قلنا أكلتوها، شو بدكو بفردة وحدة؟
- خلص هلأ روحي دبري حالك!
- مش متحركة من دون كندرتي، وين مدير الكنادر، بدي أشوف مدير الصرامي!!

[45]

حاجز وجسر

تجربة الجسر بازدحامه بروائحه بأنواع الشنط وطبقات الفلسطينيين. الفلسطيني الذي يشكو، وذلك الذي يتعفف عن الشكوى، الفلسطيني الذي يلعن الحالة التي ستجبره على التعامل مع هؤلاء الجنود، والفلسطيني الذي يعتقد أن الفوضى من العرب وليس من الجنود:

- لأنو إحنا ما بلبقلنا النظام

العربي الذي يبتسم عندما تلتقي عيناه بعين الجندي ليبتسم معه تفهماً وموافقة على أن هؤلاء العرب لا يمكن تحملهم، أما هو فراقٍ كالجندي، كل ذلك من دون أن يعلم من أين أتى هذا الجندي ولا إلى أين يتجه، إلى العالم السفلي في تل أبيب أم إلى الجامعة العبرية؟ في الجسر تلتقي طبقات الشعب الفلسطيني جميعاً، الجسر تجربة اشتراكية، ولم يعرف الجسر الـ«في. آي. بي.» VIP إلى أن جاءت السلطة وجاء معها من لا ينتظر على الجسر ويفاوض المحتل باسم المنتظرين المزدحمين هناك. على الجسر يلتقي العائدون من الخليج بالعائدين من الولايات المتحدة بالزائرين من الأردن... كلهم على الجسر ثم لا تلبث أن تتفرق دروبهم في السيارات. هنالك من لدى قريبه «علاقات» وينتظره بسيارة فارهة، وهنالك من يربط الحقائب على ظهر «السرفيس» طبقة، طبقتين، ثلاثة إلى نابلس، أو رام الله، أو الخليل، ومن هناك سيارة «سبشل».

ولا أكثر تعبيراً عن موسم عبور الجسر من قوافل «المرسيدس سبع

ركاب» الصاعدة بتثاقل من الأغوار بطريق الجفتلك إلى نابلس أو إلى رام الله طريق القرنطل، ونوافذ السيارة مفتوحة، والركاب صافنون بعد التفتيش وحر الأغوار وإنعدام التكييف في السيارة التي يخشى سائقها ألا تحتمل الوزن والمكيف وتسلق الطريق المنحدر سوية، والهواء يلفح وجوههم ويُصفِّن حتى المشغول باله، حتى عن الصفنه.

كل الناس تعرف هذه السيارت وتحترمها، تساعد ركابها إذا وجب، لا يعرفهم أحد، ولكن الجميع يعلم أن هؤلاء بدأوا طريقهم قبل الفجر، وكل فلسطيني يستطيع أن يتصور من دون أن يعمل خياله طريقهم على الجسر. ولكنهم في البداية لا بد أن يصلوا إلى الحاجز، أول حاجز قبل الوصول إلى البيت. يصلونه مقسومين إلى معسكرين: معسكر الذين لا يهمهم بعد الآن شيء:

- يفتشوا ولاّ ما يفتشوا، أكثر من الّي صار ما راح يصير، وأكثر من القرد ما مسخ الله.

ومعسكر المتوترين مثل القوس المشدود قبل الحاجز، ولا يجلسون بارتياح طيلة الطريق في السيارة وهم يفكرون بما يمكن أن يحصل، لا يريدون أن يحلوا الشنط مرة أخرى وأن «ينعفوا الأغراض» من جديد ثم يعيدوا الحزم والترتيب مرة أخرى:

- بعدين هون مش زي في المطار ما حد بساعدك ترجع ترتب الشنطة، وبعدين في الشارع ننعف الأغراض؟ الله يستر ويمر هالنهار على خير. وبعدين مع هالمصيبة عشرين سنة وإحنا على هالحال كل صيفية بهدلة تنتين تلاتة عالرايح وعالراجع.
- سألتي يا ماما دار خالتك كيف الحاجز اليوم؟
- هلأ شو بتستفيدي إذا عرفتي؟ صرنا هون هلأ منعرف.
- بتستكثري علي سؤال وجواب قدام الناس؟ شو بصير بعدين لو جاوبتيني؟ دافعة مصاري إنت حق الحكي؟ ليش بتطلعي حواليكي مستحية بإمك يعني؟
- وبعدين يا ماما خلص بتدوري عسبب تفشي حالك فيي؟ شو أنا

حطيت الحاجز؟ يلعن أبو اللي حطو. . . منيح هيك خليتيني أشتم قدام الناس؟

مغادرة الأغنية إلى الجسر وعبوره علامة البلوغ، عماد، «بارمتسفا» بلاد الحواجز. عبور الحاجز والعودة إلى الواقع تجربة اكتشاف كذب الأغنية والقصيدة الرومانسية، ثم تآكلها مع مرمغتها في تراب الواقع. والواقع بالعربية من وَقَعَ أي حدَثَ أو سقَطَ، الواقع إذاً هو الحاصل، الحادث، الساقط. الواقع على الارض هو الساقط على التراب.

مكتبة
t.me/t_pdf

[46]

جديد

- كيف الشغل هلأيام؟
- ميت، والله ميت الشغل؟ على كل حال الحمد لله. شو نعمل؟ زفت والله الوضع.
- ما في سياحة؟
- لا ما في، ما إنتَ شايف. وقت جنين كان في صحفيين، كلنا حطينا على قزاز السيارة الوراني والقدماني «تي. في.» ورافقنا صحفيين، يعني مشي الحال. هلأ حتى صحافيين ما في، يعني شوية وفود تضامن مش تبعون دفع ولا تكسيات، بوخدو فوردات. لا ما في ما في، أخي شو؟ ما إنت شايف، ما في. بعدين مخالفات سير واقفين بكل محل الشرطة. يعني اليومية منحطها مرات مخالفة سير واحدة. لا ما في ، ما في، ياخي ما في... من وين بدنا نجيب شغل، خليها مسبحة.
- إيه كنا حكينالك معهم بجنين يصمدولهم كمان شوي من شان حضرتك تنصمد ورا الستيرنج وترافق صحفيين. هلأ قديش بدك لبيت حنينا؟
- ياخي! حياك الله! ما راح نختلف.
- «حياك الله»، معناها راح نختلف. كل شي أوله شرط آخره رضا، مش هيك ياخي؟
- توكل على الله، خلص.

- خلص ما دامك قلت توكل على الله مش حياك الله، معناها أنا ارتحت، وما رح نختلف، قول من فضلك خلصني!
- حياك الله على كل حال، خلص ما تعقدها، لما نوصل بقلك. هو في شي مضمون؟ اليوم غير شكل عن كل الأيام في كل زاوية حاجز.
- ما هو كل يوم في حاجز ورا كل زاوية.
- لا بس اليوم غير شكل ما بتخلص من واحد بيجيك التاني بعد ثلاثين متر.
- الظاهر عندهم اليوم بلاغ أو خبر عن عملية.
- فكرك؟
- يمكن، أنت شو فكرك؟
- أنا مش عارف، أنت شو بتقول؟
- الله اعلم.
- هويات!!
- اسألهم! شو رأيك تسألهم؟
- فكرك؟ اسألهم أنت!
- أنا أسألهم؟ أنا قلت اليوم غير شكل؟
- افتح الباغاج، باغاج، قوم افتح!!! خلي هويات معي، شو في هون بالكيس، أنت من وين؟ لوين رايحين؟ مالك ليش ساكت؟ بحكي معك أنا، شو أطرش ما بتسمع؟؟
- شو رأيك هلأ أسألو لشو مكثرين حواجز اليوم؟
- لا ما تسأله، بلا ما تسأله، شو في؟ حاجز، شو يعني في جديد؟ حواجز هاي! عن شو بدك تسأله يعني؟
- أيوه منيح، قديش هلأ بدك لبيت حنينا، وبلا ما تغير الموضوع هالمرة؟

[47]

هوية

«كول هعولام كولو جيشر تسار مئود، جيشر تسار مئود»
كل العالم، العالم كله، جسر ضيق جداً، جسر ضيق جداً

الراب نحمان من براسلاف...
أغنية حسيدية

ملامح تعبة لم تبق منه إلا اللطافة والأدب، وعيون منطفئة عن التعبير. رجل شرقي هادئ، في برد اسكندينافيا، يرتدي المعطف ولكنه يبدو ملفعاً به كأنه بطانية وليس ثوباً. ومهما حاول أن يدفِّئ نفسه يبقى شاعراً بالبرد، ويبدو برداناً. تعب وبرد وعدم انتماء، هذا ما يحمله الرجل داخل معطفه. هو لا ينتمي إلى الفضاء الأشقر الطويل القامة الذي يضم ما يضم من الفايكنغ وحتى الليبرالية والريف الجبلي الذي أصبح بترولياً، ولا المكان ينتمي إليه. إنه لاجئ ينتمي إلى اللجوء، اللجوء وطنه، واللجوء في دولة عربية وليس في اسكندينافيا، اللجوء بين قومه، بين ذوي القربي الأشد مضاضة هم وظلمهم.

إنه «لجوء حاف» ذلك الذي ينتمي إليه وليس لجوءاً سياسياً. يبحث في كل مكان عن تجمع عربي يتحدث بشؤون السياسة العربية فلا يجد إلا ما هرب منه وأدمن عليه من تنظير فقير كأصحابه «أبو العشر قروش» أو «بالوقية» حول المؤامرات والخيانات، ومعلومات مكررة عن حياة هذا القيادي وما فعله ذلك الزعيم. وكلها من مصادر موثوقة لا تلبث أن

تصبح هي محور النقاش، من الذي نقل هذه المعلومة ومتى وهل يصح فعلاً أنه صديق ذلك الرئيس الشخصي، وهل يعرفه شخصياً، ولكن المعلومة تعلك وتجتر لتؤدي إلى المزيد من الجوع والسمنة في آن معاً، تخمة من دون شبع. نقاشات غنية بالكالوريات فقيرة بالبروتينات، من النوع الي يجعل للإنسان النحيل كرشاً. المزيد من اليأس والإحباط في غرف معبقة بدخان السجائر، أو في مقاهٍ يشكك فيها بدور الفضائيات العربية المحيِّر وقد باتت صلة الوصل المشكوك فيها مع الوطن، وهل هو مرتب سلفاً، وهل هذا النقاش هو أيضاً جزء من المؤامرة؟

لا يشارك في هذه النقاشات ينظر من حوله بصمت، ويبتسم كأنه يعتذر للـ«أجانب» في المقهى عن الصوت العالي وعن هذه النقاشات التي لا تنتهي، وكأنهم يعرفون متى بدأت.

ولكنه لا يشارك لقد فقدها، ضيَّعها. كان متحمساً في الحركة لهذه النقاشات التي لا تنتهي، ثم عندما انشق عن الحركة وأمضى أكثر من سنتين مع المنشقين استغل بقية الطاقة المتبقية ليشرح لماذا خاب أمله من المنشقين. وبعد أن لم يتبق من الأهداف التي انشقوا من أجلها شيء يُذكَر ضاعت حتى هذه الثمالة، ولم يبق منها إلا وحل في قاع نفسه. ولم يعد يقوى على أي نقاش منذ أن لوحق لأنه انشق عن المنشقين. ولم يعد يدري ما السبب الأول الذي كان وراء كل ذلك، وهل يذكره أحد؟ ويبتعد أكثر فأكثر عن الحقيقة التي تحمس لها. لقد كان مهنياً ثم نقابياً عن المهنيين ونائباً لرئيس النقابة. ثم نسي المهنة والعمل النقابي ولم يتبق منه إلا فصائلي محترف، وما لبث أن نسي الفصيل الذي انشق عنه ولم يبق إلا أن يتخلص من الانشقاق عن الانشقاق. تعب أبو السعيد من المؤامرات الصغيرة، ومن الكذب، والفهلوية، ومن الكذب عن الكذب. تعب من المنافسة بين الفصائل للسيطرة على النقابة وأنهك من البحث عن التمويل وأرهق من التعب والإنهاك... ومن النقاش حول الهدف المرحلي والنهائي وحول الفاصلة والنقطة في البرنامج. استنزف ابو السعيد، استنزف ولم يبق منه إلا هيكل بشري ملفع بمعطف، لا يستطيع أن يعيش في تلك البلاد من دون جلسات العرب، ومنهم من لم

يتعب، لأنه من الأصل عديم الإحساس بما يتكلم عنه، بلع راديو ولا يتعب من الكلام، يتكلم من دون عاطفة، ومن يتكلم من دون عاطفة أو إحساس لا يتعب من الكلام. لا يستطيع الحياة في الغربة بدون هذه الجلسات ولكنه لا يستطيع أن يشارك فيها. ناضل أبو السعيد وسهر كالعادة على «القضية» موضوع السهرات جميعاً، وناقش حججاً بعدد السجائر وخوَّنَ... وتزوج متأخراً. وهو الآن ابن الخامسة والخمسين وأكبر أطفاله وجد لا تتجاوز التسع سنوات، وهو يحبها حباً جماً، وكلما ازداد تعباً ازداد حباً، وكلما انطفأ توهجت تحت رماده تلك الجمرة حب وجد. أبو السعيد ما زال وطنياً مخلصاً، وهو لا يتمالك نفسه ولا دموعه عندما يشم رائحة البلد عبر مظاهرات غزة والضفة وعندما قدَّمه للحضور ليلقي محاضرة في ذلك البلد النائي.

تركها أبو السعيد، تركهم جميعاً، وطلب اللجوء السياسي ليس من أجله بل من أجلها، من أجلهم. يريد أن يورث لهم على الأقل هوية، جواز سفر يعبرون به الحواجز والحدود. فبعد أن فقد التفرغ في النقابة وبعد أن أفرغت الـ«منظمة» من النقابات والإتحادات أصلاً، لم يعد لديه أداة ليعيلهم، وهو يقتطع الآن من مخصصات اللاجئ السياسي ليرسل لهم، وهذا هو السبب الحقيقي لتوقفه عن التدخين وربما عن النقاش أيضاً، كأن التوفير والتقتير يصبح شاملاً عندما يطأ النفس التعبة.

واللاجئ السياسي لا يستطيع أن يعود لزيارة وطنه أو البلد الذي قدم منه بحكم تعريفه، ولذلك فما عليه إلا أن ينتظر حتى توافق الحكومة التي يتابع تصريحات قادتها على طلب لم الشمل الذي قدمه منذ عامين، ينتظر دون أن يراها، يراهم، ويتألم بصمت بطبعه الهادئ. طبعه المظلوم، نعم هنالك طبع مظلوم ومغلوب، هو ليس طبع كل مظلوم. إذا رأيت صاحبه تدرك أنه تعيس إلى أبعد الحدود من دون أن يحدثك، وقبل أن يتكلم. إنه ينتظر بلا أمل... وما هو الأكثر إثارة للحزن من أمنية يعرف صاحبها أنها لن تتحقق.

وهو يمضي الوقت بين المقاهي وفي تتبع الأخبار حول البلد، وفي متابعة أخبار من يعرفهم صغار الجيل والموقع وصغار النفس أيضاً

وأصبحوا يبرزون في الفضائيات كقياديين، وهو يتألم لأنه يعرفهم ويعرف ماذا يساوي كل منهم، في العصر الذي ينتظر هو فيه فرج الغربة لعائلته، ولا ينتظر العودة لنفسه، بل الغربة لنفسه ولأولاده. ولا يبدو أن هذا الفرج سوف يسعده ولكنه يأمل ويراهن أن يسعدها، هذه الآن أمنيته الصغيرة التعبة، وليس لديه حديقة أخرى ليزرعها مثل كنديد. وهو على أية حال لن يلبسها في الغربة لباساً شرعياً حفاظاً عليها في مدارسهم، بل يريدها أن تكون مرة واحدة غير لاجئة، سيتحدث معها العربية لكي لا تنساها وسيجعلها تحب ما فقد هو، ولكنه لن يظلمها، ولن يتعصب للدين ولن يحوله إلى هوية في الغربة فجأة. إنه تعب ومنهك، ولا يبحث عن بدائل لما فقد، يريد فقط أن يضم ابنته بنت التاسعة إلى صدره.

- بابا تعال!

خاطبته على الهاتف

- إنت عارفة إنه لازم أبقى هون، مبارح حكيتلك ليش لازم أبقى. عشان الهوية.
- بابا خلص تعال، ما بدنا هوية، بدنا اياك انت.

[48]

انهيار الحواجز

سماها أهلها فلسطين من منطلقات وطنية، وخلال عمرها القصير سنحت لها فرص عديدة لتبدي فخرها بالاسم. أصبحت فلسطين راقصة شرقية، «راقصة بطن» بالعبرية، أو راقصة وسط، وإسمها الفني تينا، وما لبث أن تحول إلى اسم الدلع الذي تنادى به في هذه الأيام. تينا فتاة معذبة تنوء تحت وطأة صراع الهويات وتشعر أنها مظلومة، و«لا أحد يفهمها».

في هذه الأيام يتجول في دولة الحاجز الكثيرون الذين يبحثون عن أحد يفهمهم، ولا أحد يفهم لماذا يريدون أن يُفهموا أكثر من غيرهم إلا الصحافيين من دولة الحواجز ومن بلاد الحواجز، بحكم المهنة وبحكم الترويج لأزمة الهوية؟ وعندما تبحث لا تجد ما يحتاج إلى عبقرية ليُفهم. أزمات عاطفية توجد عند الجميع. كل إنسان يتساءل صباحاً، إذا لم يفقد إنسانيته، عن المعنى لماذا يستيقظ؟ ولماذا يعمل؟ وما الهدف من ذلك كله؟ كل إنسان، من يريد أن يُفهَم ومن لا يريد أن يَفهم. ولكن من يريد أن يُفهم ينقسم إلى نوعين: من يريد أن يفهم فعلاً بغض النظر عما هناك ليفهم لأنه بحاجة إلى أصدقاء وإلى من يصغي، وكل إنسان لم يفقد إنسانيته يحتاج أحياناً إلى من يصغي، ومن يريد أن يجعل من ذلك موضوعاً إستعراضياً فيذهب ويعلن في الإعلام مثلاً أن لا أحد يفهمه ، وأنه ينوء تحت صراع الهويات. لا يعلم إذا كان عربياً أولا أم إسرائيليا أولاً وعربياً ثانياً ورجلاً أو مرأة ثالثاً ومسيحياً أم مسلماً أولاً أو ثانياً، وكيف أن هذا يعيق اندماجه، وأن العرب يتعاملون معه كأنه يهودي

واليهود يتعاملون معه كأنه عربي، وشعبي يحارب دولتي، ودولتي تحارب شعبي،

- ومن وين لوين دولتك؟
- وليه ما بتقول ومن وين لوين شعبك كمان؟
- لا ما رح أقول.
- ليه؟ في عرب بقولو إني مش عربي.
- أيوا، لا أنا ما بقول. أنا بصرّ إنك عربي. لأنو برأيي في عرب هيك مثلك وغير هيك، وفي أسوأ من هيك. هون وهناك، وفي ناس بقولوا عنك مش عربي، وهم عرب وأسوأ منك. وعربي أم لا، هذا مش موقف ولا فكر ولا أخلاق، إلا إذا أنت بتحولها هيك، ساعتها بكون موقفك زي قومجي متطرف ومتعصب وغاضب ومشغول بهويته وحدودها، ولكن مقلوب بالعكس. يعني أزمة الهوية اللي بتحب حضرتك تتاجر فيها كثير لحتى الناس تفهمك وتتعاطف معك هي الوجه الآخر للتعصب للهوية.
- ما فهمت.
- أيوا لأن راسك مقلوب ما رح تفهم.
- عل كل حال شوف يمكن جمهور المشاهدين يحللك هالأزمة، أو الصحافي اللي بقابلك، أكيد متفهم هو كثير خاصة تعابيره بتوحي بهيك عالهوا.
- ليه بتسخر من البوح بالمشاعر في الإعلام، كمان هاي هز خصر.
- أنا مش ضد هز الخصر، بس ضد إنه ينعمل منها ايديولوجيا وقضية هوية واستعراض إعلامي وأزمة، كل واحدة حرة بخصرها إذا كان يهودية أو عربية، بس لشو بتعملوا منها قصة انتماء وهوية وأزمة وايديولوجيا، أكثر ناس عندهم هز بطن هم العرب. أيوا.
- وما بطلعوا نجمات رقص يحكوا عن مشاعرهم في التلفزيون عند العرب؟

- عند العرب وعند العجم، وراقصين وراقصات، وعارضات وعارضي الأزياء إذا بعرفوا يحكوا جملتين بيكفي. بطلعوا وبحكوا عن أي شي، عن الزواج عن الحب والطلاق وعن الألوان وعن الأبراج وعن «الفن»، وكمان الممثلين والممثلات، وحسبة خضار وما حد سائل، واللي بدو يشتري يشوف ويسمع بقدر يشوف ويسمع، واللي ما بدو ما بشوف، وبتظاهر مثلي إنهم أحرار والجمهور حر ومش مضطرين أحسن ما نتهم أنه إحنا ضد الحضارة وحرية التعبير، وضد الفن يمكن. وفي الواقع هذه ثقافة مضرة وسطحية وسخيفة، والشباب لما بخاطبوا غرائزهم ما بكونوا بالضبط أحرار لأن الغرائز عكس الحرية، الغرائز ضرورات، والضرورات عكس الحريات. وما فيك تربي شباب بمخاطبة غرائزهم وتثويرها دون عقلهم أو عاطفتهم وبعدين تقول هم أحرار اللي بدو بيسمع واللي ما عاجبو ما يسمع. على كل حال هذه قضية أخرى، وظاهرة موجودة في كل مكان فيه تلفزيون وناس بدها تربح فلوس، بس تحويلها لأزمة هوية وايديولوجيا هذا هنا خاص بنا، لا... بكم، بتعرف فينا كلنا مش مهم، بدي أحط نفسي معك في نفس المجموع أحسن لتقول إني بنفي عروبتك أو عروبتي.
- بس في ناس كثير بتهتم إني عربي وبعاني من أزمة هوية، ويبدو أن هذا الموضوع بهم كثير ناس، شو عرفك؟ يمكن هم كمان بعانوا من أزمة هوية.
- أيوه وظهورك الإعلامي بدو يحل أزمة هويتك أم إنه بدّو يثير تعاطف وشجون وغيره من البضائع القابلة للتسويق في سوق معاصر الدموع؟
- في ناس بهمها هالموضوع يمكن لأني عربي.
- أيوه بالضبط في كثير ناس بهمها، وإذا ما بهمها ممكن يصير يهمها، يعني ممكن ينعملها دعاية مثل أي بضاعة، بروموشون يعني. بعدين عند كل الشعوب في رقاصين ورقاصات، ومغنيين

ومغنيات وعارضين أزياء وعارضات، بس لما واحد، أو وحدة عربية، بيشتغل شغل زي هيك في أوروربا أو أميركا منتبع أخباره، إما غيرة وتخلف وعصبية وتعصب إنه كيف عربية وعارضة جسمها هيك في ميلانو مثلاً يعني لأنها عربية مش لأنو القائل ضد عرض الأجسام كمبدأ، أو شعوراً بإنه هي أو هو بمثلونا وبشعرونا بالفخر. وفي عندنا ناس دايماً بتحب تعبير إنو «أول عربية في عرض أزياء في باريس» أو «أول عربي طيار في إسرائيل» أو «أول عربية مضيفة على طائرة ال عال». كثير منحب هاي قصة أول عربي، مش أول ولا ثاني ولا ثالث حاف، أول عربي أو عربية. بدك أزمة هوية هاي أزمة هوية، بار أكسيلانص.

أهلها اسموها فلسطين، كفرد هذا ليس ذنبها أنهم ورطوها باسم من هالنوع. وبعدين الاسم لازم يكون اسم فقط وليس موقف. لا يعقل انه عندما تخاطب شخصاً باسمه تتوقع منه سلوكاً معيناً أو يخيب ظنك به أو بشكله فقط لأن اسمه خلق لديك توقعات، غير معقول أن يخلق الاسم توقعاً، ولكن هذا وضعها. وعندما تحاول أن تجتاز الحواجز التي خلقها اسمها وعقلها وحياتها وبيئتها ينهار كل شي مع اجتياز الحواجز النفسية، ومن الصعب لملمة الشظايا حتى على صبي موهوب رافع راس أهله ولم يستعص عليه «لوغو» واحد كما يدعون في كل سهرة:

- لأنه هالصبي ما بلاقي قطع كل ما يحاول يركب بلاقي حالو بقشر، وتحت كل قشرة قشرة أخرى، صايرة مثل رأس البصل، كله قشور ولا يوجد لب، محاولة التحليل نتيجتها الدموع.
- مش فاهم ليش الناس بتحب تقشر بصل وتدمع أمام الجمهور في التلفزيون.

وقديماً قالت العرب

- يا كلنا روس وما فينا قنانيرِ.

[49]

جنازة 4

توفيت الحاجة أم محمد، استشهدت. ويقولون أنها تمنت ذلك. ولكننا لا نعرف أحداً سمعها تقول هذا. وكنا قد سمعنا من كبار السن من تمنى المنية أثناء الحج. ولا نعتقد أن الحاجة فكرت بالاستشهاد عندما جلست على شرفة البيت تراقب الشارع الممتد على طول انحدار التل من جهته الغربية، وهي تشرف عليه من شرفتها، في نوع من «يوغا» الفقراء الذين يصفنون بالشارع من الشرفة، ولا ندري إذا كانوا يصفنون أم يتفرجون، وأين تقع النقطة الفاصلة بين الصفنة والفرجة، ومتى يلتفت النظر وتشرئب الأعناق: «... مش هذا ابن فلانه؟ شو بعمل هون؟ أكيد رايح عند دار فلان، مش خلص قطع الحكي ورجعوا تركوا بعض لشو بعدو رايح جاي». والشرفة واتساعها، وكاشفة أم لا، هي من أهم صفات المنزل، فبدونها «المنزل بغم على القلب» وغالباً ما ثارت طوشات ونزاعات لا تنتهي لأن فلاناً عندما بنى بيت و«سد النظر والمنظر» على بيت فلان.

- ومن يومها ارتفع عنده السكري وما نزل، هذا إضافة للضغط، كل شقا عمره حطو بهالبيت عشان ييجي ويسد عليه النظارة.

ويطول النقاش ولا ينتهي: ماذا يسبق الآخر في أهميته الشرفة والموقع أم الجيرة؟

- وشو معنى الفرندا إذا الجيرة اللي بطلّ عليها بتسمّ البدن.
- وشو معنى الجيرة المنيحة إذا الواحدة مخنوقة في البيت، وما بتقدر تشوف وجه ربها هيك بعد ما يخلص شغل بيت؟

لم تبحث الحاجة عن الاستشهاد ولا حتى فكرت بالموت وهي صافنة تنظر إلى قافلة سيارات الجيش الصغيرة تعبر الشارع من المستوطنة نحو البلد القديمة مروراً بالشارع، وقد بات منظراً مألوفاً لا تشرئب له عنق. وهي على أية حال لا تعرف أياً من الجنود ومن أهله. وقد ضحك منها أولادها، وما زالوا يروون كيف سألت إبن أخيها عن زوجته التي عاد بها.

- ألمانية يا عمتي هاي.

- منيح يا حبيبي، فهمنا، ألمانية! بس ما قلتلي بنت مين؟

ولكن الرصاصة أصابتها في الصدر. لم تكن هنالك مظاهرة. ولو كانت مظاهرة فإن أم محمد لا تخشى المظاهرات والمواجهات، وقد حفيت رجلاها من زيارة المعتقلات والسجون. ومرة كان ستة من أبنائها في سجون مختلفة في وقت واحد. أم محمد مناضلة معروفة، مع أنها لا تحب هذا اللقب. وأبناؤها الثمانية مقسومون بين فصيلين من فصائل الكفاح المسلح الوطنية التي:

- كانت على الساحة قبل ما تخلق حماس.

وهي، صاحبة هذا القول الفخور. وهي القاسم المشترك بين الأبناء، وهو أهم بكثير من الحوار بين «الفصائل».

لم تكن هنالك مظاهرة، ويبدو أن جندياً أطلق النار بإتجاهها من أسفل الشارع ليثبت لزملائه أن الإصابة ممكنة... على أية حال منذ مدة إختلط الحابل بالنابل، ولم يعد أحد يقرأ التقارير حول «خروقات حقوق الإنسان». وأصحاب الحاجز لا يعاقبون جنودهم منذ أن عرفت محكمتهم العليا الحالة بين الحواجز كحالة حرب.

إنها إذاً جنازة أم محمد. وجنازات النساء في بلادنا أصغر حجماً وأقل مكانة من جنازات الرجال. ولكن الحاجة قضية أخرى، إنها جنازة الحركة الوطنية والمعتقلات، وبالتالي كافة الفصائل. واحتشد الناس فعلاً في وداع أم محمد المناضلة وتأدية الواجب تجاه أولادها، الذين حضر الجنازة قسم منهم فقط، والباقي تابع أخبارها من السجن بالبيليفون بعد أن هرَّبه المحامون، فقد أصبح هذا اختصاصهم الذي يتقنونه وإنجازهم

الوحيد كمحامين إزاء الأحكام الصادرة بالجملة وانقطاع الأمل من المحاكم التي باتوا يحضرونها من دون أن يقرأوا الملفات.

وليلة تشييع الجثمان اجتمع الأخوة وبعض قادة التنظيمين في بيت والدتهم، وقرروا قراراً حكيماً ألا يفتحوا المجال لكلمات الفصائل والأحزاب - وأن يتكلم ممثل عن الحركة الوطنية كلها في تعداد مناقب الفقيدة الشهيدة والأم الرؤوم... وإلى ماذا يرمز موتها... ويرد على التعازي أحد أبناء الفقيدة باسم العائلة ... صحيح أنهم اتفقوا على ذلك وهم يضّيفون السجائر لبعضهم البعض، ولكن لاحظ كل نبيه أن ممثل الحركة الوطنية المتحدث من أحد التنظيمات التي ينتمي إليها الأبناء، وأن الابن الذي يرد ويشكر باسم العائلة ينتمي للتنظيم الآخر. وهكذا بقيت الكلمات محصورة بين فصيلين، أي أن احتكار الموضوع تم ترتيبه، ولم يأت بحكم الصدفة. وما لم يفت النبيه لم يفت حتى الغبي من أبناء الفصائل المدرب الحواس على مناسبات الميكروفون وتقدير عدد الحاضرين من دون أن يحصيهم، وعدد الدقائق التي اقتنصها المتكلم الواحد أكثر من غيره.

ورغم أن الاتفاق ألا تلقى كلمات، إلا أنه أثناء إلقاء الكلمة باسم الحركة الوطنية كلها، وعلى هذا الأساس أيضاً قدم صاحبها، بدأت الهمسات والوشوشات تنبعث من وكر دبابير في الصفوف الخلفية لتتوسع على شكل مخروط أو محقان فتتسع في طريقها بإتجاه المنصة. ووصلت إلى سور المقبرة والصف الأول كله يهمس. وقد حول سور المقبرة المحتار من وظيفته الحقيقية مؤخراً ليصبح منصة. ثم ارتفع صوت الوشوشات وما لبثت أن تجمعت كلها وتركزت في بؤرة حول «المنصة». والعريف المتصبب عرقاً اضطر أن ينزل لافتاً نظر الجميع بما في ذلك الخطيب الذي أطال كلامه ووصل إلى الخليج والعراق والوزاني والفرانكوفونية وعرض أزياء سيدات لبنان في استقبال الرؤساء الفرانكوفون، حتى تنتهي المحادثة العصبية في أسفل المنصة عند أقدام الخطيب بالضبط. هناك يقف رجال تعابير وجوههم حريصة يدخنون بكثافة أثناء الحديث. وبعد مرور ثلاث دقائق وبشكل متكرر ينزوي اثنان

منهم جانباً يضع أحدهما يده على كتف الآخر في تظاهرة تآمر معروفة عند التنظيمات السياسية، ويعودان على ما يبدو باتفاق يعرضانه على الباقي. وبعد مشاهد عديدة من هذا القبيل تتغير فيها الوجوه من دون أن تتغير التعابير. قفز عريف الجنازة، إذا صح التعبير:

- والآن نقدم لكم كلمة حزب الـ. . .

وكأنه أذن بانطلاق أصناف الململة والوشوشة والتأفف والتذمر مثل النحنحة والسعال الذي ينزل فجأة على كافة حاضري كونسيرت الموسيقى الكلاسيكية النادر في بلاد الحواجز في الاستراحة القصيرة، حتى من لا يوجد في جوفه سعلة يخرجها بالقوة أو يتنحنح على الأقل ليثبت أنه يفهم بالفن، وأصول السعال في استراحة الكونسيرت.

- ما قلتو إن الحكي باسم الكل!!
- انشاالله كل الفصائل بدها تحكي؟
- شو انجنيتو!
- احترموا المرحومة!

ثم بصوت منخفض كأن القائل يخاطب ذاته، ومن يسمعه يسمعه بالصدفة وهذا ليس ذنبه . . أن يسترق أحد السمع له مخاطباً نفسه.

- شو بدكو تكرّهوا الناس فيها ؟

وهكذا تابع الخطباء على سور المقبرة المنهار. وعندما انتصف النهار بدأت جموع المعزين تتفرق قبل نهاية الخطابات، وكانت الحاجة المناضلة قد دفنت قبل الخطابات، والناس قد قاموا بواجبهم.

[50]

عالجسر

شابه «الجسر» في الماضي الحاجز إلى حد بعيد وكأنه حاجز على الغور. كان تجمعاً شديد الإكتظاظ من الناس والحقائب وجوازات السفر وتواريخ الميلاد والأسماء والقصص والسِّيَر في عراء الأغوار، في اللامكان. ومنذ لحظة الوصول كانت الهويات تجمع من الناس، يجمعها الجنود. ومنذ تلك اللحظة يصبح الناس أسرى الانتظار ورهائن الترقب لقراءة أسمائهم، لا يمكنهم التقدم أو العودة قبل أن يقرأ إسمهم بصوت عالٍ. كان ذلك قبل الكومبيوتر والـ«باركسات» و«الهانجرات» والمكيف. وتقرأ الأسماء العربية بأحرف عبرية وغالباً ما لم يتعرف الناس على أسمائهم عندما نودي عليها فيغضب الجندي ويتأجل الدور. إنه لا يصدق أن لفظه الأسماء غريب إلى درجة أن الناس لا تتعرف إلى أسمائها. فالحاء تلفظ خاء، والقاف كاف، والعين همزة، هذا إضافة إلى تركيب هذه الأحرف سوية في نطق عبري لا علاقة له بلحن الأسماء العربية .

وكما لم يتعرف الناس إلى أسمائهم كذلك لم يتعرفوا إلى أحذيتهم في السلال الكبيرة التي تحمل الأحذية المختلطة بعد تفتيشها. وغالباً ما وقفت إمرأة حافية إلى جانب السلة تحاول أن تتذكر ما لبسته هذا الصباح وكأن تغيير الاسم قد غير أيضاً شكل الحذاء في غيبتها، لا بد أن تلفظ السلة الحذاء بشكل مختلف عن الحذاء الحقيقي ، كما لفظ الجندي إسمها وتقبلت ذلك بابتسامة ولم تناقشه حول اللهجة .

والجنود ينادون الناس بعد ندائهم الأول لهم بإسمهم الشخصي. فبعد أن ينادى موخمد خوسين أوسات ابن الثمانين عاماً والذي لم يناده أحد بإسمه الشخصي منذ ستين عاماً إلى درجة أنه نسى إسمه تقريباً.. بعد أن يناديه ويقول

- نعم أنا محمد حسين عويسات.
- أنت موخمد؟

يصفن الشيخ قليلاً .. ماذا يقصد؟ أنا أبو حسين، وكل عمري أبو حسين أو سيدي، أو جدي، أو عمي أو يا مختار، أو يا حاج ولكن لم يناده أحد بإسم محمد منذ ستين عاماً، ولا يعرف أهل البلد ربما أن اسمه محمد وزوجته طيب الله ثراها كانت نادته محمد سنة واحدة لا غير، ومنذ 15 عاماً رزق بحسين وهي تناديه أبو حسين في حضوره وغيابه. إحتار قليلاً.

- أنا محمد.
- شايف الباب اللي هناك يا موخمد... روخ هناك بكولولك شو بتعمل!

هكذا يتكلم معه الجندي ابن العشرين عاماً. وهو لم يشتمه بل سماه وناداه فقط بإسمه الشخصي ولذلك فهو لن يصححه، وكذلك لن يطلب منه أن يناديه يا حاج أو يا عمي أو أبو فلان. والمشكلة أنه بما أنه نودي بهذا الاسم فإنه يبدأ أيضاً بالتصرف بناءً على هذا الاساس. إنه يهرول فاقداً الهيبة مثل شاب صغير السن اسمه موخمد إلى حيث أشير له هرولة شبابية بعد أن يقول، حاضر! ويتلفت وهو يمشي ويسري كأنه شاب فاقد الثقة بنفسه بين مجموعة من الأغراب يتأملونه فيرتبك بالمشية.

ولو كان الجندي في قريتهم لما تعامل مع أوامره بهذا الشكل. لقد حضر الاحتلال إلى القرية وقرع بابه وخرج إليهم مرات عديدة إلى المصطبة، وسألهم بشكل فظ:

- ماذا تريدون، حسين مش هون وما بعرف وينه!

وعندما هدموا بيت «أبو السعيد» قرب الجامع بتهمة سكن ابنه في منزله قبل أن ينفذ عملية، حمل عكازه وركض ناوياً على شر، وفقط أم حسين

الله يرحمها ويحسن إليها منعت المصيبة كأنها سبحان الله تريد أن تموت قبله وأن يدفنها.

لماذا يتصرف هكذا إذاً على الحدود، أو على الحاجز؟ لا يدري أنه لا يدري أو لا يبدو أن «أبو حسين» يفكر ملياً بالموضوع قبل أن يهرول أو ينصاع لأوامر الجندي مبتسماً ابتسامة لا يحب أن يتذكرها عندما ينادونه:

- تعال يا مخمد روخ اكعد هنا واستنى تاناديك، فاهم؟

ربما لأنه غريب ديار خارج البلد. والبلد في عرف أبي حسين هي البلد، بلدهم ما في غيرها، أم لأن الحدود تعني أنه «ولا في محل، لا هون ولا هون». هؤلاء ودعوه وهؤلاء ينتظرونه. وهو الآن في مرحلة انتقالية يريدها أن تمر بأسرع وقت ممكن، حتى لو استجمع شجاعته ليقاوم ويعتقل أو ليستشهد فإنه لا يريد أن يعتقل هنا، ولا أن يتبهدل هنا، بين الأغراب، وبالتأكيد هو لا يريد أن يموت هنا، وهو يعزي نفسه ويتمنى أن لا أحد يعرفه أو يرى كيف ينادون عليه موخمد. هل تأتي هيبة الحاجز من هنا، من موقعه في اللامكان، لأنه بين مكانين، لأن الناس مستعدة لصنع كل الحلول الوسط الممكنة للمرور، لإنهاء الانتقال والوصول من... الى؟

لقد أوصته ابنته الكبرى، ثم أوصاه صهره الذي أصبح في مكان ابنه حسين منذ هاجر إلى الكويت وأصبح يعود في الصيف إلى عمان بعد أن تزوج ابنة بلده المولودة في عمان، أن يحافظ على أعصابه على الجسر، وأن أنسباء حسين قد تحدثوا مع الضابط من الجهة الأردنية، فهو زبون عند صديق لهم، لتسريع معاملته، ولكن عليه أن يمر الجهة الإسرائيلية بجهده، فعليه أن يفعل ما يقولونه له ولن تكون هنالك مشكلة بإذنه تعالى.

ولكنه ليس في البلد. والبلد في عرفه هي بلدهم. ويذكر أبو حسين أن قريبتهم من «عرب إسرائيل» قد سافرت إلى الحج بعد أن سمح لهم بالحج بوثائق أردنية، وبعد أن وافقت إسرائيل على إذن للحج بإعتبار السعودية دولة عدواً من الدول التي أعلنت الحرب على إسرائيل عام

1948، المعروف بعام النكبة، والذي انفصلت فيه أخته عنهم لأنها مزوجة في الدامون ولكنها تعيش مع زوجها في قرية كابول قريباً من الدامون التي دمرت ولم تعد قائمة منذ تلك الأيام. وسافرت أخته للحج آملة أن تلقى أخاها هناك بعد أن رأت ما رأت في حياتها من اعتبار السفر إلى كابول من الدامون تغريبة، وهي مرمى العصا، إلى البيليفون والسيارتين باب الدار والبلدوزر الذي زغردت لما وصل بعد أن «اشتروه ولادها وعملو فيه شركة حفريات».

وفي الحج جرى ما جرى وضيعت جماعتها في مخيم الأردن آخر يوم. ضاعت الحجه باختصار وعندما سألوها الناس «من وين حضرتك يا حاجه، يعني من أي بلد؟» قالت لهم من كابول وما معي شي ولا باسبور ولا شي كلها مع الأردنيين.

وبعد أيام وجدت الحاجة نفسها في طائرة متوجهة إلى أفغانستان، حتى في السعودية قالت الحاجة أن بلدها كابول، ما عرفت تقول إسرائيل أو فلسطين أو الجليل - كابول. طبعاً خافت تقول الدامون:

- احسن يخربطو لأن الدامون ما عادت هناك، بس لو سألوها في كابول في البلد كان ما جاوبت إلا أنها من الدامون!!

[51]

أمبولنس، سيارة إسعاف

لا يخرج الناس أثناء «المنع»، لا يخرجون. وتحاول مجموعة الصديقات والأصدقاء إقناع الناس بكسر المنع أولاً بالضجيج عبر قرقعة الأواني والضرب على أوعية الطبخ والطناجر من شبابيك البيوت- على هذا الضجيج ينشأ تواصل في «المنع»، حيز عام مفقود، قوة تواصل بين المعزولين - قد ينجح بالاحتجاج، بل بالتمرد. التمرد على ما يجري. التمرد على المنع وعلى إدخال الناس في مدرسة داخلية. ولا بأس أنه ليس رأياً عاماً بل قرقعة عامة، ضجيج عام سلاحه أواني الطبخ المضروبة والملاعق الضاربة عليها - قد يخرج الاحتلال مثلما تطرد الأرواح الشريرة من بعض القرى الأفريقية في الـ«ناشيونال جيوغرافيك» بقرع الطبول. ما أجمل وأجرأ اللواتي يحاولن ما استطعن بتواضع طرد الأرواح الشريرة من ليل رام الله بقرع الطناجر، ويمزقن صمت ليل منع التجول ووحدة العائلة المعزولة في منع التجول.

بكت، وهي قائدتهن وأكثرهن نشاطاً وحيوية، لأول مرة حين حدثته كيف يخططون أن ينقلوا المكتب إلى بيوت الموظفين وأن يتم العمل على الإنترنت، وألا يقلق لأن المؤتمر سيعقد في أوانه لو تتم الدعوة إليه مثل الأعراس بتواريخ مختلفة. اختنق صوتها فجأة لأنها ناقمة على تسليم الجميع بعدم الحاجة للقدوم إلى المكتب، وبعدم إمكانية العمل، وبأن ما يجري في الواقع هو عطلة طويلة الأمد.

- آسفة دكتور إحنا يمكن منستحق هيك.

لذلك بكت. لقد قالت السبب، وربما بكت لأنها لا تريد أن «نستحق هيك». انشغل باله بالأمر لأنها لم تضعف أمامه يوماً.

- يمكن إحنا منستحق يسوقونا عبيوتنا بسيارة جيب وميكروفون.

بكت هذه القوية الشخصية المتماسكة والتي كان عادةً يعتمد على رجاحة عقلها. بكت لأنها متمردة أصلاً على المجتمع ومن لا يخشاه لا يخشى الاحتلال، هذا مؤكد.

حاول أن يهدئ من روعها.

- في أسوأ من هيك، في أسوأ من الذين يجلسون في البيت ولا يفعلون شيئاً، في إللي بدهم يتابعوا الحياة بأي ثمن فطلبوا سيارة إسعاف ليسافروا بها إلى الفندق في الجهة الثانية من البلد للسباحة في بركة السباحة. منيح هيك؟
- لا، بتحكي جد يا دكتور واللا بدك تعزيني؟
- أيوا يا ستي. أطفال في سيارة إسعاف تخرق منع التجول متوجهة إلى بركة السباحة.
- مش عارفه أبكي أم أضحك.
- بكيتِ وخلصت هلأ اضحكي. يعني سباحة بدل تهريب سلاح بسيارة إسعاف.
- يعني إحنا هيك يا هيك؟ يا منهرب سلاح بسيارة الإسعاف يا منهرب أولاد للسباحة.
- لأ احنا مش هيك وهيك، إحنا الغالبية اللي بكيتِ لحالها. واللي بتروح عالبيت لمنع التجول وتستخدم سيارة الإسعاف لنقل المرضى إذا استطاعت إليها سبيلاً، هلأ بقدر أقلك بعدما بكيت. عندنا صنفين، صنف قليل متشنج وغاضب إلى درجة حرية استخدام سيارة الإسعاف لنقل السلاح بغض النظر عن النتائج اللي بيتحملوها كل الناس عن أعماله وعن مصير الناس الذين بإسمهم يفعل ما يفعل واللي انفصلت عنه العلاقة بين ما يفعل وهدف ما يفعل. وقسم آخر صغير، أو ما نعرف إذا صغير أم كبير لأنو مش كل واحد يستطيع أن ينضم إليه، مش فارق عنده

إلى درجة استخدام الأمبولنس للترفيه في هذه الفترة. يعني هدول بحبوا يحكوا أسطورة أن اللبنانيين كانوا يقاومون ويمارسون كل أنواع الكيف والبسط في الوقت ذاته- لا، كان هنالك من يقاوم وكان هنالك ناس مثلهم مشغولون بحالهم وكأنهم يقاومون وفي أوقات الفراغ. ولكن يستخدمون سيارة الإسعاف للترفيه. في وقاحة مثل هذه؟

[52]

شاطئ

ـ هل تريدين قليلاً من البحر؟

ـ إن الجنوبي لا يطمئن إلى اثنين يا سيدي: البحر والمرأة الكاذبة.

أمل دنقل

حرم الناس من شواطئهم طيلة المدة المفقودة الواقعة بين النكبة والنكسة، ثم جاء الاحتلال وعادت الشواطئ، وتوحدت فلسطين بين عام النكسة وعام الإنتفاضة الأولى. ومع أن الناس قد نسيت السباحة في هذه الفترة، ونشأ جيل من قرى ومدن الساحل السليب في مخيم الأمعري وقلندية والجلزون والدهيشة وغيرها، لا يعرفها، ولم يذق طعم السمك، إلا أنهم اندفعوا إلى الشواطئ، كما اندفع «عرب إسرائيل» إلى أسواق القدس ونابلس وغزة لشراء ما تبقى من فناجين القهوة والشمسيات والبسط والسجاد واللحوم المعلبة الغير «كوشر» والتي نسوا طعمها من «أيام الإنكليز». وطبعاً هؤلاء قالوا عن أولئك:

- نوَر مش شايفين بحياتهم بضاعة، شو مش كاينين ياكلو عند اليهود، وصايرين يلبسوا زي اليهود، بعدين شو هالوقاحة وقلة الذوق بعرفوش يحكوا ولا يقولوا من فضلك. زي البدوي اللي فايت على مدينة، لا وإيش؟ بدوي وشايف حالو، شو يعني منتصرين هدول في الحرب!

وأولئك قالوا عن هؤلاء:

- نَوَر مش شايفين شط بحياتهم، بجيبوا على الشط طبايخ؟ في حد بيجيب عالشط محاشي؟ وبعدين بنزلوا في المي بملابسهم، أما سواد وجه! طيب اللي مستحي ينزل في المي ما ينزل، ضروري يعني النزلة بالملابس؟ وبعدين كل جمعة بغرق شاب من عندهم.

كل منهم تكلم عما رأى، ولم ير أحد من هم أفضل منه عند الرغبة في التذمر.

ثم جاء الحاجز فحجز الجبل عن الشاطىء مرة أخرى. ولم يعد أحد يموت غرقاً في رحلة بالباص يعود بعدها الباص إلى الجبل ناقصاً بعض ركابه. حجز الحاجز الناس عن الشاطئ. أما البقية التي بقت في «هذه» الجهة من الحاجز كمواطنين في بلاد الحواجز فما لبث حاجز العنصرية أن أعاد باصاتهم بركابها وزواويدهم على أعقابهم عن الشاطئ قبل أن يسمح الحراس للركاب بالنزول. وينكر الحراس طبعاً في دولة الحواجز أنهم فعلوا ذلك لأن الركاب عرب، ولا تتابع القضية بعد إنكارهم. ومع ذلك يصر الناس على العودة و«البهدلة» مرة بعد أخرى.

ولا يفهم وهو الذي يدعي أنه لا يحب الشواطئ من دون هذه الواسطة كيف بالإمكان الاستمتاع وتقضية الوقت في أجواء عنصرية أو في أي مكان ليس هذا المستمتع مرغوباً فيه. قال أميركي يتندر على ذاته إنه لا يقبل أن يكون عضواً في ناد يقبله عضواً فيه. وهؤلاء يصرون ويلحون أن يكونو أعضاء في ناد لا يقبلهم، والصحيح هو لا هذا ولا ذاك، الصحيح والطبيعي في نظره أن يرفض الإنسان العضوية في ناد لا يقبله.

ويبدو أن العنصريين يصبحون أكثر عنصرية في أماكن التسلية والنقاهة وتقضية وقت الفراغ. ويعود ذلك كما يبدو إلى أنهم لا يحتملون أي مكدر أو منغص في وقت التمتع بالوقت. والعرب مكدرون للمزاج، ومنغصون محترفون بحكم موقف العنصري منهم وبدون حاجة للتفكير وقبل أن تبدأ «العمليات ضد المدنيين». وتزداد قدرة العنصري على التحمل وقت الضرورة، مثلاً في أوقات العمل. ولكن لا أحد يشعر أن

وجود العربي في البار أو على الشاطئ ضرورة ولذلك تقل القدرة على التحمل، وتزداد الحاجة إلى الحاجز. ويكاد لا يوجد بار أو مرقص في بلاد الحواجز لم يطرد شباباً عرباً من بابه الذي تحول إلى حاجز، وسمع الناس كثيراً عن زيارات أو محاولات فاشلة لزيارات للبارات لأنها انتهت إلى عملية طعن بالسكاكين ذهب ضحيتها شاب لم يعرف أهله حتى ذلك الوقت أنه يزور ملهى في المدينة المجاورة.

في الصيف الضروري، في الصيف الحتمي الذي لا يمكن تجنبه في هذه البلاد الصيفية تسمع على الشاطئ طق! طق! طق! طق! كل شعب يصبح أكثر شعبية على الشاطئ. وشعب الشاطئ يلعب تنيس شاطئ، أو شواطئ، بمضربين خشبيين وطابة سوداء مطاطية، ومع كل طق! تمتد اليد وتعرض العضلات، وربما قفزة جانبية على الرمل لتلقي الطابة من ارتفاع منخفض، وما أن يصل الجسم الأرض بوضع أفقي حتى يقفز من جديد كالقوس المشدود. يدوم التنيس طيلة الصيف ويمتد على طول الشاطئ. والفتيات ذهاباً وإياباً بأقل كمية ممكنة من القماش وأكبر قدر من الاستعراض. يلزم المرء مزاج خاص لتحمل سلوك الشعوب في التقلب بين الانشغال باللباس والانشغال بالتعري كأنه لباس.

فوق الشاطئ على تلة رملية ترتفع بناية مطعم، وفوق المطعم ترتفع مئذنة تكشف ماضي المطعم. أضيفت للمسجد شرفة واسعة تمكن رواد الشاطئ من إلقاء نظرة على البحر وهم يحتسون البيرة: «مكابي... إنها لوقاحة إسرائيلية» تسمع كلمات الأغنية- الدعاية لهذه البيرة. بهذه الضعة تروج هذه الجعة.

إنها أول مئذنة تعين مشرفة على مطعم، وأول مسجد مع شرفة على شاطئ البحر، على وزن «أول عربي يعين كذا»، و«أول عربية ملكة جمال إسرائيل»، و«أول محطة تلفزيون فضائية عربية من بلاد الحواجز»، و«أول عربي يعين كولونيل في جيش دولة الحاجز»، و«أول وزير عربي» و «أول من قال» ويا ريته ما قال، «وأنا أول واحد» و«أنا أول من قال مش هو» ثم: «ولأول مرة في البلاد» و «أولك يا اسكندراني..» و«الأولة آه.. والثانية آه».

- شو هاي
- هاي لعبة كنا نلعبها إحنا وزغار
- وشو جابها هلأ
- ما بعرف، تداعيات، أول، وأول واحد، ولعبة
- ما فهمت
- ولا أنا

في أسفل الشرفة يستمر الـ«طق» «طق»، وفي المطبخ يغسل الأواني عمال عرب - عندما كان الحاجز يمكّنهم من غسل الصحون في مسجد سابق، وقبل أن يحل محلهم تايلنديون وأفارقة.

قال له صديقه عندما حدثه عن ذلك بالألمانية:

- لماذا لم ينزلوا المئذنة إذاً، كما فعلوا في القرية التي أخذتني إليها حيث تحول المسجد إلى كافيتريا للفنانين ولكن بدون مئذنة؟

صحيح المسجد أصبح مطعماً وصحيح أن أبناء القرية ذاتها يعملون فيه يأتونه من قرية تسمى قرية غير معترف بها في دولة غير معترف بها، والقائمة إلى جانب القرية الأصلية القديمة التي أصبحت قرية فنانين. ولكن الفنانين الذين حولوا القرية من قرية عربية إلى قرية على الطراز العربي أو الشرقي، كما يفضل أصحاب دولة الحاجز أن يلفظوا، أنزلوا المئذنة، أبعدوها عن أنظارهم، أخفوا وستروا حقيقة المسجد. واقع مركب، كما يحلو للناس أن تقول عندما تريد أن تتوخى الموضوعية، أو إذا لم يكن لديها ما تقوله.

فكر، ولم يعرف كيف يصوغ الفرق بين الحالتين المركبتين لصديقه:

- في ثقافة الشواطئ تعتبر الوقاحة فضيلة وطنية. ولا يغطون هناك بل يكشفون ما هو مغطى، ولا يستترون بل يستعرضون. وما المئذنة المتبقية على شواطئ بلاد الحواجز إلا عضلة ماتشو مكشوفة، وفي أسفلها «طق طق طق طق!!!»، وفتيات يسرن على هذا الإيقاع من دون أن يدرين أنهن يسرن على الإيقاع. كيف أشرحها هاي؟

[53]

صمت

دواؤك فيك وما تشعرُ
وداؤك منك ولا تبصرُ
وتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبرُ

علي بن أبي طالب

فرك الناس عيونهم غير مصدقين لمرأى اليافطة عندما افتتح الطبيب عيادته في عمارة المكاتب عند المنارة، بالضبط في الفترة التي كان فيها آخرون يغلقون مكاتبهم، وبعضها لم يفهم الناس حتى بعد أن أغلقت ماذا يعني المكتوب على يافطتها «وماذا تبيع؟»، مئات من المؤسسات الاجنبية فتحت لها فروعاً هنا في السنوات الأخيرة تفاؤلاً بالسلام ولم تؤخذ هذه المجازفة بناء على اتفاقيات السلام بل بناء على جوائز نوبل الرصينة والمحافظة التي حظي بها موقعوها والتي لا تمنح بدون حذر وتفكير مطولين. وتشير إلى أسماء المؤسسات اختصارات بالأحرف الأولى بالإنكليزية، ولا يدرك كنهها على ما يبدو إلا جيل من الشباب والفتيات المعتنين بمظهرهم بشكل لافت للإنتباه ويشبهون بعضهم بالمظهر طبعاً، يأتون ويجيئون ويحملون «لاب توب» ودوسيهات في حقائب ملونة تتدلى على الظهر من الكتفين، ويلبسون «سبورت إليجانت».

على اليافطة كتب: الدكتور واي إختصاصي علم نفس الحواجز. كل ما عدا ذلك على اليافطة طبيعي، فمثل العديد من أطباء هذه البلاد

في أسفل اليافطة كتب «خريج جامعات ألمانيا» - كأنه تخرج من كل جامعاتها دفعة واحدة. كما لم يستطع إلا أن يضيف مثل غيره من الأطباء الذين لا نعرف عن اختصاصهم الكثير: اخصائي طب كذا وجراحة وتقويم كذا، وكأن الجراحة هي مجرد متمم للقب طبيب. كذلك كتب طبيبنا المحيِّر: أخصائي علم نفس الحواجز، جراحة وتقويم: فوبيا، مانيا، ستريس، هايبر تينشن، أولكوس (في إشارة حتى للأمراض الجسدية ذات العلاقة بالأعصاب) ديبريسيا، ومانيا ديبريسيا وأخواتها. لم يفهم أحد، وقد بدا على الطبيب أنه لا يتوقع ذلك. وقد تعامل مع الناس مثل ممثل مسرحي مبتدئ يتوقع أن الناس مستغربين من إختياره للمهنة ولذلك يبدو ويتصرف كأنه مجنون في حالة تظاهرية من عدم الاكتراث من الدهشة والإستغراب والإكتراث بإثارتها. بعضهم يتثبت في هذه الحالة إلى الأبد لا يبارحها، وتنقلب في حالة الفشل إلى حالة رثاء للذات أو حقد شديد غير مبرر على كل شيء يتحرك، وبعضهم يغادرها إلى حالات أخرى من التظاهر بالجنون، ولكنه يبقى طيلة حياته ضحية الاستعراضية خارج المهنة، وبعضهم بالطبع يغادرها.

السيد س الذي توجه إليه رجل مثقف لا شك بسعة اطلاعه إلى درجة جعل الناس يعتقدون لو رأوه أنه جاء إلى العيادة يزور صديقاً، وليس طلباً للمساعدة. خشي أن يتركز الطبيب بإسمه كما حصل مع الدبلوماسي التشيكي المقيم إعترافاً بحقوق الناس وراء الحاجز الذي اعتقد أن الإسم س قد يشكل أساساً لبناء علاقة ثقافية تبدأ بالسؤال هل إسمه قد اختير بوحي من كافكا. فاضطر إلى الاجابة أنه لا هو ولا والده الذي سماه قد قرأ كافكا أو صموئيل بيكيت أو تأثر بهما، ثم شرح للقنصل المصعوق أن أباه كان معلم رياضيات فخوراً تستحوذ عليه المهنة، وأنه لولا أن الله وحده ستر ولم يرزق بعده إلا ببنات لكن قد سمى أخاه ص. وقد فكر أن يسميه سين الدين على وزن سيف الدين باعتبار الكتب أصدق إنباء من السيف والرياضيات خير سيف بيد الدين، ولكنه خشي ألا تفهمها الناس، وأنه لو عرف كيف كان ذلك الجيل يسمي أبناءه لما استغرب، فهو يعرف الكثيرات بإسم ثلجة، ذنبهن

الوحيد أنهن ولدن في سنة تساقط الثلوج في كافة أرجاء البلد عام 1950، وأن جارتهم سميت إرهاب، وعانت من هذا الإسم لأنها ولدت مع إنحلال ثورة 1936 إلى عمليات إرهابية، ومنهم من سمى ثورة، لتحمل الإسم من أصبحت ربة بيت محبطة من الإسم وأصحابه، وأن الكثيرين في هذه البلاد قد ندروا أنه إذا رزقوا بصبي فسوف يسمونه وحش، وهكذا تجول عدد كبير من الأطفال النحيلين والقذى بأعينهم يثيرون الشفقة إلى أن يفطن المرء أنهم يحملون هذا الإسم الغريب، هذا عدا الذين أصروا أن يسموا كل أولادهم بأسماء حيوانات مثل أسد وفهد ونمر وذيب، أو بأسماء القديسين أو أسماء إيطالية من العقد الثالث للقرن الماضي، وأنه في بلدهم ناسبت عائلة الديك عائلة محشي فكانت النتيجة أنه كتب في نهاية بطاقة الدعوة: تلغرافيا ديك محشي. ولذلك على حضرته ألا يستغرب كثيراً من التسمية، فهو يحمد الله أن والده لم يطلق عليه تسمية فرنسية أو إيطالية على الموضة ولم يسمه «وحش»، أو بيغن أو كارتر كما سمى البعض أبناءهم تيمناً بعملية السلام في حينه.

- شو هالأمراض اللي كاتبها برا عالآرمة يا دكتور؟
- هاي أمراض كل الناس بتعاني منها هالأيام.
- إذا كل الناس بتعاني منها فهذا وباء وليس مرضاً وبحاجة لتطعيم مش لعيادة.
- هيك مجتمعنا دايماً ما بدو شي جديد، وما بستوعب الجديد.
- شو دخل مجتمعنا؟ أنا اللي بحكي معك، بعدين شو الجديد؟ عيادة؟ هذا شي جديد؟ فكرة جديدة هاي؟ ولنفرض أنه جديد، ليش أنا لازم أحيي كل شي جديد؟ نادي الحاجز، فرقة رقص الحواجز، مثلاً، شو يعني؟ فيلم «الحاجز الحاجز»، هاي كمان عناوين جديدة. وفي واحد عالحاجز عجهتنا مقابل اللي مسمي كافيتيريا الحبايب، هو مسمي محله «كفيتيريا الحصار». وشو أعمله يعني؟ أنفعل من العبقرية؟ ورغم التسمية المهيبة يطبخ كل يوم مقلوبة دجاج. ويقسم سائقو التاكسيات أغلظ الايمان أنه إذا بتفحص ببطن كل واحد فيهم بتلاقي نصف كيلو تراب.

- أنا مستعد أثبتلهم أنه هذا وهم من أوهام الحاجز ونوع جديد من الهيبوخوندريا، أمراض الوهم كما سماها موليير.

إشارة صاحبنا إلى موليير أكدت للسيد س أنه أمام حالة متوسطة من الفشل الاستعراضي، ممثل أو فنان فاشل أو محبط

- هم عارفين ما في حاجة لتحليلك، ما بيحكوا جد، هاي نكتة يا دكتور. بنكتوا عحالهم.
- كمان التنكيت والضحك على حالهم هو نوع من الديسونانس المعرفي، يعني التنافر المعرفي، ويتضمن كذباً على الذات وعدم رغبة في رؤية الواقع، وفيها عناصر انكار (دينايل)، «مانيا» واضحة. أنت عارف المانيا دبريسيا بتيجي على نمطين نمط اكتئاب مرَضي مؤلم لا يعرف وجعه إلا من يصاب به ولدى الناس ميل أن لا تتضامن معه لأنه في عرفهم دلع، وفي الواقع أنه ألم شديد في النفس. والنمط الثاني هو التفاؤل والمرح المبالغ فيه غير المبرر، والذي يجعل صاحبة يتذكر «النكات البايخة» ويرويها في أسوأ المواقف ويحرج الجميع بمرحه.

لم يستطع السيد س إلا أن يتضامن مع كلام الطبيب هذه المرة متذكراً أنه عند كل إنسان إيجابيات وجانب من الحقيقة يتوفر في كلامه، ولذلك قال بلهجة اعتذارية:

- بحاولوا يعيشوا، يتكيفوا.
- كل تكيف فيه دفع ثمن نفسي، من هنا تبدأ كل الأمراض النفسية غير الوراثية، أقصد من قمع أشياء فينا للتكيف، بداية بالتكيف مع مجرد وجود المجتمع، وبدون هذا التكيف ما في مجتمع أصلاً، ولكن بدونه أيضاً لا توجد أمراض نفسية، وقس على ذلك... السؤال هو حجم التكيف المطلوب، والثمن المدفوع متغير من إنسان إلى آخر، في أفراد بيتحملوا أكثر من آخرين، وفي آخرين نفسيتهم هشة وحساسة وما بيحملوا أي ثمن... وهيك. التكيف إذاً ليس مقولة بريئة.

قال ذلك ونظر إلى الرجل المتفاجئ من الفجوة بين شكل الطبيب

وكلامه. اعتقد الطبيب أن الرجل تفاجأ من منطقية كلامه مقارنه بغرابة شكله، ولكن الرجل كان متفاجئاً من اعتبار العادي الذي فينا مرضاً. وكيف يمكن اشتقاق غير العادي من العادي؟ ومتى ستصل إلى المرض إذا بدأت التشخيص من وجود المجتمع باعتباره أصل الأمراض كلها؟ كان السيد س يفكر أيضاً بالحاجة المحلية غير المفهومة عند المثقفين: أن يبدأوا بالحديث عن أي موضوع من بداية الخليقة، من آدم وحواء، والتكيف مع بناء ووجود مجتمع. تذكر كيف مرة حضر محاضرة لدكتور من جامعة محلية بدأ محاضرته حول «الأمثال الشعبية بين العامية والفصحى» بنبرة عالية على نفس سحبة نفس باسم الله الرحمن الرحيم بالعبارة التالية: «تكلم الإنسان أول ما تكلم...» وغاص بعض الجمهور في مقاعده، لأنه إذا بدأ المحاضر هنا، فهذا يعني أن الأمر سيحتاج إلى وقت ليصل إلى الموضوع.

- إنت لشو جاي لهون، لمقابلة صحافية حول علم نفس الحواجز؟
- لا أنا فكرت احكيلك بعض الأعراض مع إني ما شفتها عاليافطة عندك، بس يعني شو بخسر؟
- بتخسر كشفية، من هذه اللحظة فصاعداً ما في كلام مجاني بدون مقابل. احسب حالك رحت عند محامي!

قالها بنبرة عملية تلائم رجل أعمال مفاجئاً السيد المحترم س من جديد. وكأنه صحّاه على أن العيادة النفسية هي أيضاً جزء من الواقع الذي يجب عليه أن يتكيف معه.

- هو أنا هارب من المحامين، وأبحث عن حد يسمعلي.
- ما في عندك أصدقاء؟
- عندي بس علكنا الحكي واجترياناه كثير ويعانون من نفس الأعراض، وكثير منشكي لبعض، وصرنا نشكي من الشكوى. وبعدين صارت الشكوى تشكل إزعاجاً لصداقتنا، صرنا لما نشكو نحس حالنا أغراب، لأن هالأيام حتى اللي بالتكسي بشكيلك، وفي ناس بتتصل عالتلفزيون لتشكيلك، وصرنا نسكت مع بعض لأنه بس الأصدقاء بسكتوا مع بعض هالأيام.

- وأنا صامت، لتفهم انه انت جاي عند دكتور، لأن الصداقة ممنوعة عندنا في العلاج. وبعدين أنت نفسك بتقول إن الصداقة أصبحت تعني أن يصمت الناس سوية.
- أيوا صحيح.
- إذاً قرر!
- أقرر، تقصد صمت طبيب أم صمت صديق؟
- لا، قرر صمت صديق أم كلام مع طبيب.
- ما بقدر أقرر قبل أن أسمع الكلام. على كل حال أنا بدي احكي وانت بدك تسمع، وكلامي وبعرفه.

نظر حوله، وقدَّر من شكل العيادة، وجدرانها العارية، والعمارة التي تبدو أصلاً مهجورة بدون أبواب، وبدون صواني الشاي والقهوة الغائبة عن مطلع الدرج أن السعر لن يكون مرتفعاً، ثم إن الجميع يعلم أن الأوضاع لا تسمح. وهنالك انخفاض كبير بعدد الزبائن لأي شيء، فكم بالحري الأمور الثانوية والكماليات من نوع التشخيص النفسي؟ فنحن لسنا في الولايات المتحدة، حيث يذهب الناس إلى الطبيب النفسي بسبب مزاج سيئ، أو عدم قدرة على احتمال روتين العمل، أو بسبب كابوس متكرر لا يكلف الإنسان هنا نفسه عناء الحديث عنه، إلا ربات البيوت عند البحث عن الحظ، البخت، في قاع فنجان القهوة العربية بعد شربها للمقارنة بين الحلم وما ينبئ به الفنجان. وقد سمع من يساريين في دولة الحاجز أن إحدى الفتيات أخذت قطها للطبيب النفسي لأنه غير عاداته فجأة وأخذ يبول على السجادة في الصالون بإصرار استحواذي لم تنفع معه مناشداتها. وفجأة أحس برائحة بول القطط، وهو أحد أسباب المناكفة البيتية، فقد أتى من بيت احتملت فيه القطط خارج البيت كمبيد للحشرات حول البيت، وحسبها أولاد الحارة قائمة فقط كموضوع لتفريغ ساديتهم التي لا يعقل أن تكون قائمة بهذا الحجم داخل هذه الأجساد النحيلة. ومنذ أن سمع النظرية القائلة إن الحيوانات ترسم حدود مجالها الحيوي بالتبويل فقد ازداد كرهه لوجود القطط في البيت إذ لاحت له فكرة أنها ترسم حدوداً وحواجز داخل البيت أيضاً. فاختلطت رائحة

الحاجز برائحة بول القطط. والقطط البيتية ليست حيوانات بل نوع من نبات الزينة مثل الأسماك الملونة. وخشي وهو يفكر أن يكون قد تكلم، وانتبه أنه لم يتكلم، والحمد لله، لأنه لو بلغت الطبيب استطراداته الاستحواذية هذه وانفضح أمر عقل التداعيات غير المحدودة لديه لقال له إنها بداية انفصام عن الواقع وسكيزوفرينيا، لأن الأخيرة تبدأ بتداعيات غير مركزة بدون «فوكوس» وتنتهي إلى البقاء في عالم التداعيات التي لا يفهمها أحد لأن الرابط بينها يصبح خفياً، بما في ذلك بالنسبة لصاحب العقل المتداعي. توقف فوراً قبل أن تقوده التداعيات إلى اللامكان، وأرعبته فكرة أن يحاول أحد المدَّعين بعد تشخيص بداية سكيزوفرينيا أن يتشاطر عليه بتوجيه الأسئلة للإمساك بخيط من الطفولة يقود إلى مصدرها عبر توجيه أسئلة محرجة إليه.

- إيه هات لنشوف، تفضل!
- يعني الحقيقة الموضوع له علاقة بالحاجز، أنا هاي فاهمها وحدي، ولهالسبب جيت لعندك.

رفع الطبيب حاجبه في حركة ظن حتى اللحظة أنهم يخرجونها إخراجاً في الأفلام، ومهما تمرن لم ينجح في حياته برفع حاجب واحد كما يفعل الجنتلمان الإنكليزي أو البتلر في المسلسلات الإنكليزية عندما يتعجب من أمر لا عجب فيه سوى أنه وقع أمامه.

- فهمتها لوحدك؟
- بسيطة هاي يا دكتور، قبل ما أروح عالشغل بتضايق كثير، في البداية حاولت أتمارض، وبعدين قررت أنه ما معقول وأجبرت حالي آخذ الفورد، هذا اللي حضرتك سميته تكيف. بس يا دكتور ما فيك تتكيف لأنه ما في روتين. يعني الحاجز روتين صار، هاي فهمناها، بس مش روتين يعني كل يوم نفس الشيء، روتين يعني كل يوم يحصل شيء مختلف، ما في إمكانية تتوقع شو رح يصير معك. يعني الروتين انه ما في روتين، ولكن بشكل مفروض عليك، يعني مش انعدام الروتين الذي يعني الحرية، بالعكس انعدام الروتين الذي يعني الاستعباد للقلق. ويبدو انه

ثمن التكيف غير الممكن عندي هو حالة عصبية مستمرة طيلة ساعات اليوم، لأنه في حالتي الحياة دائماً قبل الذهاب إلى الحاجز. حتى ما بعد الحاجز هو في الواقع ما قبل الحاجز. صرت أعرق كثير، ويأتيني وجع صدر لدرجة أن الأطباء وزوجتي ما عادوا يصدقوا، حالة اختناق بخلص النفس أمام التلفزيون بعد الأخبار خصوصاً عندما يهاتف المستمعون الفضائيات، منيح أنا عارف إنه في نفس، وإلا كيف عايش؟ بس هيك أنا عايش، خايف كل الوقت يخلص النفس، خصوصاً برا البيت، ولهيك بحب ابقى في البيت. حتى التلفزيون بذكرني ببرا. صرت أمنع فتحه أثناء وجودي ، أو بسكر الغرفة على حالي لما العائلة بتشاهد التلفزيون. وهذا اللي محيرني، إن المرض النفسي كلاستروفوبيا هو خوف من الأماكن المغلقة، ولكن أنا عندي خوف من الأماكن المفتوحة، يمكن اغورافوبيا؟.

- اللي أنت سامع فيها هاي كلاستروفوبيا، وانت اللي عندك باريفوبيا، مش من برا، من «باريز» يعني حاجز. تبقى ماشي برا وخايف يطلعلك حاجز. بعدين هذا الثاني هو وجه آخر للأول، وكيف ما درت مسكرين عليك مع إنك برا. لأنه في الواقع برا هي بالنسبة لك جوا، لأنه من كل النواحي حواجز. من هون حاجز وهناك.

قالها الطبيب وقد بدت عليه علائم خوف وحيرة وهو يقولها، كأنه يرى حواجز فعلاً.

- ليش برتاح بالبيت؟
- لأنه في البيت في تناسق بين الإغلاق والجدران وجواتها بيت، بس هناك برا جدران غير مرئية وفي داخلها ما في بيت، داخلها أنت برا البيت.
- منطقي والله كلامك.
- أيوا، بس مش ضروري يكون هذا مرضك.

قالها بنفس الثقة بالنفس التي يحاول فيها بعض الأطباء نفي شيء بديهي

فقط لأنهم لا يرضون أن يساهم المريض بتشخيص مرضه. وقد يتورط الطبيب ويذهب بعيداً بدلاً من النقطة المفروغ منها لمجرد أن المريض تجرأ وقالها. هنا على المريض التراجع فوراً والإدعاء أنه مخطئ وأنه دائماً يتضح له في النهاية كم كان خطؤه فادحاً قبل أن يتورط الطبيب بفرضيات غريبة. ولكن لم ينفع هذا التكتيك مع الطبيب الحالي والذي تابع فوراً:

- هل كان الوالد يجبركم على الخروج من البيت في نزهة، أو للعمل، أو للاختلاء بالوالدة؟
- يعني إنت والدك كان يختلي بوالدتك وأنتم في غرفة نومهم؟ لا يا دكتور، كان يشد فينا نبقى. يا دكتور هاي الظواهر جديدة عندي، من يوم ما صار الحاجز حاجز. ببقى دايماً متردد وخايف من البهدلة: اليوم إذا قلّي الجندي هيك رح أجاوبو هيك، وخذ هلوسة طيلة الصباح. أو خايف يفلت معي شي زنبرك شي برغي شي عزقة، وارتكب حماقة اللي كل البيت يدفع ثمنها، وبالطريق بالتكسي بعمل حالي إنه والله ماسك حالي بس كل لحظة ممكن يصير طوشة بيني وبين شوفير الفورد اللي مبسوط ومش فارقة معه ومعلّي صوت الراديو، راديو أصحاب الحاجز الناطق بالعربي. طبيعي راديو يعمل فيي هيك هو واللي بيسمعوه؟
- ما بتقدر تعرف، يمكن هاي الأشياء والظواهر كانت عندك موجودة بس هاجعة، غارشة يعني بالعامية، والحاجز إجا وأيقظها.
- واضح، ممكن. بس شو يعني موجودة فينا كلنا.
- إيه موجودة فينا كلنا إذا كلنا بشر بمفهومك، بس فينا بشر بمفهومك وبشر بمفاهيم أخرى.
- وإنت طبيب البشر اللي بأي مفهوم؟
- أنا المريض عندي هو الاستثناء، وعلى هالأساس بفترض القاعدة.

- طيب، يعني أنت بتفترض إنه اللي بمر من هالعتبة مريض، وهو الاستثناء، وعليه بتقيس القاعدة.
- أيوا، لأنه مش معقول يكون طبيعي وييجي على عيادة أمراض نفسية، يكفي انه يعتقد انه بحاجة. وخلافاً للرأي السائد أن «المجنون ما بقول عن نفسه مجنون» الإنسان الطبيعي ما بيعتقد أنه بحاجة لعيادة أمراض نفسي، بغض النظر إذا هو مريض أم لا، قراره أن يأتي حوله إلى مريض، ومن هنا أبدأ. بهالمعنى الطبيعي والغير طبيعي شيء نسبي. وكل اللي حكيت عنهم خالد ونمر والأسطا واصل وغيرهم، طبيعيين ما دام ما شافهم دكتور، ممكن مجانين، وهذا جزء من المنظر في بلادنا، مجانين في الشارع بكل بلد مجنون فولكلوري، ولكن هم مش مرضى نفسيين إذا ما أجوا عند طبيب نفساني.
- أنت بتفترض إنه الطبيعي الناس تتكيف مع الحاجز وانه الغير طبيعي هو اللي مثلي ما بتكيف، أو على حد تعبيرك اللي الحاجز بخاطب فيه هذه المشاعر من الغضب والنقمة والعصبية والاختناق ويوقظها.
- صحيح.
- ولكنك ادعيت قبل قليل أن التكيف هو أصل المشكلة، يعني كان قصدك قلق في الحضارة عند فرويد. ماشي وهذا اللي عندي قلق في حضارة الحاجز ناجم عن اضطراري أن أكبت غرائزي من أجل التعامل معه، مع الحاجز.
- مش عيب عليك تسمي الحاجز حضارة؟
- حتى أنت يا دكتوروس؟ كمان أنت بتزاود، قرأت مقال واحد لفرويد، وبنيت منه كل هالنظريات وبتزاود كمان؟ ملجأ النذل الأخير الوطنية، وعندنا ملجأ الجاهل والنذل.
- شايف هيها الأعراض والعصبية والعدائية أصابتك وما في حاجز هون. حاسس إنك حابب ترتكب أيضاً حماقة من النوع اللي بتفكر فيه عالحاجز؟

- آسف يا دكتور بس مين قال إنه ما في حاجز هون؟
- اف! هاي كمان بتتخيل أشياء. هذه بداية سكيزوفرينيا. وإذا تشخيصي دقيق، لا يمكن يكون لها علاقة بالحاجز، أما أن يكون عندك استعداد للسكيزوفرينيا أو ما عندك استعداد.
- لا أنا قصدي حاجز نفسي بيني وبينك، يعني أنت رفعت الكلفة شوي، هذا قصدي.
- وبتفكر مرات إنك رئيس عربي؟ هذا الحاجز النفسي الضروري اجتيازه اللي حكي عنه السادات في خطابه الشهير أمام الكنيست.

وقع الآن السيد س في الفخ. وما دمنا وصلنا إلى هنا فلن ينفع شيء كل ما سيقوله سيبدو إما إنكاراً لهذه الحقيقة أو إثباتاً لوجودها، وتبقى حقيقة كونه مريضاً خارج طائلة حججه أو نقاشاته. هنا أحس بضيق أنه وقع ضحية حب الاستطلاع غير القابل للإشباع لديه، واستغرب لماذا مل من الصمت مع أصدقائه، وأصر أن يتكلم مع هذا المخلوق الذي لا يستحق منه أكثر من الاستغراق في صفنة هو الآخر. إذا كان الزعماء العرب الذين يغيرون لباسهم حسب كتالوج رأوه صغاراً، وأصروا أن يصبحوا رؤساء لممارسة انحرافاتهم الاستعراضية بحرية لا يستحقون منه مؤخراً أكثر من صفنة وتأكيد: أنا مش معهم. وهو يقسم أغلظ الإيمان أنه رأى في التلفزيون يوماً أحد الزعماء العرب يلبس لباس فلاح هولندي رايح عالصيد، هيك قبعة غريبة خضراء اللون مع ريشة وكلسات للركبة وبندقية للصيد، ومرة خُيِّل له أنه يلبس «كلبك» و«طزالك» من النوع الذي كان أتاتورك سيمنعه هو الآخر لو رآه عليه، ومرة رآه بلباس لا يمكن أن يكون صاحبه إلا ماتشو، ولكن ماتشو رجولي مع نزعات أنثوية واضحة، ومرة بدلة عسكرية وجزمة كوركوديل. تناقض نعم تناقص في المفاهيم. حتى هؤلاء لم يعودوا يستحقوا أكثر من الصفنه.

- لو إنك طبيعي كان قلتلك: مش عيب عليك تحكي هيك على ناس أهم منك وأكثر وطنية منك. بس بما انك غير طبيعي إذاً فهذا يؤكد على انك غير طبيعي.

- استنتاج منطقي. وبما انه هم طبيعيين هذا يعني أنا المش طبيعي. بعدين أنت كيف سمعتني؟ أنا بحكي كنت واللا بس بفكر؟
- كنت تفكر بصوت عالي.
- طيب، بتأمل اني ما ذكرت اسماء.
- لا ما ذكرت. لكن لما حضرتك تقول معقول وضع شعبه هيك، ورايح على حرب، وبفكر شو يلبس بكرا، حسب أي زي فولكلوري في سكندنافيا، أو زي أي بطل مسلسل ديتيكتيف مع مسدس مشهر من الستينيات. وأصلاً كارثة انه هالمواضيع شاغلته. مفهوم مين بتقصد.
- أنا ما قلت ولا فكرت مثل هالكلام، لا حكيت عن حرب ولا عن شعبه، ولا شاهر مسدس دتكتيف من الستينيات..
- ليش أنا كنت أحكي واللا أفكر؟
- هاي كمان انت عندك سندروم الحواجز، باريفوبيا؟
- لا، لا، لا. أنا عندي راحت الحواجز نهائياً كما يبدو وصاير أحكي كل شي. يمكن هي كانت عندي بس حضرتك روحّتها، أيقظت عندي نزعة التخلص من الحواجز النفسية، النزعة إلى السيولة النفسية.
- ما بتعرف، يمكن هاي موجودة عندنا كلنا، شو أفضل فكرك حواجز في كل مكان «اومني بريزينت» omni present، أم بدون حواجز إطلاقاً؟ شو نعمل؟
- نسكت، إذا بتحب منسكت سوا، وإذا ما بتحب روح انت اسكت مع أصدقائك، وأنا بفتح التلفزيون وبصفن فيه. أنا ما وصلت لمرحلة متقدمة مثلك، أنا بعدني بقدر أصفن بالتلفزيون.
- أيوه أنا مريت بهالمرحلة.

[54]

ساعة شتوية

غسل الشتاء غبار الحاجز بمطر أول ورذاذ ناعم يجعل حتى التعاسة تزهر، ولكنه يعجز عن تفتيح الشر نواراً، فالشر لا يزهر حتى من براعم التعاسة. سارع الخاضعون للحاجز إلى تقديم الساعة قبل أصحاب الحاجز، الذين يتأخرون في تأخيرها تجنباً لغضب المتدينين على التدخل في سنة الخالق في كونه. هكذا تظاهر ضحايا الحاجز بقوتهم على التحكم بالساعة، وإن عجزوا عن التحكم بساعة فتح الحاجز وإغلاقه. وهم مغرمون بالرمزية ويرمزون بخطوتهم هذه إلى سيادتهم إن لم يكن في المكان فعلى الأقل في الزمان... وما أرمز من رمزٍ للسيادة أكثر من التحكم بالوقت. هذه المظاهرة السيادية التي جعلت عقارب ساعات الناس تشير إلى انتمائهم الوطني، ما لبثت أن تجسدت على الحاجز بشكل غير متوقع.

والحاجز يغلق تمام الساعة السابعة مساءً، «لا رايح ولا جاي». والجنود يقفلون هذه «البسطة» وقد استوردت هذه الكلمة العربية العامية من دون تغيير إلى العبرية، كأنهم موظفون في دوام، لا حرب ولا مَن يحزنون. وعندما تنهي بعض المكاتب عملها في المدينة التي تطوقها الحواجز تكون السادسة بتوقيتها هي السابعة حسب وقت الحاجز. وقبل أن يتعود الناس ويتذكروا أن ينهوا العمل ساعة قبل الوقت، غص الحاجز بالمئات من أتباع الساعة الشتوية يحاولون إقناع جنود ساعة الصيف بالسماح لهم بالعودة إلى بيوتهم.

- اسمحو لنا، يعني انسينا الفرق بالتوقيت بس كبروا عقلكو! بدنا نروح عبيوتنا.
- وإنتو ليه ما كبّرتو عقلكو؟ أنا خبيبي مش ساعتك، عليّ هون ما بتمون ساعتك.
- شو نعمل؟
- هاي مش مشكلتي، هاي مشكلتك.

وقد سمع كثيراً بهذه العبارة وعن عادة استخدامها من قبل موظفي الدولة إلى درجة أن أحد الموظفين في الإدارة المدنية علقها على الحائط فوق رأسه مباشرة تحت صورة رئيس الدولة، ولكن هذه أول مرة يقابلها، أي العبارة، ويتعرف عليها شخصياً.

- أنا عارف إنها مشكلتي مش مشكلتك، شايف هدول كلهم هاي مشكلتهم مش مش مشكلتهم زي جنابك، عشان هيك بنحكي معك.
- شو مجنون انت؟
- خلص ما رح تقنعه، مفكر حاله «بيج بن». خلينا نحكي مع الـ«تشيك بوينت واتش»
- شو هادي؟ ما فهمتها.
- هاي مشكلتك
- جديدة هاي؟
- منظمة غير حكومية تراقب الحاجز.
- شو يعني أمم متحدة؟ قوات طوارئ ؟ صارت حدود هون؟ وأنا كل الوقت بقول إشاعات، بس لا والله هيها الجرافات حولنا. أكبر حدود.
- لا هي منظمة مؤلفة من متطوعات من بلاد أصحاب الحاجز تعنى بشؤون خروقات حقوق الإنسان على الحاجز. بقدموا تقارير وشكاوى وبيتصلوا بقيادة الجيش، ولأنهن من بلدهم بحترموهم.
- إيه يعني هدول أكيد بقدموا «بروبوزال» وبجيهم «فلوس» من

أوروبا، احكيلنا معهم إذا بتعرفهم يمكن، لعلّ وعسى، يشغلونا. يعني مراسل، متأسف، يعني مساعد، باحث ميداني، مستشار، مساعد باحث، مساعد مساعد، مستشار للمستشار، أو «عالبورد»، ما بدهم يخلطوا ويحطوا شوية عرب لإقناع الممولين الدونرز يعني؟ شي هيك، احكيلنا معهم.

- متطوعات يا اخي! بعدين هيك انت كمان بدك تعيش من الحاجز، معقوله؟
- دافع أنت من جيبتك، شو مشكلتك أنت؟ هاي مشكلتي مش مشكلتك.
- لا والله مشكلتي أنا، مش مشكلتك. أنت مشكلتنا كلنا، وفعلاً مش مشكلة الجنود.
- ما بدكو تروحوا اليوم؟

[55]

ألوان الشتاء

أصبح من الصعب في الصباح التفريق ما بين الأرض والسماء في هذا الوادي الضبابي. ومن بعيد شحبت في الرذاذ ألوان فوق الحاجز، تبدو كأنها بالونات أو أعلام ملونه أخضر وبرتقالي وأزرق. وليس من عادة جيش الحاجز أن يطير بالونات، ولا أن ترفرف أعلام ملونة صغيرة فوق رؤوس وحداته مثل الساموراي حتى في فصل الشتاء.

انقسم الطريق إلى ثلاثة مسارات للمشاة الذين تخلوا عن عادة قيادة السيارة، أو الذين لا يملكون سيارة، أو الذين أوقفوها عند الحاجز، وإثنين للسيارات المصرة والتي لم تيأس من الانتظار. وقد لوِّنت المسارات بأعلام من بلاستيك مقوى علقت فوقها. مسار لحاملي الهويات الخضر من سكان المدن والقرى خلف الحواجز، مسار تشير إليه يافطة زرقاء لحاملي الإقامة الدائمة في القدس، أي هوية أصحاب الحاجز، ومسار ثالث لذوي السوابق الأمنية حاملي بطاقات الهوية البرتقالية.

- شو هذا مثل إشارات المرور.
- شو إشارات مرور؟ هاي كمان مؤامرة لتقسيم الوحدة الوطنية. لازم نحطلهم حد، كل مرة إبداع جديد.

قاد الاحتجاج أصحاب الهويات البرتقالية الذين كانت رؤوسهم بين الرؤوس حتى هذا الصباح - وهم قلقون الآن من أن يكون البعض قد ارتاح منهم لأنهم يؤخرون الدور عند فحص الهويات. ولكن على أي

حال، من ناحيتهم ما في تأخير أو خسارة وقت، بالعكس الناس أقل في كل مسار على حدة- الاستفراد بهم مزعج، ولكن ألا يستفرد بهم في السجن؟ وهل يطالبون الشعب الفلسطيني كله أن يسجن معهم؟

- لا مش لازم نقبل هيك، مش معقول تفصلونا عن باقي الناس لأنه معنا هوية زرقا، لازم نرفض.
- طيب ما بدك تمشي بلاش. إمشي من هون! هويات زركا تفضلوا.
- شو، ومش بلا تفضلوا كمان!!
- على كل حال يعني هذا هو تقسيم الوحدة الوطنية؟ بألوانهم بدهم يقسموا وحدتنا الوطنية، هي يعني متوقفة عليهم؟ ما فشروا!!
- يعني بدك تروح؟
- إيه، وإنت بدك تروح، وهو بدو يروح وكلنا بدنا نروح، الناس بتيجي عالحاجز لتزوح مش لتبقى ولا لتعمل مظاهرة. اللي بعملو مظاهرة عالحاجز هم اللي ما بدهم يمروا.
- إيه بس رفضت بمزاودة أنه ما بصير نقبل، وقبلت بمزاودة ما فشروا يقسمونا، ومش واقفه عليهم. كان فيك تقول إنه الحاجز حاجزهم، وهذا نظام، وكل نظام فيه تقسيم وتصنيف، وكل تصنيف فيه تمايز وهيك، والناس بتتنظر على كل حال بألوان وبدون ألوان، وكل واحد بتعامل أصلاً حسب لون هويته والآن علقوا لون الهوية فوق راسنا، وهذا احتلال، وأبارتهايد، وإنو «الزركا» أفضل من «الزركي» هون. فيك تقول هيك.
- إيه، طويلة شوي هيك. بعدين يعني شو فارق كيف منشرح الخطوة؟ يعني هو الشرح اللي بيعملها غلط أو صح؟
- بعدك بتزاود. وهلأ يعني أنت عملي وإحنا تبعون حكي. بحب أقلك إنه نعم ، في مرات كثير موقفة الشغلة على كيف بتشرحها وبتفسرها. لأنه الشرح يدل على المنطلق، بفضح الدافع.
- والدافع مش مهم في العمل السياسي.

- إيه السياسة بهالمعنى خربت الدنيا، حلت محل الأخلاق. مش بس حضرتك مفكر كل خطوة بتعملها عمل سياسي عظيم، كمان بتحسبها زي السياسة من أسوأ نوع. لا سيدي الدافع مهم جداً.
- مش بقولوا «الطريق إلى جهنم مرصوفة بالنيات الحسنة» هذا يعني نظرياً ما في علاقة بين الدافع والعمل ونتيجته.
- لا سيدي في علاقة، كل ما السياسيين بدهم يعملوا شغلة غلط بلاقوا حكمة صينية تبررها، وعلى كل حال المثل ما بقول إنه الطريق إلى الجنة مرصوفة بالنيات السيئة، كأنها النيات السيئة لا تقود إلى جهنم، شيئ غريب يا أخي هالتبرئة للنيات السيئة. لا الدافع مهم. بتعرف ليه؟
- ليه؟
- لأنه بعد فترة دايماً بتبين إنه الدافع كثير مرات بصير الغاية يعني الهدف، أو انه الغاية هي نفسها دافع الإنسان للعمل. تخيل انه ما في علاقة بين العمل وغايته، ما فيه؟
- بخاطركوا.
- مع السلامه.

مكتبة
t.me/t_pdf

[56]

شتاء

هل تريدين قليلاً من الصبر؟
لا
فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنه
يشتهي أن يلاقي اثنتين:
الحقيقة – والأوجه الغائبة

أمل دنقل

تسمح لحظات الشتاء في بلاد الحواجز برومانسية طبيعية هادئة بلا أوهام، رومانسية الشرفات غير المسقوفة يسح منها الماء بفوضى من كل جانب، وحبال الغسيل العارية من الثياب، والسطوح التي يلمع سطحها الزجاجي ببواقي المياه السماوية المتلألئة التي شطفتها قبل حين تعكس ألوان القوس عند المغيب محجمة قطرات الندى الصيفية.

ومجرد ذكر الندى يشعره برعشة من عدم الارتياح تذكره بالاستيقاظ المبكر للعمل في البناء في العطلة المدرسية الصيفية، هذا الاستيقاظ الذي لم يبقِ من العطلة ما يستحق هذه التسمية، والنوم الصباحي غير المريح في الباص الذي يقل عمالاً تعبين إلى عملهم على نغمات راديو «الدولة» بالعربية التي كان العمال يسمونها تندراً «دار الإشاعة الإسرائيلية»: «الدنيا ربيع، والجو بديع قفللي على كل المواضيع قفل! قفل! قفل! قفل!». ومسَّاحات نوافذ الباص الأمامية تزيل رطوبة الندى الصباحي من حين لآخر بأيقاع يتجاهل النغمات.

وصوت المطر على الصفيح وألواح زجاج النوافذ، وتسابق صوت

المياه المتدفقة من المزاريب مع صوت زخات المطر. منذ فترة طويلة لا تنبعث رائحة «جفت» الزيتون، الذي استخدم لمساعدة الحطب على الاشتعال، المختلطة برائحة روث الماعز، ولكن الشتاء يبلل الذاكرة ويعيد إليها الروح فتسعف الأنف أيضاً. ما أجمل الأحد في شمال الشتاء، وما أوحد هذا الجمال الشمالي، إنه يضج مثل بناتة الصبايا العائدات من قداس الأحد بخصوصية الميرمية الجليلية في حلاوة الشاي. ولا يكاد الأحد يخلي الشارع من السيارات ليتنفس الصعداء هنيهة من ضجيجها حتى تنبعث اصوات أجران الكبة بعد خفوت الأجراس مباشرة من جديد بين الأزقة المتبقية من هذا الشتاء المنقرض في شمال ولّى ولم يعد، ولم يعد يلتقيه من جديد إلا في الوداع في أجواء التعازي الحميمة.

لا يبدد الكرب في بلاد الحواجز إلا مطر الشتاء، يغسل البلاد، يشطفها شطفاً. في الشتاء «ينضبّ» الناس، كما يقال، أو «يتضبضبون»، أي ينسلون إلى بيوتهم علناً، لا خلسة، طلباً للدفئ الشرعي وللوقاية من الرطوبة والبرد والبلل، وقد ألصقوا بها مصادر غالبية العلل. ويرتاح نظره في الشتاء الذي ما زال يسعفه، إن لم يكن بالجمال فبغياب قباحة الصدور المفتوحة زرين إلى الأسفل بإتجاه البطون الممتلئة لتعلن عن نجمة داوود أو كلمة «حاي» كاملة، اختصاراً لشعار «شعب إسرائيل حي»، على سلسلة ذهبية فوق بطن منتفخ وصدر كث الشعر لفحته شمس الشاطئ.

يقمع الشتاء الاستعراضية المفروضة على الحيز العام فرضاً وقسراً، البهيمية المزهوة بما يبرز من الجسد نحو الخلف أو إلى الأمام أو مشية إغواء للذكر أو الأنثى تبدو أناقة وفناً وتلبس ألف تقليعة لتلبيس ذاتها الطبيعية المغروسة فيها، ولا يعالجها ويحضِّرها ويمدنها إلا برد الشتاء، أو البهيمية المزهوة بسيارة مفتوحة النوافذ تنبعث منها موسيقى صاخبة بلا سبب غير لفت النظر للوقاحة والثقة بالنفس المتناقضة مع ذاتها المراهِقة الفظة وهي تحاول أن تلفت نظر الناس إلى تجاهلها للناس.

يعج الصيف بمخلوقات صيفية ممتلئة من الخارج فارغة من الداخل

تهيمن على كوابيس اليقظة لا تردها أو تردعها إلا الطبيعة ذاتها بشتائها الذي يقمع هذه المخلوقات.

يذكّر الشتاء حتى الكوفية بوظيفتها العملية كرداء للرأس يلف حول الوجه للتدفئة فيعيد إلى مخيلته ناساً أحبهم، ويختزل إلى الحد الأدنى وظيفتها الاستعراضية التي انضوت مع شعرها ضمن قائمة رموز صناعة القضية.

يرجع الشتاء الحيز العام عامّاً بدون مدعين غاصبين لملكيته يتجولون فيه وكأنهم أصحابه، وكأن على بقية الناس الذين حلوا ضيوفاً عليهم أن يلزموا الأدب مع الاستعراضيين أصحاب المكان، وعليهم أن يراقبوا بصمت الضيوف كيف يحول أصحاب المكان المكان إلى مسرح. الشتاء جميل يزداد جمالاً في قباحة صيف بلاد الحواجز، ويعيد الانسان إلى الطفولة.

ولا يبدو له أن أحداً يتذكر طفولته في الصيف ما عدا في الأدب الباحث عن مراتع الطفولة في حب عابر في العطل الصيفية. وكلمة مراتع وحدها كافية لتنفيره لأنها تذكره بـ«الترتيع» وبإصابات الأولاد غير المحدودة من الوقوع ولسعات غير محدودة من البعوض، وبقباحة أجساد البشر العارية عندما تزدحم و«ترتّع» أو ترتع على

الشاطئ مثل قطيع.

أما في الحياة الواقعية فإن الطفولة المتثائبة بعد نوم النسيان الصيفي لا تطل برأسها الناعس وبعينين نصف مغمضيتين وبيجاما مقلمة وجوارب صوفية إلا في الشتاء لأنه يذكر بالدفء والبيت وبأنه يحب أمه أكثر في الشتاء وبـ«الصوبة» الكاز و«الصوبة» السولر أو كانون الفحم أو مدفأة الحطب أو «الدفاي» وكل ما لم يقطعه انقطاع التيار الكهربائي... كل يتذكر حسب وضعه الاجتماعي الحالي والسابق ومدى رغبته في تذكره.

يدس الشتاء الرذاذي الشفاف اليأس القطني في الوسادة، ويخيط الضباب الاكتئاب غطاء دافئاً من زغب أعناق الأوزّ، ويجعل الشتاء الإحباط الرمادي محتملاً ينسجم مع المحيط الرمادي. الوجد في الشتاء حب يتغذى من ذاته.

ويجعل المشهد الشتوي الانكفاء على الذات ممكناً بالاتجاهين من الخارج نحو الداخل أو من الداخل نحو الخارج، وكأن النفس قد اتسعت. هكذا يصبح الحزن الكامن بالتأمل في الدنيا هو السعادة الوحيدة الحقيقية الممكنة.

ويتحد الإنسان في الشتاء مع ظله لا ينفصل عنه، ولا تسنح له الفرصة أن يطور شخصيته المشوهة خارجه كظله.

يستبدل الشتاء غبار الصيف على الحاجز بالوحول مما يجعل علاقة الصيف بالشتاء على الحاجز ذاته أقرب إلى التكامل منه إلى التفاصيل. ويغير المطر قواعد السلوك على الحاجز. فالجنود مبللون يقفون خارج السيارة ولا يرغبون بالخروج من تحت مشمعاتهم الخضراء إلا للضرورة القصوى، إنهم يلبسون خيماً تغطيهم. ويتطلب استفزاز المارة الخروج منها وتحمل التبعات ولو كان الإغراء كبيراً لضرب مسافر أو التنكيل به على كل حال. ولكن قد يكون التنكيل بإخراج المسافر وبل بدنه في الشتاء بدلاً من «بلّهِ بَدَن» في الصيف.

وفي يوم ماطر اكتشفوا أن هنالك ما يكتشف في حي قريب من الحاجز بناء على بلاغ، فأغلقوا الحاجز ولم يهتموا بإعلام المارة أنه سيغلق لفترة طويلة، فالمارة في هذه الحالة ليسوا مواطنين ليسري عليهم حق معرفة ما سوف يجري معهم في نصف الساعة التالي، إنهم رعايا الحاجز. لقد مضت ساعات ثلاث والناس تنتظر للعودة إلى بيوتها في المغيب الماطر والموحل قبل أن يعلموا أن الحاجز مغلق حتى إشعار آخر، وأنه لا معنى للانتظار. تلقوا هذا النبأ من المذياع في إحدى السيارات، وقد بات مصدرهم عما يجري على بعد أقدام منهم، وتلقاه المشاة من ركاب السيارات التي أخذت تحاول الاستدارة والعودة.

وعندما تلقوا النبأ كانت أصابع القدم الأمامية قد جمدت من البرد حتى عند من دسها في حذاء مبطن، أما الذي لا يملكه أو اكتفى بحذاء عادي، أو فضَّل الأناقة على الدفء في صباح ذلك اليوم فقد أصبح شكله يصلح للاستخدام للتخفيف من مصائب الآخرين. وتكفي نظرة إليه بالقميص الأبيض الحرير المبلول والجاكيت الخفيف بالحد الأدنى من

مكونات الجاكيت والحد الأعلى من مكونات الصرعة، والحذاء الإيطالي الناعم الملطخ بالوحل بالحد الأدنى من مكونات الحذاء على رجل غير ناعمة بالحد الأقصى من مكونات القدم لكي تهون مصيبتك، أو لتشعر بالدفء.

وهو تذكر الأعياد التي كانت تحل في فصل الربيع فيشتري الناس لأبنائهم ثياب العيد صيفية لتصلح للصيف أيضاً وهو قادم لا محالة، ولو اشتروها شتوية لضاقت مقاساً حتى الشتاء القادم أو اتسعت عن المقاس الحالي. لذا غالباً ما اصطكت الركب تحت ملابس العيد الصيفية في برد آذار مثلاً. في حين فضل هو الشتاء على ملابس العيد - وتنازل عنها بسرور إذا جاء الطقس ماطراً. عندها تكون رائحة الصبية في دار السينما المزدحمة وعند أكشاك الفلافل مثل رائحة غرفة الصف المزدحمة بالتلاميذ المبلولين في يوم ماطر من أيام الشتاء وقد ارتدى بعضهم البيجاما تحت السروال، أو للدقة ارتدى السروال من دون أن يتخلى عن البيجاما، إما لغرض التدفئة، أو لأنه لم يجرؤ على نزعها في الصباح البارد لإرتداء السروال المتجمد طيلة الليل على اللحم الصباحي العاري. وتذكر كيف تذكر رائحة غرفة الصف التي أدت إلى دوار أدى إلى سقوط المعلمة الحامل على الأرض غائبة عن الوعي وعن الشم.

ولم تتكرر تجربة البيجاما تحت الملابس إلا عند دعوة الناس للمخابرات العربية للتحقيق، ففي هذه الحالة لبست البيجاما تحت الملابس للاحتياط فغالباً ما تحول التحقيق إلى اعتقال أو استضافة في الأقبية، ويخجل المرء أن يذهب وهو يحملها لأنها إشارة إلى معرفته بالذنب أو تذكير لهم أن يبقوه عندهم.

وتجربة الحاجز كافية للاختصاص بالوحل وأنواعه والطين وأصنافه ومركباته. ومسافة الطين طويلة، وتقطعها قنوات حفرتها إطارات السيارات فامتلأت بالماء. وطول مسافة الطين على الحاجز كافية للتعرف إلى أنواعه وللحذر من الأصفر الأملس الذي يبدو أنه ينفع لصناعة الخزف وللسقوط. وبعده لا معين، فالتنظيف السريع بعد السقوط بنفضه باليد ومسحه بالكلينكس حينئذٍ لا يعني إلا التلطيخ. كما تحذر الناس

الطين المبلول بالماء حتى سطحه لأن القدم قد تنغرس فيه أكثر مما هو متوقع، وبعدها لا تمييز بين الحذاء والجوارب وأسفل السروال. كلها تغدو كتلة طينية واحدة لا حل لها قبل الوصول إلى البيت بعد تلطيخ السيارات والاعتذار لأصحابها طيلة الطريق والاستمرار بالحديث والشتم واللعن قبل أن يتفوهوا بكلمة. وحامل الوحل يفعل ذلك حرجاً لكي يفهم المسافرين أنه أكثر اشمئزازاً من شكله منهم، أي ليقزم اشمئزازهم إلى أن يبادروا إلى تهدئة روع حامل الطين حتى يهدأ ويصمت ويريحهم. والطين الأكثر انتشاراً هو الطين العادي والمركب من تراب عادي وأوساخ عادية منتشرة حوّلها المطر إلى طين يلصق بالحذاء ترافقه مزق من أوراق لا يعرف لها أصل أو أوراق شجر وبقايا أعواد قش رطبة، متجاوزاً النعل إلى الحذاء ذاته وأطراف السروال من أسفله راسماً خرائط شتى. ولا ينجو حتى أكثر السراويل حذراً على الحاجز من نقطة طين واحدة على الأقل وصلت حتى الركبة والشيطان وحده يعلم كيف.

ولكل نوع من الطين تُلاءم مشية خاصة يطورها الحذر، فالحذر أنواع: من التزحلق ومن التورط ومن الاتساخ ومن السقوط. ولا أناقة إطلاقاً في مشية «الوَجي الوَحِل». هنالك المشية البطيئة الحذرة التي ترافقها انحناءة ظهر خفيفة تسمح بنظرة إلى القدمين أثناء المشي. والمشية على رؤوس الإصبع لكي تتسخ مقدمة الحذاء وحدها، والمشية التي ضحت بالحذاء ولكنها تأبى إلا أن تحافظ على السروال فيمشي صاحبه وهو يشد بسرواله إلى الأعلى لتظهر جواربه وبعضاً من رجليه أثناء المشي، وهنالك مشية «التخفيش» الواثقة بلا مبالاة بينة بحذائين مغطيين بأكياس بلاستيك سوداء. وهنالك مشية الأصدقاء التي يتكئ فيها الشخص على الآخر في سلسلة قد تصل إلى ثلاثة أشخاص أو أكثر، وما أن تمس القدم الأرض حتى ترفع بسرعة قبل أن تغرز فيها مع المحافظة على توازن الجسم بالاتكاء. وتقع المصيبة عندما يرفع خِلّا الطين على الحاجز قدميهما في الوقت ذاته ويتكئان على بعضهما البعض، عندها يحتاج الأمر إلى لياقة بدنية وسرعة تدبر خارقة لتجنب السقوط. وبين الطين والطين برك ماء يتناسب حجمها مع بركة المطر السماوية لهذا

العام. وهذه قد تقطع الطريق فعلاً وتزيد من الازدحام على الطين المحيط بها، وكلما اشتد الازدحام على الطين ازداد لزوجة وملوسة وزلقاً.

تفرق الناس إلى المجهول تحت المطر بعد أن تأكدوا أن الحاجز مغلق الليلة، والوحل عند نزع القدم كأنه يرد رجع صدى خطواتهم. هنالك من يبحث عن أقارب ليمضي الليلة عندهم، ثم يفكر كيف سيدخل عليهم وهو بهذه الحالة، وكيف سيجفف ملابسه وماذا سيلبس حتى تجف. ولكن هذا هو الهم الأخير، فالناس على ذلك الجانب من الحاجز قد تعودت على الـ«تعتير»، والأقارب والأصدقاء يتحملون بعضهم بعضاً. وهذا لا يعني أنها أصبحت تقبل التعتير كواقع ولكن لأن منظر العائد من الحاجز ليس استثنائياً، ولا مجال لمقارنة لجوء ليلة واحدة مع من أتوا لبضع ليال قبل ثلاث وخمسين عاماً من قرى الساحل ومدنه إلى ما كان جهة الحدود الأخرى وأصبح جهة الحاجز الأخرى. وماذا بالنسبة لمن ليس له أقارب؟ هنالك دائماً الأصدقاء طبعاً. ولكن ماذا يفعل من لديه أطفال ينتظرونه في البيت ولا جدة ترعاهم ليلاً، وليس الـ«ببي ستر» حالة منتشرة أو متيسرة أو قابلة للمبيت؟ الله وحده يعلم ماذا يفعلون.

حدثتها قائلة:

- وليه ما رحت عن طريق «دي. سي. أو.»؟

أجابت مستغربة:

- مش ممكن. من وين؟ لا يمكن. من وين العلاقات مع هدول ياخدوني بسياراتهم. بعدين ممكن ينزلوني حتى من سيارة من هالنوع.

هذا طريق التنسيق الامني، وهو متاح للصحفيين الأجانب والقناصل والسفراء وغيرهم. وغير متاح لمن ينتظرها أطفالها في البيت وزوجها على بعد أربع ساعات سفر من البيت.

- صحيح، ولكن مع النساء بتزبط مرات. بمشّوا النسوان، بمشي الحال، هدول جنود بالآخر ورجال وسخيفين، وفيكِ يعني

بالآخر وأنت تحكي معهم لتقنعيهم تختاري أما إثارة الشفقة على حالك كأم وهذا وارد أكثر من الشفقة على رجل، أو انك عارفة كيف يعني، رخاص هدول، وبتطور كيمياء غريبة على الحاجز معهم. إنه يعني امرأة شرقية وكمان حلوة وجميلة وبتضحكله ضحكة فيها ألف معنى بس ولا معنى منهم بتطبق، هيك مزح مخلوط بتسميع حكي عالخفيف بدك تتحمليه وبعدين بمرقوك. بس بتكوني ذكرتيه برجولته وقدرته أن يمررك وانه يعني في وحدة جميلة بتضحكله. أنا سميت هالحالة عندنا في الجامعة استراتيجية «تشيك بوينت سلات» يعني استراتيجية «زانية حواجز» للـ«آيروني» هيك.

- أنا بفضل إذا هيك يشفقوا علي المرة الجاي ويمرروني مثل النسوان المعترات.
- بتفضلي يشفقوا عليك ولا يشعروا بكيانك إنك بتمشيهم بإستغلال نقطة ضعفهم.
- مش بتقولي في يعني هيك زي استراتيجيتين؟
- أيوه... بس إنت فاهمة كيف قصدي؟
- طيب، أنا بفضل هاي الاستراتيجية. بعدين، نقطة ضعف مين؟ إثارة الشفقة على وضعنا أفضل من الادعاء بانتصاب قامة بواسطة السقوط إلى أداة للتحكم بانتصاب شيء آخر. هيك كمان نريد الشفقة وكمان نثير الشفقة وكمان ندعي انتصاب القامة. وكمان بدنا إذن وكمان أداة، يعني موضوع لتفوقه مرتين كجندي وكرجل، بدنا نرضيه كجندي وكرجل، معقولة هاي بتعتبريها تحكم وسيطرة؟ منحوّل أشكالنا إلى امتياز في ظل الاحتلال؟ هيك بكسرونا، هاي عبودية.
- وين في العالم جمال المرأة ما بشكِّل امتياز على غيرها؟ على كشك شرطي على حدود دولة عربية ما بفرق شكل المرأة بكيفية تعامل الجندي الذكر معها؟ على كل حال، بتكوني رحتِ للبيت بدل من المبيت ليلة بعيد عن الأولاد بهالقلق والخوف. بعدين

إنت عارفة إثارة الشفقة مع هيك أجلاف مش مضمونة. بعدين مين هم يلعن أبوهم؟

- مين هم؟ لا، السؤال مين إحنا؟... والله بتعرفي هذا سؤال صعب ما ضروري كل يوم نجاوب عليه، يا ستي زينا زي هالناس، ما بدنا امتيازات على الحاجز.

ما أجمل الشتاء، ليت الشتاء لا ينتهي.

[57]

ربـابـة

مع حلول الربيع الصغير قبل نهاية الشتاء في اليوم الثالث لانقطاع المطر في نهاية الشهر الثاني ظهرت الربابة على الحاجز. والمقصود ليس الربابة الفصحى أي السحابة البيضاء فظهورها لم يلفت نظر أحد. وربيع الشتاء أصفى وأجمل من فصل الربيع، فقد جف غسيل الدنيا ولكنه ما زال طازجاً طرياً عبقاً، لا غبار فيه ولا يعاني فيه أحد من الحساسية. وقد ظهرت الربابة البدوية بيد رجل حضري حوّلها إلى أداة عزف في مكان عام مكتظ هو تجمع البشر عند الحاجز، تسول كما يفعل الشباب وغير الشباب، المتسولون وغير المتسولين في مراكز المدن الأوروبية بالكمان والقيثارة والسكسفون وبيوتها السوداء الصلبة التي تحمل فيها مفتوحة عند أقدامهم تستقبل قطعاً معدنية قليلة عندما يعزفون. الربابة آلة عارية ليس لها بيت يحملها، ولذلك فقد استخدم الرجل أداة تسول روتينية هي صحن بلاستيك من النوع الذي يستخدمه المتسولون من دون ربابة.

وقد ظهر مع الربابة صديق قديم غاب ولم يعد عودة فصلية مثل الشتاء والربيع. عاد الكرسي الصغير الذي سيطر على مشهد الكراسي والمقاعد في الماضي، في بداية عهد الكراسي والمقاعد. والكرسي ذو قوائم خشبية أربع لا يزيد ارتفاعاً عن 30 سم، ومقعده مجدول من قش الخيزران أو من الحبال التي طورت في نهاية عهده إلى حبال بلاستيكية مبشرة بكراسي البلاستيك القادمة.

انتشر الكرسي الصغير في المجالس والمقاهي وعلى شرفات البيوت

وكان صالحاً بشكل خاص للعبة «الشيش بيش» التي وضعت على كرسي ثالث بين اللاعبين. إنه كرسي ارتشاف القهوة والسيجارة والحديث، ولا يصلح للصفنة إلا إذا عظمت المأساة الشخصية والعامة بحيث تصبح الصفنة ممكنة ولو جلس الصافن المتأمل في الفراغ على خازوق. ولا يدري جيل اليوم كيف استطاع أبناء ذلك الجيل أن يجلسوا على هذا الكرسي ساعات طويلة من دون أوجاع ظهر. فالجلسة عليه هي بنفس ارتفاع جلسة القرفصاء الرياضية من دون كرسي، أو لقضاء حاجة في الهواء الطلق قبل الحضارة، وكأن الكرسي قد دس تحت المؤخرة ليسندها. اختفى «الكرسي الصغير» وحل محله شعبياً كرسي البلاستيك، عند الأثرياء على الشرفات فقط أو بالكاد، وعند الفقراء على الشرفة وداخل البيت وفي المقاهي الفقيرة المؤلفة من كراسي وطاولات. وكل ما فيها من بلاستيك ما عدا الجدران.

وبين الكرسي الصغير المنقرض والربابة المنقرضة جلس الإنسان المصر على البقاء وعزف على الربابة ولم يغنِّ. صمت الإنسان ونظر إلى الأرض في زاوية لا يرى منها إلا أقدام المارة وبالكاد سيقانهم. لم تلتقِ عيناه بعيني أحد. وغطت الكوفية بقية الملامح التي تلتقي أعين الناس بها ما عدا الأنف والشاربين. ملامح مريحة وجسم نحيل منطو لا يذكر بانتصاب صدر عازف الربابة في المسلسلات البدوية التي انتشرت مع سيطرة الصحراء على وسائل الإعلام حيث أصبحت لهجة الأغاني بدوية وحيث تغني الشقراوات غير البدويات بلهجة بدوية من دون ربابة.

والربابة تصلح بالكاد لأن تكون مؤثراً صوتياً يرافق الغناء، «ساوند إفكت» وليس موسيقى. ويحاول الغناء إذا لم يكن بذاته نواحاً أن يخفف من رتابة الربابة. وليست الرتابة ذنب الرجل الجالس بينها وبين الكرسي والمضرب عن الغناء في مكان يضرب فيه الناس حتى عن الكلام، بل ناجمة عن كونها مؤلفة من وتر واحد فقط شد فوق جراب جلدي شد بدوره فوق علبة خشبية بدائية الصنع. يحمل العازف هذه الآلة الصغيرة كأنها تشيلو ممسوخ مسنود إلى الركبة ويعزف عليها بقوس من شعر ذنب الخيل، أصل الأقواس كلها. ويصنع الوتر عادة من أمعاء الماشية. ولا

علاقة أيضاً لهذا المصدر بتأثير العزف على أمعاء المستمع. ويكفي وتر واحد بالكاد لنصف أوكتافا صوتية. ولذلك فإن إمكانياته الموسيقية قليلة وكافية بالكاد لربع السلم الشرقي الحزين. والأكتوبوس، أي الأخطبوط بالعربية، من الأوكتافا وعدد أرجله أكبر من عدد أصوات الربابة. ولكن لا علاقة لهذا كله بأخطبوط الحواجز حول نواح الربابة.

ليس من عادة الناس التسول بمساعدة آلة موسيقية في هذه البلاد، وليس من عادة العازفين الظهور على جنبات الطرق ولا في الساحات العامة عندما وجدت، ولا في محطات القطار غير القائمة منذ قيام دولة الحواجز، ولا في محطات الباصات المركزية التي حل الحاجز محلها، ولا حتى لأغراض الترويح عن نفس الجمهور. ولذلك لفت عازف الربابة نظر المارة، رمقوه بنظرة وإبتسامة استغراب. ولو عزف كماناً أو قيثاراً للفت النظر بنفس الدرجة. ولكن مشهد الربابة وصوتها على الحاجز بمحاذاة صفوف المارة المنتظرة للعبور كان منسجماً مع المشهد العام، وفقط شمس الربيع الصغير صنع خلفية من البهجة أبرز نواح الربابة:

- يعني زي ما تقول كونتراست.

[58]

عودة من المطر

ذكّر برد ومطر ذلك الشتاء المنهمر من دون توقف الجميع بالطفولة عندما كان الشتاء قبل سنين شتاء، مثل كل شيء. وقد حيره عناد الناس رغم كل شيء. يصرون على أن يواصلوا الحياة رغم الطين والحاجز والبرد والجنود والأمزجة. وقد لاحظ الجميع منذ فترة ما لا يحتاج إلى فطنة خاصة لملاحظته: أن جنود الحاجز يزدادون شراسة على الحاجز، وكلما ازدادت فظاظة ممارسات زملائهم الجنود في الاجتياحات وراء الحاجز يصبح اجتيازه أكثر وعورة ومشقة.

ومع ذلك، وحتى في تلك الأيام تمتد طوابير على الحاجز. يصر الناس على الذهاب إلى العمل رغم كل شيء، وعلى زيارة الأقارب، وعلى البحث عن البضاعة الأرخص سعراً. وهذا ليس لأن الهدف هو الذهاب إلى العمل وزيارة الأقارب وشراء الأشياء بأسعار أرخص. فالحياة قد تستمر من دون اجتياز الحاجز. وتستمر الحياة هنا بالعبور اليومي غير المحسوب النتائج. لا يتشاور الناس قبل أن يأتوا الحاجز يومياً حول حجم المجازفة ولا يتلقون أمراً من أحد، وإنما الجماعة دافع ووازع قائم فيهم. والجماعة ليست دائماً تحدياً وبل قد تكون ترديداً ولكن استمراريتها إزاء الحاجز قاطع الطريق تشكل في وعي الناس وفي لا وعيهم شكلاً من أشكال مقاومة الحاجز.

بالأمس أطلق جندي النار مصوّباً على رِجلِ شاب من بعد سبعة أمتار بعد أن أصر الشاب مناقشاً بحدة على أن له حق المرور لأنه من

المدينة، وهويته زرقاء، ويريد العودة إلى البيت، ولا يحق للجندي أن «ينقعه» تحت المطر حتى «يترنخ»، وأصر إلى درجة اعتبار الجنود الإصرار وقاحة في حالة تشنج من نوع تمشيط السلاح ووضع اليد مرتجة على الزناد والصراخ بالعبرية المزركشة بالشتائم العربية.

- ارجع أو سوف أطلق النار، أخورا، قلت أخورا. . .روخ. . . روخ!!

ثم أطلقت النار فالشاب راهن على تراجع الجندي، والجندي تشنج أمام المارة. والمارة مشدوهون غير مصدقين عبثية المشهد: سهولة الضغط على الزناد تتبعها ضرورة وحتمية الرصاصة منذ أن انطلقت من الفوهة إلى أن طرح الشاب أرضاً وهو يشتم.

- صابني أخو. . .ابن. . . رجلي. . . آخ.

وازداد المارة اندهاشاً عندما تبين لهم أنهم لا يستطيعون الركض لمساعدة الشاب، فهو فوق كل شيء معتقل. وسبحان الله كيف راودهم جميعاً في الوقت ذاته هاجس: كيف سيستقبله المستشفى وهو معتقل جريح في الوقت ذاته؟ المعادلة واضحة: لقد حاول أن يقوم بعملية وجرح، وهذا يعني أنه مخرب وإرهابي. والله يكون في عونه حتى في المستشفى من نبرة ونظرة الممرضات. هذا عدا اعتدادهن التظاهري بالتفوق الأخلاقي المستعرض نحو الخارج «أنه يعني بعالجو رغم أنه جاي يعمل عملية ضدهم». وهو لن يحاول حتى أن يئن لأن أنينه سيعتبر وقاحة. وهو لن يحاول أن يشرح أن العملية الوحيدة التي أراد أن يقوم بها هي عملية العودة إلى البيت تحت المطر عبر الحاجز.

لم تغير هذه الواقعة شيئاً في عادات الناس، وعاد الجميع في اليوم التالي إلى الحاجز، من سمع منهم ومن لم يسمع عما جرى بالأمس. وفي اليوم التالي كان الجنود في حالة ضجر وسأم خطيرة لأنهم يحاولون تجاوزها بالمرح المفروض على الناس المستمعين بقلق لأخبار ما يجري وراء الحاجز عن بيوت هدمت تحت المطر، وعن سقوف نزعت من فوق رؤوس أصحابها.

وكعادتها عندما تمطر وهي تنتظر الحاجز استأذنت سائقاً أن يقيها

المطر تحت سقف سيارته حتى لو طال الانتظار. وها هي تجلس على مقعد السيارة الخلفي، وتحاول أن تجيب على أسئلة السائق ومن معه بأدب واقتضاب.

وما إن وصلوا إلى الحاجز حتى اتكأ جندي على السيارة وواصل حديثه مع زميله وظهره على نافذة السيارة لا يلتفت إلى السائق إطلاقاً. وعندما التفت أخيراً أنزل السائق زجاج الشباك متحملاً قطرات المطر على وجهه ورجليه:

- لوين؟
- عالبيت.
- سب حالك بخليك تمر.
- ما فهمت.
- سب حالك.

احتار الرجل بالطلب فقد حسبه يُطلب من المعتقلين فقط أثناء التحقيق أو في السيارة عندما ينفرد بعض الساديين مع المعتقل فيطلبون منه تنفيذ مهام غريبة. ونظر إلى صديقه ثم إليها في المرآة. وحاولت هي أن تتجاوز الحرج بشتمهم بصوت لا يسمعه إلا السائق ومن يجلس إلى جانبه.

- ما بدي اسب حالي.
- قلتلك سب حالك بمرقك بدون تفتيش.
- ما بدي أسب.

صمد الرجل. وتلت الموقف الصامد لحظات متوترة، ثم ضحك الجندي، وتبين أنه قد تشارط مع زميله.

- طيب سب هذا الـ«حيال» (الجندي بالعبرية)

قالها مشيراً إلى صاحبه.

اعتبرها الرجل استفزازاً لجره إلى مواجهة أو مزاحاً لا يرغب بالمشاركة فيه، فالمشاركة لا بد أن تعتبر تمادياً ووقاحة ولن تجلب في النهاية إلا الضرر. إنه يحب أن يشتمه بالطبع ولكنه حول عدم الشتم الآن إلى مبدأ لا يمكن أن يتراجع عنه.

- قلتلك ما بدي أسب

- سب عليه ما بخليه يعملك شي، تخفش.
- ما بدي أسب .
- طيب يلا امشي.
- . . . يا الله.

تنفست الصعداء في طريقها إلى البيت. صمتوا جميعاً ولم يسمع إلا صوت مسَّاحات النوافذ الأمامية يصدر صريراً نشازاً تتبعه جعجعة، مطاط المساحات مهترئ يمسح الماء والتراب ذهاباً ويترك رسوماً طينية متنوعة على الزجاج إياباً.

[59]

شالونات

بعد سنة من عمرها وعمر الحاجز بدأت وجد تحاور أخاها عمر في نقاشات لا يعرف لها أول من آخر، تبدأ بـ«عمر تعال تعال وقف هون» أو «أمسك هاي!» أو «مين كان صاحبك اليوم؟» ومنها عرفنا أن الصداقات يومية أو مياومة في الحضانة، ولكل يوم صديق أو صديقة يتغير في اليوم الذي يليه. «شوف هذا دبدوب اللي في الكتاب بشبه دبدوب اللي معك؟» فيجيب هو بإعادة السؤال بدون علامة سؤال أي كأنه جواب: «شوف هذا دبدوب اللي في الكتاب بشبه..» «شوف وجدو شوفي دبدوب...» وهي تردد على مسامعه تعليمات لا يأبه بها كثيراً بعد أن يصفن بقائلتها من نوع «لا ممنوع هيك نحكي»، و«هاي بس الكبار مسموح يشربوه» «إذا بتشرب قهوة بطلعلك شوارب».

وينتهي النقاش بـ«هذا كتابي»، «لأ هذا كتابي»، وعمر عنيد وعناده في تكرار ما تقوله أخته بدون رجة صوت بكائية أو ضاحكة أثناء الكلام. وهو يفضل إضحاك الآخرين كما يوفر البكاء كله لانفجار فوري واحد إذا نجحت في تخليص الكتاب أو القلم أو اللعبة من يديه، وما يلبث أن ينتهي البكاء فوراً بلحظة واحدة كأن أحداً غير الموجة إذا استعيد الكتاب.

ونحن نقول، مثل كل الأهل الذين يفكون الحرف أو يدّعون ذلك، إن الابنة البكر حساسة جاءت لوحدها إلى هذه الدنيا وأخذت كل الاهتمام الممكن، والثاني يكبر من دون أن نشعر وقد وجد فوراً أختاً

له، كما وجد إهتماماً أقل كما يبدو أو كما سيدعي عندما يبلغ، ولم يرقص الجميع فرحاً لكل حرف ولكل خطوة بدرت عنه، ولذلك أيضاً قد لا يقول ما يفكر به وقدرته على الكلام غير تدريجية ومفاجئة لأنها تأتي على دفعات، وقدراته هادئة واثقة ولا تقتصر على ما يبديه للفرجة، وما أن يُكتَشف هذا النجم البيتي الجديد وينصعق هوائي الحب لدينا مرة واحدة ويتفجر الإعجاب بالابن، حتى تبدأ الغيرة... ويتدفق حب من دون شروط ضفافه حب وكذلك منبعه ومصبه.

نجح عمر اليوم بتخليص اللعبة من بين أيديها فبكت ثم علّقت منذرة محذرة يائسة:

- مهو السارونات رح يوخذها منك اليوم بتئدرش تاخدها عالمدرسة.
- شالونات، شالونات، الشالونات ما بخلوني وجدو!! وجدو بتئول الشالونات بوخدوها، لأ، بابا ما بخليهم.
- بوخدوهم
- لا
- مبلى
- لا
- آه
- لا..لا..لأ
- ...آه آه آه

واحتاج الأمر تحقيقاً لنفهم من هم السارونات بلغة وجد ألا وهم الشالونات بلغة عمر.

- هدول السالون بابا، السارون، السارون بابا، الشالون اللي بالتلفزيون، اللي بالتلفزيون بابا.

والمقصود شارون رئيس وزراء دولة الحاجز وجنديها الأول في تلك المرحلة من حياة وجد. وشارونات جمع شارون والمقصود هو جنود الحاجز. الجنود هم الشارونات على رأي وجد، المعبر عنهم لفظاً بأجمل من الواقع بكثير: سارونات على وزن بالونات مثلاً.

ويفضح عمر أمر أخته: وجدو بتغني شارون.

وتنطلق وجد بالغناء:

«واحنا زغار، يا حرام
ودونا عالمدارس
شنطة كبيره أعطونا
حطونا إلها حارس
أول يوم فطور منيح
مع جبنه ومارتديلا
كاسة شاي مع حليب
زتون وزيت وزعتر
تاني يوم فش جبنه
والبيضة في بطن الجاجة
والعنزة سرحت بكير
وملحقناش الحليبات»

- لا وجدو لا مش هاي مش هاي، مش زبنه. سارون، سارون.

فأجابت وجد بسؤال إلى والدها كأنها تغير الموضوع بعدم اكتراث:

- بابا حرب، آلوا في الحضانة، بدو يصير حرب.
- مش عارف بابا، هم قالولك، بس الحمد لله، ما لحقوا يخوفوك.
- بابا! بالحرب. سارون بطخ عسارون؟

مكتبة
t.me/t_pdf